



عبد الكبير الحسني

د. عبد الكبير الحسني

الدلالة المعرفية ومشروع بناء هندسة للمعنى



Apaluu Oct.
2011-2019 Oct.
2011



- أستاذ اللسانيات العربية بجامعة السلطان المولى سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، المغرب
- حاصل على الدكتوراه في اللسانيات العربية المقارنة، شعبة اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا المعمقة، تخصص لسانيات عربية مقارنة بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب

له العديد من الأعمال المنشورة أهمها:

- كتاب البنات الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن، دار كنوز المعرفة العلمية، الأردن، 2015؛ [كتاب ترشح ضمن اللائحة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب 2016]؛
- آليات بناء الحجاج: من اللغة إلى الذهن، ضمن مجلة روابط، منشورات جامعة العربي التبسي، العددان الأول والثاني (مزدوج). شتنبر 2018.
- آليات تنظيم المعنى: المجالات والوظائف والسّمات، ضمن كتاب قضايا لسانية معاصرة، عن أشغال المؤتمر الدولي السنوي الأول، الجزء الأول، عن منشورات مقاربات (2018).
- السّمات الدلالية للمتصلات وهندسة توزيعها في التركيب: دراسة مقارنة، ضمن مجلة اللسانيات العربية التي يصدرها مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية. العدد السادس، (2018).

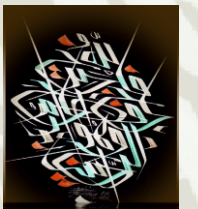


د. عبد الكبير الحسني

الدلالة المعرفية ومشروع بناء هندسة للمعنى

الدلالة المعرفية ومشروع بناء هندسة للمعنى

من المهم جدا أن نجعل من النظرية الدلالية معاصرة لنفسها، أن نفهمها في الحدود التاريخية التي أنتجتها والظروف المعرفية والثقافية التي تشكلت في حضنها، لنجعلها معاصرة لنا وأن نستوعبها من منطلق الفهم المعاصر للدلالة ولقوانين تطورها، وليس من زاوية أقدميتها، ولا نرى في ذلك تأزما في الوعي اللساني، بل أرى أن أي نظرية دلالية يجب أن تتطور وفق مسار يحفظ لها إمكانية إعادة بناء نفسها، وإعادة البناء هنا يقتضي حصر التفكير بضوابط الأنساق المعرفية التي تُحكم سيرورات التطور والنمو، ونحن نعلم مسبقا أن تاريخ البحث الدلالي بمفهومه اللساني قصير جدا مقارنة مع تاريخ البحث اللساني بشكل عام، إلا أن قصرها جاء متوافقا مع المقاربات التي فرضت نفسها على البحث اللساني إذ تجاوزت الوصف الصوري في اللسانيات الحديثة إلى الوصف المعرفي الذي يستهدف مناقشة قضايا الفكر والتصوير والإدراك والتمثل. فكان من اللازم أن نعيد طرح الأسئلة الصحيحة حول مبادئ التأليف التي تربط الدلالة بالتركيب.



الدلالة المعرفية
ومشروع بناء هندسة للمعنى



9 789957 1748272



لوحة الغلاف: إبراهيم أبو طوق (فلسطين)



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ص.ب 712577 عمان (117) الأردن
هاتف 4655 877 فاكس +962 6 4655 875
www.darkonoz.com
dar_konoz@yahoo.com info@darkonoz.com

darkonoz.almarefa darkonoz darkonoz



darkonoz



الدّلالة المعرفيّة
ومشروع بناء هندسة للمعنى

الدّلالة المعرفيّة ومشروع بناء هندسة للمعنى

د. عبد الكبير الحسني



2020

الدلالة المعرفية و مشروع بناء هندسة للمعنى

تأليف: عبد الكبير الحسني

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2019/7/3356

ردمك: 2- ISBN 978-9957-74-827

الطبعة الأولى 2020م 1441هـ

حقوق الطبع محفوظة ©



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

وسط البلد - شارع الملك حسين - مقابل بنك الإسكان

عمان - الأردن Amman - Jordan

هاتف 00962 6 4655877

فاكس 00962 6 4655875

خلوي 00962 79 5525 494

www.darkonoz.com

E-mail: info@darkonoz.com

dar_konoz@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

تصميم الغلاف والإشراف الفني: محمد أيوب

إهداء

إلى روح والداي: يامنة و سعيد.

المحتويات

١١ تقديم
١٥ الفصل الأول: النظرية الدلالية: حفريات في اللغة والإدراك والتعلم
١٧ تقديم
١٧ ١- معايير النظرية الدلالية
٢٠ ١-١ المعيار الوجودي
٢٢ ٢-١ المعيار الدلالي
٢٤ ٣-١ المعيار المعرفي
٢٦ ٤-١ المعيار الاجتماعي
٣٠ ٢- أوليات البناء المعرفي للمعنى
٣١ ١-٢ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية النمط النموذجي
٣٥ ٢-٢ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية الحقول الدلالية
٤١ ٣-٢ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية الفضاءات الذهنية
٤٥ ٤-٢ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظريه الاستعارة التصورية
٥٠ ٥-٢ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظريه دلالة الأطر
٥٢ ٦-٢ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية التوليد الدلالي
٥٦ ٣- اكتساب المعرفة الدلالية
٥٧ ١-٣ شبكة تعلم المعرفة الدلالية
٥٨ ١-١-٣ التعلم الذاتي

٦٠ ٣-١-٢ تمثل عواطف الآخرين
٦٠ ٣-١-٣ تمثل رغبات الآخرين
٦١ ٣-١-٤ تمثل انتباه الآخرين
٦١ ٣-١-٥ تمثل أهداف الغير ونواياه
٦٢ ٣-١-٦ تمثل معتقدات الغير ومعرفته
٦٣ ٤- التصورات: أوليات الاكتساب وبداية تأويل العالم
٦٤ ٤-١ هندسة المعجم الذهني
٦٨ ٤-٢ دور المعرفة الدلالية في الاكتساب اللغوي
٧١ خاتمة
٧٣ الفصل الثاني: الدلالة المعرفية ونظرية الفضاءات التصورية
٧٥ تقديم
٧٥ ١- تحولات الفكر اللغوي
٧٩ ٢- نظرية الفضاءات التصورية: هندسة جديدة للمعنى
٨٠ ٢-١ بناء الفضاءات التصورية
٨٥ ٢-٢ خصوصية الفضاءات التصورية
٩٠ ٣- التعلم عبر الفضاءات التصورية
٩١ ٣-١ فرضية النمط النموذجي للتصور
٩٢ ٣-٢ تحولات البناء التصوري
٩٦ ٣-٣ المعاني لا توجد في الذهن «فقط»
٩٩ ٣-٤ إنتاج الفضاءات التصورية
١٠٣ ٤- المجالات في اللسانيات المعرفية
١٠٨ ٤-١ هندسة المجالات المعرفية
١١٣ ٤-٢ المجالات المعرفية الكبرى

١١٦	٤-٣ المجالات الدلالية الصغرى.....
١٢٣	٥- الوظائف الدلالية: نحو تصور جديد للجملة والمركب
١٣١	٦- المعرفة الدلالية والمعرفة النحوية
١٣٧	خاتمة.....
١٣٩	الفصل الثالث: هندسة بناء المعنى.....
١٤١	تقديم
١٤٢	١- العلاقة بين الإدراك وعلم الدلالة
١٤٨	٢- التوازي بين فهم اللغة والعمليات البصرية
١٥٤	٣- العلاقة بين طبقات الأحداث وعلم الدلالة
١٦١	٤- آليات تنظيم المعنى
١٦٤	٤-١ آليات إدراك المعنى
١٧١	٤-٢ العمليات الذهنية في إدراك المعنى
١٧٦	٤-٣ دور التصورات في بناء المعنى
١٧٨	خاتمة.....
١٧٩	الفصل الرابع: آليات بناء السّمات
١٨١	تقديم
١٨٣	١- الهندسة العامة للسّمات
١٨٥	١-١ الطبيعة الدلالية للسّمات
١٨٨	١-٢ الطبيعة المقولية للسّمات.....
١٩٤	١-٣ مستويات التمثيل الدلالي للسّمات
١٩٩	٢- صور انتظام السّمات في الذهن
٢٠٠	٢-١ علاقة اللغة بالذهن
٢٠٤	٢-٢ فرضية مركزية السّمات الدلالية

٢٠٩	٣- إشكال الفصل بين اللفظ والمعنى
٢٠٩	٣-١ بناء الكلمة في الأدبيات اللسانية
٢١٥	٣-٢ هندسة بناء السّمات في الذهن
٢٢١	٣-٣ السّمات بين التصورات وبناء التصورات
٢٢٤	خاتمة

تقديم

ماذا يدرك الأطفال عندما يبدوون في تعلم لغة معينة؟ بالتأكيد يعرفون العديد من الكلمات اللغة (معجم)، ويعرفون كيفية وضع تلك الكلمات بطريقة مناسبة داخل تركيب معين (بناء الجملة). الأهم من ذلك، أنهم يعرفون معنى الكلمات وما تعنيه عندما نضعها معاً في سياق معين (التواصل). بصيغة أخرى، يمكن أن نعيد طرح الأسئلة وفق وجهة أخرى مثلاً: هل نعرف معاني الكلمات من اللغة ذاتها أم من خارج محيطها، وماذا لو لم نكن نتقن استعمال معنى الكلمات، فالأكيد أننا لن نتوفق في الوصول إلى بناء المعنى. لذلك تبقى المعرفة الدلالية هي الأكثر أهمية من المعرفة النحوية.

من جهة أخرى، يمكننا أن نتواصل بلغة أجنبية من خلال معرفتنا ببعض كلماتها وبدون استخدام أي قاعدة من القواعد النحو، أو حتى إذا كنا لا نعرف أي كلمة من كلمات الثقافة اللغوية التي نبتغي التواصل بها، يمكننا دوماً محاولة الاتصال عن طريق الإيماءات والإشارات، على أمل أن المعنى المقصود من ذلك سيكون مجدداً للوصول إلى مخاطبنا. وعليه يمكن أن يحدث التواصل بدون لغة مشتركة؛ بمعنى قد لا نتحدث إلا أنه بإمكاننا أن نبني المعنى، مما يؤكد وجود استمرارية بين أنظمة التواصل اللفظية وغير اللفظية في بنائه، الشيء الذي يدفع بالنظرية الدلالية نحو تثمين هذه الاستمرارية والحفاظ عليها^(١).

(١) هي الاستمرارية التي انطلقت بوادها العلمية الأولى من خلال العمل الذي قاده «دو سوسير» سنة (١٩١٦) إذ ميز بين اللسان كنظام اجتماعي للعلامات والكلام كأفعال خاصة بالخطاب الفردي؛ مؤكداً أن علامات اللغة هي منتجات جماعية ترصد من خلال التفاعل بين الأشياء وتصوراتها؛ والتي من خلالها يمكن للإنسان التعبير عن عالمه، لكنه لم يوضح كيف يمكن أن ينشأ اللسان من الكلام.

وفق ذلك، نحاول في هذا الكتاب أن نبني نظرية جديدة في الدلالة تستهدف الطريقة التي يبني من خلالها الطفل المعنى باعتباره وحدات موسوعية تتجاوز أنظمة اللغة إلى أنظمة أخرى لها علاقة بالقدرة على إدراك العالم وتمثله، مركزين على كيفية بناء اللغة من منطلق النظر في مختلف أنظمة التواصل التي تتأسس على نظام استقرار المعاني المشتركة بين المتحاورين، بمعنى أننا نستهدف من وراء ذلك التأثير الاجتماعي ودوره في ترسيخ وتنمية المعاني عند الأطفال، بالإضافة إلى أننا سنحاول تجاوز الطرح الاجتماعي للبحث في مجموع المقاربات اللسانية والنظريات الدلالية الحديثة التي نظرت إلى معاني الكلمات من زاوية أن تكون أكثر أو أقل استقراراً واستقلالية عن سياق التواصل، منتقدين في الوقت نفسه الطريقة التي تمّ من خلالها دراسة الدلالة في الكثير من الأدبيات اللسانية^(١)، وفق ذلك نفترض أن الدلالة تتطور من خلال التفاعل المفترض بين الأفعال التواصلية وبين مواضع المعنى موجود بالفعل. من هذا المنظور، يمكننا استخلاص الحدود الفاصلة بين البراغماتية والدلالة (لانفاكير 1987 Langacker)، إذ غالباً ما يتم بناء المعنى من خلال مخرجات الحوار، إلا أن بعض المتغيرات قد تدخل على المعنى سريعاً، كما هو الحال بالنسبة للجداول الزمنية المختلفة، إذ أن الانتقال في الزمن من الإحالة على الوقت إلى الإحالة على الزمن/ الطيب (يداوي الزمن كل الجراح) أو الزمن/ البضاعة (الوقت من ذهب) أو الزمن/ وحش (الزمن وحش كاسر لا تضع ثقتك فيه)^(٢)... كل هذه المعاني المنتجة يتم بناؤها وفق العديد من العمليات التي ترتبط بطبيعة التجربة التي يستنبطها الأطفال من خلال احتكاكهم بالعشيرة اللغوية التي تقدم لهم كل المعطيات الضرورية لبناء نسق لغوي خاص، لكن من الضروري أن نشير

(١) سنقدم تفصيلاً عن تلك الأدبيات في الفصل الثاني باعتبارها مقدمات أولى للسانيات المعرفية.
(٢) للتوسع أكثر في التصورات التي يبني من خلالها نسقنا الزمني يرجى العودة إلى كتاب البنات الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن، لعبد الكبير الحسني، عن دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن (٢٠١٥).

أيضا أن هذه المعطيات غير كافية لأنها تفتقر إلى مبدأ الشمولية والكلية، فلا يمكن أن تقدم العشيرة كل شيء عن العالم، فمن الضروري أن يفتح الأطفال على مفهوم الإبداعية الذي يمكنهم من توليد عدد لا محدود من المعاني رغم إكراه فقر المنبه^(١)، لذلك، في نظرنا، يجب أن نبني نظرية دلالية خاصة بهذا الغرض، وهي النظرية التي اعتمدت فيها على معايير محددة تدفع نحو ربط الدلالة بمختلف أشكال التواصل باعتبارها عمليات معرفي، انسجاما مع ما قدمه «جاكندوف» (Jackendoff 1983) بقوله إن «دراسة دلالة اللغة الطبيعية هي دراسة علم النفس المعرفي»^(٢).

لايفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى كل الأساتذة والطلبة الذين أمدونا بكل الدعم من أجل أن يرى هذا العمل النور، كما أشكر كل الإخوة والأحبة والأصدقاء الذين يغمرونني دوما بحبهم وعطفهم اللامشروط، وانسجاما مع موضوع هذا الكتاب، ودفاعا عن فرضية أن اللغة ليست أداة للتواصل لعجزها عن نقل كل ما نشعر به ونفكر فيه، فإني أقول إن لغتي عاجزة أمام مقامكم الفاضل، بل هي عاجزة عن قول كل ما أشعر به تجاهكم، لذلك أقول: شكرا لكم.

(١) المقصود بفقر المنبه كما تصوره نعوم تشومسكي هو أن الوسط الاجتماعي لا يقدم المعطيات اللغوية الكافية التي تمكن الطفل من إنتاج اللغة، بل إن الطفل يبدع في لغته رغم أن المنبهات اللغوية المتاحة أمامه تتسم بالفقر وعدم الكفاية

(٢) Jackendoff, R. (1983). Semantics and cognition. Cambridge, MA: MIT Press.p: 15

الفصل الأول
النظرية الدلالية: حفريات في اللغة
والإدراك والتعلم.

تقديم

من المهم جدا أن نجعل من النظرية الدلالية معاصرة لنفسها، أن نفهمها في الحدود التاريخية التي أنتجتها والظروف المعرفية والثقافية التي تشكلت في حضنها، لنجعلها معاصرة لنا وأن نستوعبها من منطلق الفهم المعاصر للدلالة ولقوانين تطورها، وليس من زاوية أقدميتها، ولا نرى في ذلك تازما في الوعي اللساني، بل أرى أن أي نظرية دلالية يجب أن تتطور وفق مسار يحفظ لها إمكانية إعادة بناء نفسها، وإعادة البناء هنا يقتضي حصر التفكير بضوابط الأنساق المعرفية التي تُحكم بسيرورات التطور والنمو، ونحن نعلم مسبقا أن تاريخ البحث الدلالي بمفهومه اللساني قصير جدا مقارنة مع تاريخ البحث اللساني بشكل عام، إلا أن قصرها جاء متوافقا مع مقاربات المعنى التي فرضت نفسها على البحث اللساني باعتبارها تتجاوز الوصف الصوري في اللسانيات الحديثة إلى الوصف المعرفي الذي يستهدف مناقشة قضايا الفكر والتصوير والإدراك والتمثل. فكان من اللازم أن نعيد طرح الأسئلة الصحيحة حول مبادئ التأليف التي تربط الدلالة بالتركيب.

١- معايير النظرية الدلالية

عرف السياق التاريخي للنظرية الدلالية العديد من التحولات منطلقا من إقصاء الدلالة في النموذج التوليدي الأول الذي انبثق مع صدور كتاب البنيات التركيبية لتشومسكي سنة (١٩٥٧)، ثم إدخال المكون الدلالي في نموذج (٦٧) بعد انتقادات

كبيرة للنموذج الأول^(١)، قبل أن تستقل النظرية الدلالية بنفسها من خلال أعمال جاكندوف ولايكوف وجونسون وغيرهم، وتتطور بشكل مستقل لتنتقل على محطات من الدلالة بالمعنى التأويلي إلى الدلالة بالمعنى التوليدي والتي قادها غروبر من خلال أجرأة فصل عبرها حدود اشتغال الدلالة في علاقتها بالتركيب ساعيا من وراء ذلك إلى بناء نموذج جديد للنحو يكون فيه المكون الدلالي مكونا مستقلا وفعالا^(٢)، إلا

(١) مراحل تطور النظرية الدلالية في النماذج التوليديّة الأولى هي:

أ- مرحلة ما قبل المعيار: يمثلها النموذج (٥٧) وهو عبارة عن تغطية لأهم ما تركزت عليه النظرية التوليديّة التحويلية، إذ قدم تشومسكي فيها تصورا للنحو كما يفهمه، وهو التصور الذي أسسه على مكونين اثنين هما: المكون التركيبي + المكون الصوتي، مع العلم أنه نموذج لم تحضر فيه الدلالة، وقد أقصيت الدلالة لأسباب خاصة وعامة.

ب- النظرية المعيار: ما يميز النظرية المعيار أنها مرت عبر مجموعة من المراحل المؤسسة أهمها:
١ - نموذج (٦٣) (كاتز وفدور) الذي حمل أول محاولة لاتخاذ المكون الدلالي كأحد مكونات الوصف اللساني، مع اعتبار أن له وظيفة ثانوية بالقياس مع المكون التركيبي والمكون التحويلي.
٢ - نموذج (٦٤) ل (كاتز وبوسطل) قاما فيه الباحثان بتزكية نموذج (٦٣) وتدعيم ما جاء فيه؛ لكنهما أعادا النظر في وضع وظيفة المكون الدلالي أولا تم بحثا هل التحويلات تؤثر في دلالات الجمل التي تجري عليها أيضا.

٣- نموذج (٦٥) لتشومسكي كان الغرض منه تزكية وتدعيم عمل (كاتز وفدور) و(كاتز وبوسطل)، كما عرض فيه تشومسكي مجموعة من المفاهيم النظرية التي لم يعرضها العرض الكافي في كتابة الأول، كما قام بمعالجة أشكال الدلالة داخل النظرية التوليديّة أو داخل النحو بصفة عامة، وقد عالج الدلالة عن طريق توسيع العنصر التركيبي الأساس بإدخال قواعد التفريغ المقولي الصارمة منها والانتقائية.

(٢) يحدد غروبر (grober) أن كل مدخل معجمي هو في الأصل جمع بين الوحدة المعجمية (الصرف) وبين المحيط المعجمي (الدلالي - التركيبي)، وهي تعالقات أطلق عليها غروبر ما يمكن تسميته ب: مكون التعالق المعجمي (lexical attachment component)، وما يمكن أن نلاحظه على النسق النحو كما يقترحه غروبر أنه لا يتضمن مكون التأويل الدلالي كما ورد عند فدور وتشومسكي وكاتز، اعتبارا أن الوظائف الدلالية لها قدرة على القيام بالدور نفسه الذي يقوم به هذا المكون من جهة، ومن جهة أخرى أن مكون التعالق المعجمي هو مكون قاعدي يضطلع بوظيفة الربط بين الدلالة والتركيب.

أن الانتباه إلى مسألة الذهن في إطار ما أصبح يعرف اليوم باللسانيات المعرفية فرض على الدلالة أن تنخرط في مسار جديد من البحث يفصل بين النحو المعرفي والدلالة المعرفية، لا يهملنا هنا الدخول في تفاصيل هذا الانتقال، لكن من المهم جداً أن نؤكد أن النظرية الدلالية عرفت تطورات متلاحقة وفق مقاربات لا تقصي الثانية الأولى بقدر ما تساهم في تطويرها عبر تثبيت المرتكزات وإعادة النظر في مواطن الاختلاف ضمناً لتجديد التفكير في بنية المعنى، وإعادة تبويبها وفق منطلقات الدلالة المعرفية التي نفترض أن المعنى لا يمكن أن يبنى إلا في إطار تفاعلات اجتماعية انسجاماً مع فرضية المعنى الموسوعي^(١) باعتبارها نظرية مؤطرة للبحث الدلالي المعرفي، وعليه، فإن مجال الدراسة المعروف باسم علم الدلالة المعرفي يهتم بمسألة التحقيق في العلاقة المفترضة بين التجربة والنظام التصوري والبنية الدلالية المشفرة حسب اللغة. إذ يقوم الباحثون العاملون في الدلالة المعرفية بالتحقيق في تمثيل المعرفة (البنية التصورية)، وبناء المعنى (التصورات) عبر استخدام الدلالة التصورية للغة باعتبارها العدسة التي يمكن من خلالها التحقق من الظواهر المعرفية. وعليه نقول إن البحث في الدلالة المعرفية لا يميل فقط إلى الاهتمام بنمذجة العقل البشري بقدر ما تهتم أيضاً بالتحقيق في الدلالة اللغوية. على اعتبار أن النهج المعرفي للغة يتعلق بقواعد نمذجة نظام اللغة («القواعد اللغوية» العقلية)، بدلاً من طبيعة العقل في حد ذاته. ومع ذلك، فإننا نتخذ كمنقطة انطلاق لوضع استنتاجات لفهم طرق اشتغالها. نؤكد وفق ذلك أنه من الأهمية بمكان ملاحظة أنه على الرغم من أن دراسة الدلالة المعرفية والأساليب المعرفية للقواعد تكون أحياناً متميزة، فهذا لا يعني بأي حال من الأحوال، أنها تكون

(١) سنتحدث لاحقاً من هذا الكتاب عن المقصود بالمعنى الموسوعي، لكن من الممكن أن نقدم بعضاً من المعطيات حوله اعتباراً أن هذا المعنى يستنبط من مخرجات الحوار، فلا يوجد معنى ثابت ومستقر، بل ما يوجد هي معاني متغيرة، وهي المعاني التي تدفعنا إلى التأكيد بوجود معنى موسوعي باعتباره فرضية معرفية تربط بين اللغة والذهن.

بمعزل عن بقية المستويات الأخرى، لأن معظم العمل في اللسانيات المعرفية يتقاطع بالضرورة مع الدلالة المعجمية والتنظيم النحوي للترايب اللغوية. لذلك يجب أن نركز في صياغة النظرية الدلالية التي نتبناها في هذا الكتاب على تحديد مجموعة من المعايير المنهجية التي نراها ضرورية لنجاحها^(١).

١-١ المعيار الوجودي

نرى في أهمية هذا المعيار أنه يجوز للنظرية الدلالية أن تدخل في نقاش البحث عن معاني المقولات الأنطولوجية (Categories Anthologic Sens)^(٢) المؤسسة للغة العربية تحديداً، على اعتبار أن بناء المعنى يرتبط بعمليات مقولية تصنف العالم إلى مقولات أنطولوجية يُحال عليها بتعابير لغوية، وهي عمليات تستجيب بالضرورة لفترة اكتساب اللغة عند الأطفال، إذ لا يمكن أن تنجح عملية الربط بين ما ندرکه وبين ما يتم التعبير عنه إلا من خلال الفصل الإجرائي بين اللغة كتعبير والمقولات كمحتوى مشكل من أوليات تصورية تعمل على تحديد طبيعة هذه المقولات وخصائصها، والقاعدة المتحكمة في هذا المعيار تتعلق بقدرة الحكم على كيان معين كونه يمثل

(١) من المهم أن نؤكد أن المسار الانتقالي للبحث الدلالي كان انتقالاتاً فرضته حتمية التطور العلمي للبحث اللساني، فالانتقال بالدلالة من مكون التأويل إلى المكون الدلالة وصولاً إلى الدلالة بالمعنى التصوري، فرض علينا أن نتقل باللغة من البحث في قواعد النسق اللغوي إلى البحث في قواعد بناء الذهن، فتحوّلت وفق ذلك اللغة من غاية إلى وسيلة نفهم من خلالها طرق اشتغال الذهن.

(٢) المقولات الأنطولوجية هي مجموعة من الأوليات التصورية التي تحدد إمكان هذه المقولات ووظيفتها، كما تعمل على تأمين الربط الممكن بين ما نراه وبين ما نحيل عليه في إطار استعمالنا للغة، بمعنى أن الإنسان يملك قدرة على إسقاط عالمه الخارجي في قوالب مقولية يتم التعبير عنها باللغة. لذلك فإن صياغة المقولة يعدّ من المظاهر الجوهرية للمعرفة التي تركز على طبيعة المعلومات والعمليات التي يجب إسنادها إلى الذات من أجل رصد أحكامها المقولية.

لمقولة معينة أو لا يمثلها عبر رصد المعلومات والعمليات التي يجب إسنادها له لبناء أحكام مقولية خاصة. لذلك فإن أي تمايز يجب أن يظهر في البنية التصورية عبر تمييز الأشياء عن الأنماط والأمكنة والأعمال والأحداث، باعتبارها عوالم مقولية (Catégorisation) يتم التعبير عنها بواسطة المركبات الاسمية والمركبات الفعلية والجمل والظروف؛ بمعنى أن الوعي بالمادة أنطولوجية يجب أن ينسجم مع طبيعة الإسقاط الممثل في الذهن، وبالتالي يمكن أن نسمي هذه العملية بالتمثيل الذهني أو البنية التصورية (Conceptuel Structure). ولتوضيح ذلك يكفي أن نتأمل في التراكيب التالية:

- ١- أ- رأيتك تمشي عبر السّياح الفاصل بين النهر والجبل.
- ب- تسلقت الجبل في ساعة واحدة.
- ج- كتبت الرسالة في خمس دقائق.
- د- لدي انطباع جميل على شخصك الكريم.
- هـ- أحلم بأن أراك في القمة.
- ع- أخطط لمستقبل يشرفني.
- ن- لغتي لا تسعفني للتعبير عن كل ما أشعر به تجاهك.
- ت- أتذكر كل تفاصيل علاقتي بك.

يمكن لنا أن نجد، في إطار البحث في فلسفة اللغة، إجابتين مختلفتين جوهريا عن السؤال الأنطولوجي الوارد في الأمثلة أعلاه، أو لا المقاربة الواقعية التي تفترض أن معنى كلمة المشي والتسلق والكتابة والانطباع والحلم والتخطيط مثلا يرتبط بالتعبير عن شيء موجود في العالم الخارجي، إلا أن هذا الطرح لا يمكن مسابته بشكل كبير اعتبارا أن معظم محتويات التواصل الإنساني لها ارتباط بعوالمهم الداخلية كالذكريات

والأحكام والخطط والأوهام والأحلام. واعتبارا أيضا أن الاستخدام الرئيسي للغة هو الإشارة إلى الأشياء التي ليست موجودة في العالم الخارجي والتواصل، يقترح «هوكيث» (Hockett ١٩٦٠) أن هذا النوع من «النزوح» هو أحد العوامل الرئيسية التي تميز اللغة الرمزية كونها مجرد إشارة، لذلك فإن بناء النظرية الدلالية على مبدأ الإشارة إلى العالم الخارجي فقط يبدو أمرا غير طبيعي بالمرّة ولا يستقيم مع الكم العائل من التصورات التي لا تستطيع اللغة بأي حال من الأحوال أن تعبر عنها، فنحن كائنات لا تصرح بكل شيء، ولا نستطيع أيضا أن نبوح بكل ما نفكر فيه لضرورات معينة.

أما المقاربة الثانية فيمكن نعتها بالمقاربة المعرفية (أو التصورات) التي افترضت أن المعاني هي وحدات / كيانات موجودة في الذهن تنسج مكوناتها من خلال العلاقة بين الأفعال التواصلية وبعض الكيانات المعرفية، ذلك أن المقاربة المعرفية للدلالة لا تعني أن العالم الخارجي لا يلعب أي دور في تحديد محتويات المعاني في الذهن، على العكس من ذلك، فتشكل البنيات المعرفية عند الأطفال هي في تفاعل المستمر بين أذهاننا والعالم الخارجي. لذلك فإن المعيار الوجودي يرصد طبيعة العلاقة بين الكيانات الموجودة في العالم الخارجي ونظرية الذهن باعتبار تفاعلها المستمر مع الأشياء، وهو الجانب الذي يدفعنا نحو رصد المعيار الثاني باعتباره جزءا من العلاقة التفاعلية، لكن من زاوية مختلفة ومغايرة تماما.

١ - ٢ المعيار الدلالي

غالبا ما يصاغ تأويل المعيار الدلالي من حيث شروط الصّدق التي تفترض أن معنى كلمة ما هو مطابقتها للواقع بالنظر إلى مؤشر الإسقاط بين عناصر اللغة والعالم الخارجي. وهي المقاربة التي أعيد النظر فيها كون الأطفال لا يبدعون في اللغة من خلال ما يدركونه عن العالم فقط، بل إن مفهوم الإبداعية يتجاوز محيط اللغة الخارجي إلى عوالم داخلية أكثر تعقيدا وتجريدا، بل هي تداعيات موكولة لدور الإنسان

(ومستخدمي اللغة المحتملين الآخرين) من حيث قدرتهم على نسج العلاقة بين نظام التواصل والمعنى. هي المؤشرات التي ركزت عليها الدلالة المعرفية التي وضعت دور الإنسان في المركز، وتعتبر التواصل جزءاً من بين العديد من الأنشطة المعرفية المتشابكة بشكل دقيق. لذلك فإن هذا المعيار يشغل فور انتهاء المعيار الأول، بالنظر أن كل الكيانات الموجودة لا يمكن أن إسقاطها في الذهن إلا إذا حملت معنى في ذاتها، وهي عملية تستهدف العلاقة التي تبنى وفق الربط بين البنية التصورية والبنية اللغوية، لكن من المهم أن نشير أن البنية التصورية قد تتطور وفق مسار دلالي يدفع نحو تطوير الكلمة كلما نجح الإنسان في إضافة سمة أو سمات عن المعنى الأول الذي عرفه، ولكي نوضح ذلك نتأمل الأمثلة التالية:

٢- أ- تتطور شخصيتي يوماً عن يوم

ب- أزداد نضجاً كلما أدركت أن معنى الحيوان يشمل الإنسان

تقدم هذه الأمثلة توضيحاً بسيطاً يدفعنا نحو التأكيد أن معانينا تتطور وتنمو يوماً عن يوم، فشخصية الإنسان تنضج وتستقيم وتبنى وفق المواقف التي نمرّ منها، فهي تجارب تنزل منزلة معارف تنضاف إلى رصيدنا، مما يجعلنا نؤكد أن شخصية الإنسان وهو طفل ليست نفسها وهو شاب، وليست بالمعايير نفسها وهو يبلغ مرحلة الرجولة وهكذا... وهو الأمر الذي يجعلنا ندرك أنه كلما زدنا معرفة عن الحيوان أدركنا أن القط مختلف عن الكلب والأسد...، بل كلما ميّزنا بينها أدركنا أيضاً أن الإنسان حيوان، وأن معنى الحيوان المرتبط بالإنسان يحمل دلالة النطق التي تميزه عن البقية وهكذا.. المهم أن هذه العلاقات الدلالية غير ثابتة على معاني مستقرة، بل هي علاقات يطبعها التغيير كلما زاد الإنسان معرفة وعلماً بقطع النظر عن الوسيلة الموظفة في ذلك.

نصادف في الأدبيات المعرفية طريقتين مختلفتين لتحديد العلاقات الدلالية المركزية. أولها المقاربة الواقعية التي ركزت على دلالة الجمل التي تعتبر أن المعاني

لبنات أساسية مرتبطة بالأفراد والمحمولات. في مقابل ذلك نجد أن المقاربة المعرفية تعاملت مع ذلك من زاوية ارتباط معاني الكلمات والتراكيب بعملية الانتقاء الخاصة التي يمارسها المتكلمون في تعابيرهم وخطاباتهم.

إذا كان كل تركيب يحمل بين مكوناته ومستوياته التألفية معنى معيناً، فإن كل محتوى للمعنى هو في اعتقادنا بنية تصويرية لها إسقاط دلالي، وجزء من البنية التصويرية يكون مرتبطاً بالمعرفة، بمعنى أدق أن بناء النظرية الدلالية يجب أن تتوازي فيه الألفاظ مع حمولة دلالية معينة، ونحن إذ نتصور أنه من الصعب أن يفصل اللفظ عن معنى معين، فإن توليد هذا المعنى تتدخل فيه مجموعة من الوسائط من نوايا ومعارف ومعتقدات وحدوس ومشاعر...

المهم أن أهمية هذا المعيار تكمن في القدرة على فرز المعرفة عن الدلالة من جهة، ومن جهة أخرى ربط المعنى بجزء من البنية التصويرية اعتباراً أن «الحاجات تتجاوز المسميات» بتعبير الجاحظ، فلا يمكن دوماً أن نتصور وجود إسقاطات ثابتة بين اللفظ والمعنى، بل كثيراً ما يتجاوز المعنى اللفظ ليصل إلى مستوى الدلالة، فاللغة لا تستغرق المحيط، فهي تعبير عن عجز أكثر ما تعبر عن قوة.

١ - ٣ - المعيار المعرفي

يتعلم الأطفال اللغة من دون جهد وبطوعية تماماً، يتعلمون كلمات جديدة بسرعة جنونية، فالطفل في سن الثامنة عشرة، وبعد استكمال مراحل التدريس الثانوي من المفروض أن يكون قد تعلم ستين ألف كلمة من لغته الأم كتابياً وخطابياً، وبتوظيف عملية حسابية بسيطة قد نقول إن الأطفال يتعلمون ما معدله تسع إلى عشر كلمات يومياً خلال مرحلة الطفولة، وهناك أمثلة كثيرة ترصد الكيفية التي استخدمها الأطفال عند توظيفهم لكلماتهم ضمن سياق معين، إذ غالباً ما يكون الأمر محفزاً على تعلم معناها، أي أن أشكال التعلم لها علاقة بدرجة الكفاءة العالية التي تتوافر عندهم.

كيف يعرف الأطفال ما يجب تعلمه؟ عندما يتلفظ الأطفال بكلمة جديدة غالباً ما يصاحب ذلك العديد من الأفعال وانتظار ردود الأفعال، من رصد لملاحم الأشخاص، ومقتضيات الأحداث الجارية التي تتداخل في ما بينها لبناء معنى الكلمة ما. وعندما يطرح سؤال الكيفية التي تمكّن الطفل من اختيار المعنى الصحيح؟ غالباً ما يتم ذلك وفق العديد من الإشارات المساعدة التي تحول الطفل إلى آلة كاشفة ترصد كل التحركات والتصرفات المحيطة به، الأولى هي تصور الطفل أن الكلمات لا يمكن أن تكون فارغة من المعنى. فأذهانهم مهيأة بيولوجياً لكي تلتقط أنواعاً مختلفة من البنيات في العالم، ثم يتبع ذلك المعاني التي تحيل عليها التي تأتي في شكل طبقات أو مصنّفات نسقية بالفطرة، إلا أنه غالباً ما تصادف أن هناك أشياء في العالم نحن بحاجة للحدث عنها ولكن ليس لدينا ما يفسر إحالتها على شيء ترتبط بها، كما هو الحال بالنسبة لطبقات الأفعال الجامدة (بئس؛ ليس...) وأسماء الإشارة (هو؛ هي؛ هم...)، والأسماء الموصولة الذي؛ التي الذين...)، وغير ذلك.

تطرح هذه المعاني جدلية ثانية؛ إذ غالباً ما يتركز انتباه الطفل على أحد هذه الطبقات مطالباً في المستوى الأول بالمعنى ومتسائلاً في المستوى الثاني عن إحالتها، فالقول بأن «فرضية الغموض المرجعي» (The premise of referential ambiguity)^(١) كما طرحت عند «يو وسميت» (yu and smith 2012)، شيء مبالغ فيه، فتعلم الطفل لكلمة بشكل مبكر غالباً ما يحدث في سياق استكشاف الرّضع لأنشطتهم اللغوية، فلا

(١) تقوم هذه الفرضية على أساس أن عملية اكتشاف الرّضع لعالمهم اللغوي يشوبها الكثير من الغموض لأنها لم تستطع أن تتوغل أكثر في تفسير العمليات التي تجعل من الأطفال يتعلمون لغتهم بدون جهد أو برمجة مسبقة، فاكتفوا بوصف مظاهر ذلك دون أن يتمكنوا من تقديم ما يكفي من المعطيات حول المسألة، فافتراضوا أن هذه العمليات تبقى قاصرة في الربط بين تعلم الرّضع للغة والمرجع المساهم في تلك العملية. وللمزيد حول هذه الفرضية يرجى العودة إلى:

- Yu . C. & Smith. L. B. (2012). Embodied attention and word learning by toddlers. Cognition. 13.

يجوز أن ننظر إلى الرضع نظرة سلبية، اعتباراً أن حياته اللغوية هي مزيج من اللعب على الأرض، واستخدام الجسم والرأس واليدين والعينين لعزل الكائنات بعضها عن بعض بين ما هو مفيد له من عدمه، مما يقلل من الغموض على المستوى الحسي. إلى جانب هذا طرح نصادف نقاشاً ثالثاً تمحور حول دور العلامات النحوية في اللغة العربية في الكشف عن فئتها، اعتباراً أنها (العلامات الإعرابية) تساعد الطفل في عملية استخدامها وفق طبيعتها المقولية اسماً أو فعلاً أو صفة، وهي خاصية بشرية متفردة لا تملكها باقي الثدييات الأخرى.

على الرغم أننا لا نستهدف الدخول في هذه النقاشات لعدم مواءمة ذلك مع موضوع الكتاب إلا أنه من واجبنا أن ننبه أنه، ولهذه الأسباب، يجب على النظرية دلالية أن تعمل على توليد القيود المعقولة على مسألة اكتساب اللغة، خصوصاً أن وظيفة الذاكرة البشرية القصيرة والذاكرة طويلة الأمد ينبغي أن تكونا متوافقتين مع البنيات الدلالية، حتى لو افترضنا أن جميع المتحدثين يستخدمون المفردات والقواعد نفسها، وأن كل متكلم قادر على تحديد ما هو المقصود من التعبيرات اللغوية، فإنه يبقى علينا أن نوضح كيف يمكن أن تعني الكلمة الشيء نفسه، فهذا دورنا وهذه مساعينا التي نريد أن نضبّطها وفق وضع تفسير للتعينات الدلالية المتسقة مع سياق التواصل، وهذا يؤدي إلى المعيار الرابع.

١ - ٤ - المعيار الاجتماعي

يتعلق المعيار الاجتماعي بكيفية افتراض أننا نتحدث عن المعاني نفسها، مؤكدين أن النظريات الواقعية للدلالة ليس لها أي مشكل مع هذا المعيار، حيث إن معاني الكلمات موجودة في العالم ومطروحة في الطريق؛ أي أنه بمجرد أن نتقاسم المعاني نفسها فإننا نرسم خرائط ذهنية للغة وفق مشترك تكررته العشرة اجتماعياً، بمعنى أن رسم الخرائط الذهنية بالمعنى المطروح الآن فإنه يتم مباشرة تخفيض الأسئلة المطروحة سلفاً

إلى سؤال المعرفي واحد هو: كيف نتعلم رسم الخرائط اللغوية؟ لتأمل التراكيب التالية:

٣- أ- نتقاسم المشاعرَ نفسها.

ب- نعيش وضعاً اجتماعياً مشابهاً.

ج- أقرت الحكومة إضافة ساعة.

ما ندرکه أننا نخفض من حجم الأسئلة المطروحة كلما أدرکنا أن معنی المشاعر لا یحتاج إلى توضیح أو تعریف مادام الأمر یجمع وفق تدفقات منقسمة بین ذوات مختلفة، بمعنی أن إدراکنا للأمر نابع من القاسم المشترك الذي یجعل من الحب أو الكراهية شظايا موزعة على الدرجة نفسها بین الجميع، وهو الأمر نفسه الذي یجعلنا ندرك أن الوضع الاجتماعي الذي نعيشه هو نفسه القاسم الذي یدفعنا نحو التأكيد أن وضعنا هو درجات یطبعها الاتفاق فيما یخص النمط الاجتماعي الذي نسیر فی سباقه، لكن عندما تقرّ الحكومة إضافة ساعة على التوقيت العالمي، فإن ذلك یجعلنا نعيش الزمن نفسه عبر تحريك عقارب الساعة ستین دقيقة إلى الأمام، فتكون إحالتنا على الساعة الثانية زوالاً شيء متفق حوله اجتماعياً بدل الإحالة على الساعة الواحدة بالتوقيت العالمي، والأهم من كل هذا أنه كلما حصل التوافق اجتماعياً كلما كان الوضع أكثر إحكاماً وسيطرة.

یجب أن ننتبه إلى أمور مهمة جداً هي أن إدراج هذا المعیار جاء فی إطار الردّ على التهميش الذي أصابه من طرف الكثير من اللسانيين المعرفيين، تحديد تلك الدراسات التي كانت متصلة بالتصورات الفيزيائية القريبة من مفهوم الذكاء الاصطناعي، وهو الاتجاه الذي مثله نموذج النحو التوليدي كما تصوره تشومسكي، فالصّورنة الرياضية للغة أخرجت من دائرتها كل التفاعلات الاجتماعية التي تؤثر فی المعنی، فكان تهميش الدلالة منسجماً مع الطرح الرياضي للغة، فتحوّلت بوصلة البحث اللساني من مركزية التركيب إلى مركزية الدلالة من خلال اعتبارها تصورات أو عمليات ذهنية هي أساس كل التراكيب اللغوية، بمعنی أن الحديث عن مركزية الدلالة هو انفتاح على كل المؤثرات

التي تساهم في تشكيل المعاني وبلورتها، ومن تم كان من الضروري العودة إلى المعيار الاجتماعي باعتباره من دعائم النظرية الدلالية التي لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عن دوره الحيوي في ذلك.

فلا حاجة إلى التأكيد أننا كائنات نولد ضمن علاقات القرابة بالفطرة، اعتباراً أن تصوراتنا التي تحملها اللغة ترتبط بالمعرفة الاجتماعية، فنحن نولد في سياق حماية الأسرة والقبيلة والوطن... بمعنى أننا ننتمي إلى جماعة نُفَطَّر عليها، فنحن نولد بأنساق عصبية موجهة للتعامل مع الآخر^(١). نحن نملك في المنطقة ما قبل الحركية خلايا عصبية متخصصة في الاستجابة للعمل الحركي، لكن الأساس أن هذه الخلايا تستجيب في الوقت نفسه للعمل الذي يقوم به الآخر، وهو ما عرف في العلوم العصبية بـ«الخلايا العصبية المرآة» (Mirror Neuron)^(٢)، على الرغم أن هذه الخلايا قد تم اكتشافها في بداية الأمر عند قرود من فصيلة «المكاك»، إلا أن رصد ذلك عند الإنسان ظل محفوظاً

(١) محمد غاليم (٢٠١٨)، محاضرة اللغة والمعرفة، ضمن سلسلة تكوينات بكلية الآداب، جامعة السلطان المولى سليمان، بني ملال، المغرب.

(٢) شبكة العصبونات المرآتية هي شبكة من الخلايا العصبية في الدماغ ذات خاصية معينة. هذه الخاصية هي أن مدى نشاط هذه الخلايا (نشاط كهروكيميائي) أو مدى تفعيلها عند مشاهدة عمل معين يكون هو نفسه أو مشابهاً لمدى التفعيل الناتج عن القيام بها بالفعل. سميت بهذا الاسم لتشابه وظيفتها مع عمل المرآة حيث تنقل الصورة. وقد تم اكتشاف هذه الظاهرة وهذه العصبونات عن طريق العالم الإيطالي (Giacomo Rizzolatti) خلال اختبارات قام بها على قرود من فصيلة «المكاك» حيث لاحظ في مقطع F5c للدماغ الكبير من دماغ هذه القرود تفعيلاً للخلايا الدماغية عند مشاهدتها حركات معينة يشابه التفعيل المتولد حين تقوم القرود بنفس هذه الحركة. بالنسبة لقرود «المكاك» تمت ملاحظة هذه الخلايا في جهة القشرة الما قبل الحركي (prämotorische Cortex) كما تم ملاحظة نفس الظاهرة وخلايا مشابهة لدى الإنسان في جهة ما يسمى مركز بروكا (مركز اللغة في الدماغ)، أما وظيفة الخلايا العصبية المرآتية عند «المكاك» فهي غير معروفة. يبدو أن القرود الكبيرة لا تتعلم عن طريق المحاكاة. تشير التجارب الأخيرة إلى أن المكاك الرضيع يمكن أن يقلد حركات وجه الإنسان إلا أنه ليس معروفاً ما إذا كانت الخلايا العصبية المرآتية وراء هذا السلوك. (عن موقع وكبيديا)

بالمخاطر، اعتباراً أن الحيوانات قارئة سلوك والإنسان قارئ أذهان، بمعنى أن الإنسان له قدرة على إسقاط السلوكيات على غير الإنسان (الحاسوب لا يشتغل) (الحاسوب معطل)، فنحن مفطرون على تأويل أفعال غيرنا على أنها أفعال قصدية (لم أقصد ذلك)، وما يزيد من إثبات ذلك التركيز على المكونات المقولية التالية: [باع / قايض / اشترى...]. فهي تحمل البنية الحملية نفسها، لكونها تشترك في الموضوعات نفسها، إلا أننا نمايز بينها اجتماعياً. وهذا كاف لكي تغير النظرية الدلالية مقومات اشتغالها لتنتج على الآخر باعتباره جزءاً مهماً في بلورة المعاني وتأويلها.

إضافة إلى هذه المعايير الأربعة التي تمت مناقشتها في «كاردنفور» (Gärdenfors 2000)^(١)، سنضيف عليها تبعاً لذلك معيارين اثنين من أجل الإعلاء من شأن الصلة بين معاني الكلمات وسيرورات العمليات المعرفية المختلفة.

- يجب أن تكون النظرية الدلالية مسؤولة عن العلاقة بين سيرورات الإدراك والمعنى.

- يجب أن تكون النظرية الدلالية مسؤولة عن العلاقة بين الأحداث والمعنى^(٢).

والحقيقة أن موضوعه الاكتساب واستعمال اللغة ظلت محصورة على أساس تجريبي، وبما أن التجربة مع العالم يتم استنباطها من خلال الكليات فوق - لغوية مثل التصور والذاكرة، فمن الطبيعي أن تتأثر اللغة بهذه الكليات. وبالتالي يمكننا أن نتوقع أن تكون طبيعة الأنساق الإدراكية البشرية ذات أهمية كبيرة في دراسة اللغة نفسها. وهي من أبرز المهام الأساسية للسانيات المعرفية التي من المفترض أن تكشف عن الروابط بين اللغة وبقية المعارف البشرية.

Gärdenfors, P. (2000). Conceptual spaces: The geometry of thought. Cambridge, MA: (١) MIT Press

Gärdenfors, P. (2014) Geometry of meaning: semantics based on conceptual spaces ; (٢) The MIT Press ; p. 11

٢ - أوليات البناء المعرفي للمعنى

عندما نتحدث عن الآليات المتدخلة في بناء المعنى، فإننا نقصد بذلك الطرق التي تساعدنا على كشف المسار العام المتدخل في بناء اللغة عند الطفل، وهي الوسائط التي تنتظم في شكل مجالات ووظائف وسمات التي تؤسس لفعل المقولية (Catégorisation)، والمقولة هنا تنطلق من مسلمة مفادها أننا لا يمكن أن نُقبل على مجريات الواقع بطابع فوضوي، اعتباراً أن الأشياء في عالمنا مرتبة بشكل نسقي ومنظم، وهو التنظيم الذي نراه يعكس النسق المحوسب (Computational) الذي ينظم المعارف في الذهن البشري (Mentalistic Human)، على أساس أن المقولة هي عملية عقلية تجعل من أفكارنا ومداركنا وحركاتنا وكلامنا عبارة عن أنشطة ذهنية تقوم على مجموعة من الإسقاطات التي تربط بين سمات الواقع وسمات الدلالة، وهي الإسقاطات التي تدفع نحو التوحيد بينهما لبناء المقولة.

تبعا لهذه المعطيات فإننا نفترض أن تنظيم المعنى هو عملية ذهنية تقوم على الترابط الكائن بين سمات الواقع والسمات الدلالية، مرجحين أن يكون هذا الإسقاط مسؤولاً مباشراً عن بناء المعنى وتشكله، وهو الافتراض الذي دعمناه بالعديد من النظريات التي ولدت في أحضان الدلالة المعرفية (Cognitive Semantics) مع «إليانور روش» و«فيلمور» و«لاكوف» و«جونسون»... وغيرهم، إلا أننا لم نتبن مقارباتهم بطريقة ترضي توجهاتهم؛ ولكن أخذنا منها ما ينسجم مع التوجه العام الذي نسير عليه ونريد أن ندافع عنه، مؤمنين بفكرة أن الدلالة لا تشكل مقارنة مستقلة بذاتها، بل هي مقارنة من ضمن المقاربات السابقة التي تسعى نحو بناء طريقة جديدة في التحليل الدلالي، مرتكزة في ذلك على الذهن والإدراك كقوالب معرفية تؤسس للمعنى، على اعتبار أن المعنى الذي ندافع عنه هنا ينطلق مما أسميناه بـ«المعنى النموذجي»^(١)

(١) عندما نتحدث عن المعنى النموذجي فإننا نقصد بذلك أن كل المعاني المتفرعة تعود بأدراجها إلى =

كأساس معرفي تتفرع عنه كل المعاني الأخرى، وأن المسؤول عن المعنى المقصود هي طبيعة العلاقة التواصلية التي تترجم داخلها شفرات المعنى معرفيا بين طرفي العملية، وهو الاعتقاد الذي سنحاول أن ندافع عنه من منطلق الحديث عن مجموعة من النظريات باعتبارها أدبيات أو أوليات معرفية مهدت الطريق أمام تشكل نظرية الدلالة المعرفية بكل تفاصيلها.

٢-١ - أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية النمط النموذجي

تعد نظرية النمط النموذجي (Théory Prototype)^(١) من أهم النظريات المرجعية في بناء وتكوين المقولات (Catégories)، وهي نظرية نسقية تستهدف الحوسبة الدقيقة للمقولات الأنطولوجية، إذ تعمل على تنظيم مجالاتها وفق هندسة منظمة وموزعة على أربع مجالات هي: القضايا عند (فيلمور) (Fillmore) والخطاطات والصور المجردة (لانفاكير) (Langacher)، والجوازات والتوسعات القائمة على الاستعارة والتوسعات القائمة على الكناية (لايكوف وجونسون) (Johnson , Lakoff)، إلا أن كل هذه المجالات تعمل على تنظيم المقولة في إطار مؤمثل (Optimal) يحترم خصوصية الانتماء والاندماج، لتأمل الأمثلة التالية:

٤ - أ - ينتمي الهدهد والدجاج إلى صنف الطيور.

= معنى نووي أصلي تشتق منه وتتولد، إلا أن هذه المعاني لا تحافظ على أصالتها، فكلما ابتعد المعنى عن النموذج كلما نقص محتواه القضوي بالنظر إلى المعنى الأم المتولد منه، ولعل في معنى الحب خير دليل على ذلك لأننا نجده متفرعا عن الهيام والصبابة والغرام والعشق... فكلها تحمل من الحب بعضا منه، إلا أننا لا يمكن أن نقول إن العشق هو الحب مثلا، لأن كل واحد منهما له درجة معينة ومسافة محددة للاستعمال.

(١) حاولنا أن نساير في ترجمتنا ل (Prototype) الترجمة التي تواضع عليها اللسانيون الداليون في المغرب بوضعها في مقابل (النمط النموذجي)، ونحن إذ نساير ذلك نعرف ما في الأمر من تمايز بين اللغات على اعتبار أن المفهوم يستعمل في اللغات الأخرى الإنجليزية والفرنسية للإحالة على (العينة النموذجية) من الآلات والسيارات والشقق...

ب- يحلّق الهدهد على مسافة بعيدة.

ج- لا تستطيع الدّجاجة التحليق لوقت طويل.

عندما نتحدث عن مجال الطيور، فإن مقولة هذا الحقل تخضع لمقاييس دقيقة تجعل منه مجالاً يحوي الكل، لكن ليس بنفس الدرجة وليس بالمعنى نفسه، لذلك أحتكم إلى نظرية الشروط الضرورية والكافية كما وردت في الفصل الرابع من كتاب المعنى والتوافق لأستاذنا محمد غاليم^(١)، بمعنى أن تحديد سمات الهدهد مثلاً بالاستناد إلى نموذج معرفي مؤمّل (Idealized) ينظم بحسب الشروط التي تُفرض عليه، وهي الشروط التي تتضمن توافر الخصائص الطبيعية التي يمثلها انتماء الهدهد إلى حقل الطيور، إلى جانب النظر في كفايتها لتشخيص درجة انتمائها ونسبة تحققها، فيكون الهدهد من الطيور التي تتحقق فيها كل الشروط الضرورية والكافية التي تجعل منه طائراً نموذجياً أو لنقل نمطاً نموذجياً للمقولة، بمعنى أنه يمثل المقياس الذي نحتكم إليه لتحديد انتماء الدجاجة مثلاً إلى الحقل نفسه، فالدجاجة بهذا المعنى طائر لتوفره على شروط الانتماء الضرورية، إلا أن هذا الانتماء يظل قاصراً لعدم كفايته (عدم امتلاك الدجاج القدرة على الطيران...) وعليه يتأسس الحقل وفق هندسة تحترم المقاييس العامة التي تُفرض على الانتماء، وتفعل وفق حوسبة تقدم الهدهد كطائر بنسبة ٩٩ بالمائة، في حين تقدم الدجاجة كطائر بنسبة عشرة بالمائة^(٢).

(١) تقوم هذه النظرية على محاولة تفكيك المعنى وفق طبيعة القيود التي تنقسم إلى قيود ضرورية وكافية، وقيود ضرورية وغير كافية القائمة على مجموعة من السمات والأوليات التصورية المتدخلة في تحديد إحالة اللفظ.

(٢) من أبرز النتائج التي توصلت إليها إيلينور روش (Rosch) أن النظام العام للمقولة في جانبها المعجمي تضم العديد من الجوانب المبهمة في ذاتها، وأن حدود التمايز بين تلك المكونات غير واضحة المعالم بشكل يتيح لنا الفصل بينها دلالياً، مما دفع بالدلالة المعرفية نحو اعتبار أن التصورات المعجمية لا تقوم أبداً على المعطيات المشتركة، وهي النتائج التي دعمت من طرف =

ما يجعل هذه النظرية نظرية في تنظيم المعنى والفكر هو استنادها على نسب وشروط وخصائص تخضع في مجملها إلى مبادئ عامة لها من التوافق أو التشابه ما يجعلها مؤهلة مع وضعيات أو حالات، فإذا تحقق التوافق في الخصائص يعد الأمر جيدا لبناء المقولة، أما إذا لم يتحقق التوافق فإننا نصطدم بنموذج غير مؤهل بما يكفي، لذلك يكون من الصعب بناء المقولة بشروطها الضرورية والكافية.

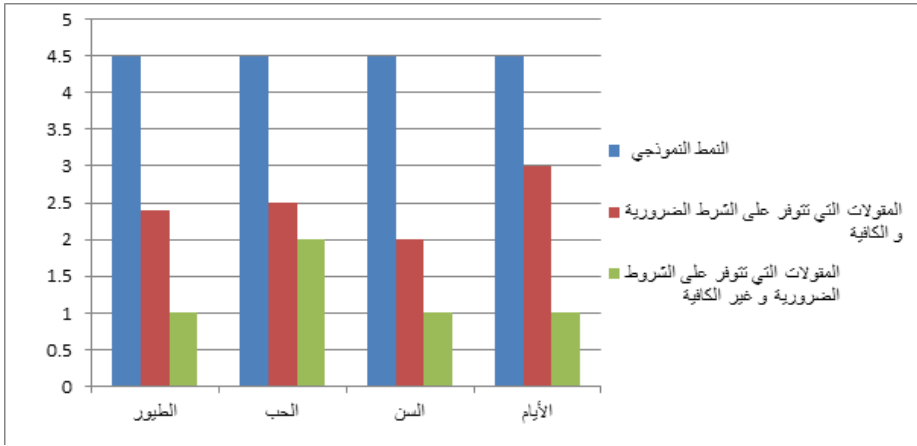
بناء على هذه المعطيات أعتبر أن نظرية النمط النموذجي كما وضعت في إطار الدلالة تعدّ تصورا لتنظيم المعارف والمعلومات التي اعتبرها «لانفاكير» أصولا للنحو المعرفي لأنها تساق مع المفاهيم والتصورات التي لها دور كبير في تقديم المعنى بصورة هندسية غير اعتباطية^(١)، بل إن النموذج المعرفي، كما نتصوره، يحاول أن يدفع بالمعنى نحو الحوسبة، خصوصا إذا استحضرننا جانبا أنطولوجيا من حياتنا فإننا نستحضره بكل سماته وخصائصه وتفاصيله ومميزاته، فنحن لا نخلط بين الطائر والطائرة، على اعتبار أننا نخضعهما لمختبر التجربة اللغوية عبر تشريح سماتهما المكونة لهما، لذلك فعندما نتحدث عن الطائرة مثلا نعرف ضمنا أننا أمام وسيلة اتخذها الإنسان مطية لسفرياته، أما وأن نتحدث في مقابل ذلك عن الطائر؛ فإننا نملك ما يكفي من السمات التي تجعلنا نتحدث عن حيوان يملك من الخصائص الطبيعية ما يدفعه أن يكون متمایزا عن باقي الكائنات الحية الأخرى، بمعنى أننا نبني المعنى وفق استراتيجيات لها صلة بأنظمتنا المعرفية وبما تحمله كل مقولة في عالمها، وبالتالي فنحن أمام معارف منظمة ومحوسبة بطريقة نسقية تحترم هندسة السمات في بناء المقولة، مما يوفر لنا قاعدة

= لايكوف (Lakoff) (١٩٧٢) بما أسماه بالمجموعات المبهمة، وهي المجموعات التي استخلصت من العلاقات بين المجموعات في الرياضيات التي لا تتحدد عناصرها إلا على أساس الدرجات والاحتمال، وهو ما دفع بالهدهد أن يكون طائرا بنسبة معينة في مقابل البطريق والخفاش.

(١) عبد الجبار بن غريبة (٢٠١٠)، مدخل إلى النحو العرفاني، ص ٦٨

تصورية غنية تؤثر في بناء اللغة تركيبيا، ومعجما، ودلالة، كما تقدم لنا أيضا صورة عن المستوى الإدراك الدلالي وتوسعاته في مجالي الكناية والاستعارة^(١).

من واجبنا، حتى نرصد أهمية هذه النظرية في بناء المعارف والفكر، أن نتنقل في عملية تشخيص من مستوى الوصف إلى مستوى التحليل حتى نتبين أفق الهندسة المعرفية في بناء المعنى وفق ما تمليه نظرية النمط النموذجي، فإذا تأملنا مجموع المقولات الأنطولوجية التي تؤسس لمعارفنا سنجد مثلا:



شكل ١: خطأطة توضح حضور المقولات داخل نظرية النمط النموذجي

فهذه بعض النماذج التي تميل إلى التمايز المبني على الدرجة كما تصورتها إيليانور روش (٧٣) (Rosch)، وهو المفهوم الذي نظم فعل الانتماء إلى طبقة من الطبقات الأنطولوجية المنظمة لمعارفنا ومداركنا، على اعتبار أن كل نوع منها يحدد وفق نموذج تتوافر فيه الشروط الضرورية والكافية، وهي الشروط التي تسقط منزلة قيود تفرض على الهدهد والجنون والكهولة والحول أن تكون أنماطا نموذجية أساسية

(١) للاضطلاع على مجالات التوسع الاستعاري يرجى العودة إلى كتاب «الاستعارات التي نحيا بها» للايكوف وجونسون، ترجمة عبد المجيد جحفة.

تتأسس على منوالها المقولة وتتفرع؛ بمعنى أن كل مجال من مجالات حياتنا ينظم وفق هندسة تجعل من الشباب مثلاً غير الطفولة والكهولة بالنظر إلى نسب تحقق الغاية من السن، فكلما زاد الإنسان عمراً زاد نضجاً ومعرفة، ليتحولاً معاً إلى سمات تؤسس للمقولة وترفع من قيمة ونسبة الانتماء.

ما يمكن أن نستخلصه من خلال هذه النظرية هو أن الهندسة العامة المتحكمة في توزيع السمات هي المسؤولة الأولى والأخيرة على بناء المعنى وحوسبته، فعندما نتحدث عن الدجاجة أو النعامة فهذا لا يعني أبداً أنهما متطابقان في السمات مع الهدهد، بل إن النسيج العام الذي ينظم معارفنا ويحوسبها يجعل لكل طائر سماته الخاصة وخصائصه التي تدفع به نحو تحديد التمايز والاختلاف؛ بمعنى احتكامنا في بناء مقولة الطيور أو الحب... إلى طبيعة القيود التي تعمل على تأسيس المعرفة وبلورة تجلياتها الفكرية والتصورية. بحيث أن بناء تصور حول مقولة الطيور مثلاً يجعل من الهدهد النمط النموذجي الذي تتوافر فيه الشروط الضرورية والكافية كسمات أساسية ومركزية [ريش، + التحليق، منقار...] في الوقت الذي نجد فيه أن الدجاجة تملك السمات نفسها لكن غير كافية [ريش، منقار، - تحليق...]، وبالتالي فإن المغزى العام الذي ينطبق على بناء مقولة الطيور هو نفسه الذي يتدخل في بناء باقي المقولات الأنطولوجية التي تؤسس للهندسة العامة للغة.

٢ - ٢ - أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية الحقول الدلالية

ما يهمنا في هذا المشروع أن نفهم أن تنظيم المقولات هي عملية ذهنية معقدة ومحوسبة بشكل يصعب علينا رصد تحركاتها بصورة مكشوفة، حتى أنه من الصعب أن نحدد موطن ترتيبها على مستوى ذهن الطفل لأننا لا يمكن أن نبني مختبرات للتجربة على مستوى أدمغتهم لكشف ذلك، لذلك سيكون من المفيد جداً أن نعتمد على مخرجات اللغة كوسائط إجرائية نكون من خلالها قادرين على صياغة فرضيات

وتنبؤات تهْمُ الأمر. في هذا السياق يمكن أن نتحدث عن نظرية الحقول الدلالية، وهي نظرية تقوم على افتراض أن فهمنا لمعنى كلمة ما يجب أن يرتبط أيضا بمجموع الكلمات المتصلة بها دلاليا، بمعنى أن فهمنا لكلمة «لون» مثلا تدفعنا إلى التفكير في ربط ذلك بمجموعة من الألفاظ المتصلة بها (أحمر؛ أصفر؛ أبيض...)، وبالتالي فأبي لفظ في اللغة يرتبط بمجال معين، وهو المجال الذي عرفه جون ليونز (John Lyons) بـ «الحقل الدلالي» محددا إياه بكونه: «مجموعة جزئية لمفردات اللغة»^(١)، وعليه فإن الهدف من هذه النظرية هو محاولة تشخيص المفردات التي تجتمع داخل حقل معين مع شرط وجود علاقة رابطة بينهما، مع العلم أن تحديد المفردة في إطار حقل معين يجب أن يخضع للعديد من مقاييس التصورية والمعرفية من قبيل:

أ- لا يمكن أن تدمج وحدة معجمية في أكثر من حقل واحد؛

ب- ضرورة استحضار السياق الذي ترد فيه المفردة؛

ت- استحالة دراسة الكلمات مستقلة عن سياقها التركيبي.

من أشد الأمور أهمية في هذه النظرية أنها تقوم على هندسة واضحة في بناء وتصنيف اللغة، بل إن هذه النظرية تعمل على تشخيص الطرق التي ينتظم بها الفكر البشري وفق آليات التصنيف الدقيق للحقول التي تم توزيعها فيما بعد على أربعة أقسام أساسية هي: الكيانات (Entities)؛ والأحداث (Events)، المجردات (Abstracts)؛ العلاقات (Relations)^(٢).

John Lyons (78): Semantic. P:268

(١)

(٢) سنجد في الفصل الرابع من كتاب البنيات الدلالية للزمن من اللغة والذهن لعبد الكبير الحسني محورا كاملا يفصل في طبيعة هذا التصنيف وخصوصياته، كما سنجد في ما يأتي من هذا الكتاب حديثا عن ذلك من خلال المقارنة بين تصنيف الفاسي الفهري وتصنيف جاكندوف للمقولات العامة المتدخلة في بناء اللغة.

تعدّ هذه الأقسام مقولات أنطولوجية كبرى تتفرع عنها مقولات أخرى أصغر منها حجما، لكن من ضروري أن نوضح أن توزيع المقولات داخل أي حقل لا يكون بطريقة متوازنة، بل إن كثافة المفردات داخل حقل ما يرتبط بطبيعة اللغة من جهة، ومن جهة أخرى يرتبط بالأوليات التصورية والسمات التي تخصص انتماء مفردة إلى حقل من الحقول، وهي السمات التي تجتمع في نمط نموذجي لكنها تتفرع عنه بالضرورة إذا توافرت السمات بصورتها التامة، أو بعدم الكفاية إذا لم تتوافر السمات بشكل التام.

عندما نتحدث عن السمات هنا، فإننا نقصد السمات الدلالية التي ترتبط بما هو قاعدي مشترك بين الكلمات؛ وبالبعد التصوري العام الذي يتيح لأي مستعمل للغة أن يتعرف على الآليات العامة المتدخلة في تكوين حقل معجمي ما؛ بمعنى أدق نستحضر هنا أن في حب مثلا نجد العشق والصبابة والولع والغرام... إلا أن كل هذه الكلمات تجتمع على معنى نووي أو سمات قاعدية مشتركة هي الحب، فالعشق حب، والصبابة حب، والولع حب، والغرام حب... مع ضرورة التنبيه أن حضور الحب يكون متباينا بين المفردات، هذا التدرج في تصنيف الكلمات داخل الحقول الدلالية هو الذي دفع بإليانور روش إلى ابتكار مفهوم الدرجة، وإذا تأملنا المفهوم جيدا سنجد أننا أمام معطيات تدفعنا إلى صياغة أسئلة مهمة مفادها: ما العقل؟ وكيف ينظم الطفل تجاربه؟ ما معنى النظام التصوري؟ ما هي بنية هذا النظام؟ وهل يملك البشر الأنظمة نفسها؟ نحن لا تهمننا في هذا السياق الإجابة عن الأسئلة، ولكن ما يهمنا أن البحث الدلالي تطور بما يكفي حتى غدا يعي جيدا كيفية طرح الأسئلة الصحيحة التي تستهدف الفكر وتصورات، فبمجرد ما يسلط الضوء على كيفية تنظيم المعارف والتجارب والأفكار، فإن ذلك سيكون له انعكاس على الهندسة العامة المنظمة للغة، خصوصا بعدما يتم تحديد العقل بكونه مجردا وليس له أي علاقة بالجسد، ومنه أن مسائل التفكير تتصل بالعديد من القضايا المرتبطة بمحتوى الصدق أو الكذب، لذلك فهو مجسد من خلال تجارب الإنسان المادية والمدركة إدراكا حسيا لما هو حوله.

إذا كان من الضروري أن نتحدث عن مفهوم الدرجة ودورها في تحديد مكونات الحقول عبر اللغات، فإنه من الضروري أيضا أن نتحدث عن سمي التضمن والجزء، ودورهما في بناء المعنى، على اعتبار أن السؤال الذي شغل اللسانيين من زمان هو: هل يمكن أن يكون التضمن جزءا للكل، فتمت نقاش بين مجموعة من اللسانيين حول التضمن هل يميل إلى الأخص أم يميل إلى الأعم، ومن أجل توضيح ذلك نتأمل التراكيب التالية:

٥- أ- الإنسان حيوان

ب- الرأس جزء من الجسد.

إذا تأملنا في التراكيب التالية سنجد أنفسنا أمام مقولة أنطولوجية كبرى هي الحيوان، على اعتبار أن صنف الحيوان يشمل الكل بما في ذلك الإنسان، إذن فالإنسان جزء من الحيوان، لكن عندما نتحدث عن العلاقة بين الرأس والجسد، فالرأس جزء من الجسد لكن ليس نوعا منه، إذن فطرح نقاش كبير في هذا الباب حول جزء الجزء هل يمكن أن يكون جزءا للكل.

الحل في هذه المسألة يكاد يكون واضحا، تحديدا عندما نربط ذلك بآليات بناء المعاني المرتبطة بالجزء، وكذا المعاني المرتبطة بالكل، فهناك لغات تقبل أن تدخل في إطار معجمتها تحليلا لبعض كلماتها وفق جزء الجزء، وهناك لغات لا تقبل ذلك، فالمسألة مرتبطة بمستعملي اللغة أنفسهم، فهم يملكون ما يكفي من المعرفة النحوية التي تمكنهم من انتقاء السمات الضرورية التي تحيل على الجزء (الرأس) والسمات التي تحيل على الكل (الجسد).

إن المعيار الهندسي في بناء المعنى عند الطفل تحديدا ينسجم بشكل كبير مع الخلاصات التي انبثقت من النظريات اللسانية الحديثة، فهي عندما كانت تتحدث عن تنظيم وحدات الحقول الدلالية، فهي في الوقت نفسه تعمل على تنظيم فكرنا بما ينسجم مع خلفياتنا الذهنية والفكرية، فنظرية الحقول الدلالية، في نظرنا، نظرية

هندسية بامتياز؛ لأنها ساعدت الدرس اللساني في أن يجد سبيلا إلى الذهن البشري، أي أن تنظيم مقولات العالم ضمن حقول دلالية هو في حد ذاته تنظيم وحوسبة للغة على مستوى الذهن، على اعتبار أن الإسقاطات اللغوية المنتقاة في معالجة اللغة قد تكون وسيطا يصل بنا إلى الإمكانيات المتاحة أمام الباحث اللساني لكي يفهم، ولو جزاء، الطريقة التي تنتظم بها المعاني داخل أذهاننا، فعندما تحدثنا عن الحب وجدناه مبرمجا على الشكل التالي: الحب؛ العشق؛ الولع؛ الصباية، الغرام... فإننا نجد أنفسنا أمام برمجة لغوية دقيقة محوسبة بكيفية هندسية غاية في الدقة، وما يزيد من اثبات هذه الحوسبة على مستوى الذهن البشري هو عندما تدخل على الحب ألفاظ من قبيل الحسد والغيرة والكراهية... فإن النسق يرفضها على اعتبار أن أي متكلم سليقي للغة العربية لا تستقيم عنده هذه البرمجة بسبب أن المعنى النووي^(١) الذي من المفروض أن نجده في الكراهية هو غير مؤشر عليه في الحب، فالكراهية هي الدرجة الصفر من الحب^(٢)، وبالتالي يفقد النسق ما يمكن أن يساهم في بناء الحقل الدلالي. وهذا كفيل بأن يجعل من التراكيب التالية بنى ملتبسة:

٦ - *أكره أن أعيش في جو عائلي مع زوجتي (- دلالة الحب)

٧ - *امقت العيش مع زوجتي (- دلالة الحب)

(١) المقصود بالمعنى النووي المعنى العام (الحب مثلا) الذي نجده في بقية الألفاظ المرادفة (العشق والغرام...) على اعتبار أن كلا منهما يحمل درجة معينة من درجات الحب، وهو الأمر الذي ستوسع فيه لاحقا في هذا الكتاب.

(٢) عندما طرحنا فكرة درجة صفر الحب، فإننا نفتح من وراء ذلك نقاشا كبيرا حول مسألة النقيض في اللغة العربية التي تحتاج في نظرنا إلى مراجعة معرفية تنظر إليه من زاوية أن القبح هو الدرجة الصفر للجمال وليس نقيضا له، النهار درجة الصفر لليل، الأبيض الدرجة الصفر للأسود، القصير هو الدرجة الصفر للطويل... وقس على ذلك، لذلك فهي دعوة لإزعاج النظريات التقليدية ومحاولة إعادة ترتيب البيت العربي بما يتلاءم وتطور النظريات اللسانية.

فلا يجوز أن تعبر عن الحب بعبارات لا تنسجم مع المعنى النووي الذي من الضروري أن يتوافر في جميع الألفاظ التي تدخل النسق، وهذا ما يجعل من التراكيب بنى شاذة وملتبسة، فهندستنا اللغوية مبرمجة بشكل دقيق يدفع نحو اعتبار البنى السابقة خارجة على نطاق الدلالة التي من المفروض أن تُعبر عنها. أما إذا أردنا أن نعدّل من وضع التراكيب السابقة فإن النسق يقبل أن نقول:

٨- مولع بالعيش مع زوجتي

٩- أعشق العيش مع زوجتي

١٠- أهيم للعيش مع زوجتي

ما يدفعنا إلى التسليم بأن هذه التراكيب تنسجم مع الهندسة العامة للمعنى هو أن أي متكلم يدرك أنه أمام محيط لغوي دقيق يعتمد على انتقاء ألفاظ من حقل الحب، على اعتبار أن المعنى النووي موجود فيها جميعا، وبالتالي فإن النسق العام لهذا الحقل ينسجم مع المنطلقات الكبرى التي تحفظ له سلامة التركيب.

عندما يبني الطفل نوعا من المعارف الخاصة، فإنه يعمل، منطقيًا، على تنظيمها وفق مجالاتها، فهو لا يعمل ذلك من باب الصدفة أو الاعتبارية، بل جنوح الإنسان وهوسه بالنسق والتنظيم يدفعانه إلى بلورة فكر منظم ومنسجم مع تكوينه الجيني، لذلك فكلما زاد الطفل وعيا بتجارب الحياة أدرك أن حياته اللغوية هي مشروع ضخم من المعارف المبنية وفق هندسة تسمح له بالتعامل مع المقولات بحرص شديد، اعتبارا أن أي مقارنة للفكر البشري يجب أن تنسجم مع الفرضيات العامة التي لها علاقة بطرق تصنيف المعارف إلى مقولات^(١).

(١) في حقيقة الأمر لا يمكن أن نسلم بأن نظرية النمط النموذجي هي نظرية مثالية لحل المشكلات اعتبارا أن كل نظرية للمقولات تؤدي نحو نظرية دلالية جديدة تقدم تصورا جديدا لدراسة المعنى لذلك اتجه البحث في مرحلة الثمانينيات نحو تبني هذه النظرية باعتبارها أساسا معرفيا لفهم وتصنيف =

٢-٣ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية الفضاءات الذهنية

تعدّ نظرية الفضاءات الذهنية كما طرحت عند «جيل فكونيبي» من النظريات المهمة التي فتحت الباب أمام مصوغات البحث في العلاقة بين اللغة والذهن، فكثيرا ما ننجز اللغة بكثير من اللبس، وغالبا ما يكون ذلك حائلا أمام فعل التواصل، فطرح السؤال الجوهري: هل كل ما نفكر فيه يمكن أن ننجزه باللغة؟ أم أن اللغة في كثير من الأحيان تقف عاجزة أمام ترجمة كل ما نفكر فيه؟ والحقيقة أن الانتباه إلى هذا الأمر يعدّ في الوقت نفسه ميدانا جديدا للتأمل والدراسة، على اعتبار أن توجيه بوصلة البحث من المنجز اللغوي إلى الهندسة الذهنية كان له الأثر الكبير على اللسانيات المعرفية فيما بعد.

= المقولات ليجعلوا منها نظرية دلالية تعمل على تصنيف العالم اللغوي إلى مقولات محدودة اعتبارا إلى الأساس المرجعي الذي انطلقت منه، خصوصا تعويض نظرية الشروط الضرورية والكافية بعمليات المقارنة بين المعنى موضوع التحليل والمعنى النموذجي للوحدة اللغوية في حالة دراسة المعاني المعجمية، أو لنقل بين الكيان المراد تصنيفه ونموذج المقولة، إلا أن التحوير الذي عرفه مسار النظرية جعل البعض اللسانيين يدفعون بالنظرية من مجالها الذي انبثقت منه مع «إليانور روش» نحو اعتبارها تصورا ذهنيا أو حدثا ذهنيا فيه، وعليه فإننا عندما نقول إن الهدهد مثلا هو النمط النموذجي لمقولة الطيور، فهذا يعني أن كلمة النموذج لا تحيل على عنصر بذاته وإنما تشير إلى الهدهد كوحدة مجردة، وبالتالي تحولت النظرية إلى صورة معرفية مجردة يكونها المتكلمون ذهنيا لتمثل المقولة، وعليه فإن النموذج بخلاف مع ما طرحته إليانور روش عبارة عن بنية ذهنية تستنبط من خلال مجموعة من العمليات المعرفية، على اعتبار أن الأدبيات التي مهدت لذلك تتلخص في اتجاهين أساسيين لهما علاقة بعملية التصنيف:

- الأول يمكن نعتة بالتيار الموضوعي الذي يرى أن تصنيف المقولات يقوم على أساس السمات المشتركة التي تنتمي لنفس المقولة.

- أما الثاني فهو التيار الواقعي التجريبي الذي يرى أن بناء المقولة يقوم على مسألة النمط النموذجي الذي لا يجعل من الخصائص المشتركة شرطا ضروريا للانتماء، بل يبنون تحليلا للمقولات الطبيعية داخليا وخارجيا (الشروط الضرورية والكافية).

تقوم نظرية الفضاءات الذهنية على افتراض أن بنيتنا اللغوية منظمة في شكل فضاءات ذهنية، كل فضاء له مجاله الخاص الذي يضبط تواجده، وقوانينه اللغوية التي لها ما يكفي من الشروط البنوية التي تدفع نحو سلامته التركيبية، وله من القرائن المقامية والثقافية والسياقية ما يدفع نحو إدراك الدلالة. لتوضيح ذلك نتأمل في التراكم التالي:

١١ - جاء النّحس برجليه

١٢ - ذهب الصّداع بلا رجعة

الأكيد أننا أمام معان يحيل عليها اللفظ بتمامه، وهي المعاني التي تنتج بشكل فردي على أمل أن يتم التقاطها بطريقة سليمة، كما أنها معان لا تتعارض مع الاستعمال النسقي للغة، إلا أنه من المهم أيضاً أن نشير أنها ليست بحمولة معنوية واحدة، بل لها قابلية أن تقرأ وتؤول بطريقة أخرى تكاد تكون مختلفة تماماً عن المعنى المتعارف. فعالم الاعتقاد الذي يبنيه المتكلم في فكره هو الذي يوجه عملية فهم البنية اللغوية وتأويلها، هي الفكرة التي سبق طرحها مع روبرت مارتين (١٩٨٣) (R. Martin)، بمعنى التركيز على العمليات الذهنية التي تسبق عملية التلفظ، وهي المقاربة التي فتحت الباب أمام «جيل فكوني» و«جورج لايكوف» و«رونالد لانكاكير» لدراسة العمليات الذهنية داخل ما أصبح يعرف فيما بعد باللسانيات المعرفية، مفترضين أن بناء المعنى يكون ذاتياً تكوينياً وليس تأويلياً، وهذا كفيل بأن يوجه طريق دراسة المعنى من التأويل نحو البناء والتكوين، بمعنى أن انفتاح الدراسة اللسانية على هذه المساحات المعرفية جديدة هو الذي دفع بفكوني إلى بلورة تصور جديد يدفع نحو بناء نظرية خاصة تحت عنوان «نظرية الفضاءات الذهنية» (Mental Spaces Theory).

وإذا حاولنا أن نقرأ الجمل السالفة من منطلق هذه النظرية؛ فإننا سننطلق في ذلك من العلاقة التي تربط بين التركيب اللغوي والعمليات الذهنية التي تمنحنا فرصة تفسير الطريقة التي يشتغل بها الذهن البشري في فهم الخطاب من قبيل الدلالة والإحالة

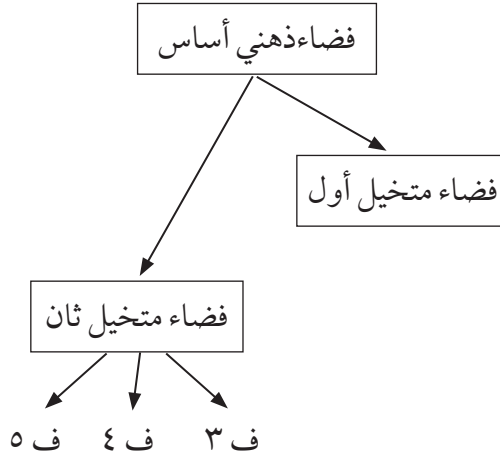
والمطابقة... على اعتبار أن النسق الموجود في ١١ و ١٢ يبدو لاحنا ولا يستقيم مع الفهم والإدراك السليمين، بالنظر عدم الانسجام المفروض في بنية السمات بين الفعل ومنفذ الفعل، اعتباراً أن السمات التي يفترضها فعل المجيء باعتباره محورا لا تتلاءم مع النحس أو الصداع باعتبارهما منفذان للحدث. لكن من زاوية أخرى فإن هذا الاعتقاد سرعان ما يصدم بسلامة تركيبية لا نعرف مصدرها، إذا تأملنا جيدا في البنيتين سنجدهما تقفران نوعا ما عن المألوف بالنظر أن تحليلهما لا يقف عند مستوى الملفوظ، بل إن فهمهما وتفسير سلامتهما يوجد على مستوى ذهن المخاطب والمخاطب، فهناك قصد من وراء ذلك مفاده أننا نحيل بالنحس والصداع على شخصين دون تحديد اسميهما، وهذا يعني أننا عوض أن نربط فعل المجيء أو الذهاب بفلان، فإننا ربطناهما بصفيتين ملازمتين لهما بالنسبة للمخاطب. بمعنى أكثر دقة؛ فإننا أضمرنا الكثير في التعبير عن فلان بالحديث عنهما بالصفة، مما يؤكد وجود قرائن دلالية، وثقافية، ومقامية، واجتماعية، تدفعنا للاهتمام إلى المعنى المقصود^(١).

يرتبط مفهوم الفضاء الذهني بهذا المعنى بالعديد من القرائن، وهي القرائن نفسها التي تضبط عمليات الانتقال المفترضة من فضاء ذهني إلى فضاء ذهني آخر، بمعنى أن تصورنا للفضاء هو تصور مبني على مسألة إدراك الدلالة كيفما كانت الوضعية التواصلية، وهي وضعيات متحولة ولا تستقر على معنى واحد، بل من الممكن أن تكون متغيرة بحسب طبيعة القرائن المتدخلة في بناء الفضاء الذهني.

ما يميز الفضاءات الذهنية أنها متحولة، ومفهوم التحول هنا يرتكز على مسألة التوليد التي تدفع نحو إمكان توليد العديد من الفضاءات من فضاء واحد، فلو تأملنا الفضاء الذهني المعبر عنه في الأمثلة أعلاه سندرك أننا انتقلنا من فضاء المعنى الأولى

Fauconnier, G. (1984). Espaces mentaux: Aspects de la construction du sens dans les (١) langues naturelles. Paris: Les Éditions de Minuit. P 16-22.

إلى فضاء المعنى الثاني الذي يخدم عملية الفهم أثناء عملية التواصل، والجميل في هذه النظرية أن عملية التوليد يطبعها التدرج من الفضاء الأصيل إلى فضاءات الفرعية الأخرى، وهي عملية تناسلية تربط بينها علاقة دلالية تشبه في توزيعها العلاقة الأسرية، وهو ما دفع بفوكونبي إلى إطلاق اسم الفضاء الأب على الفضاء الأصيل، والفضاء الثاني هو فضاء الابن وهكذا، وقد مثل فوكونبي لذلك بشبكة الفضاءات الذهنية التالية^(١):



شكل ٢: شبكة الفضاءات الذهنية

ما يميز نظرية الفضاءات الذهنية كما طرحت عند فوكونبي هو طابعها المرن الذي حول دراسة اللغة من فضاء التحقق إلى فضاء الذهن، فاللغة لا ترتبط رأساً بعالم حقيقي أو فيزيائي، إذ بين اللغة والعالم الفيزيائي سيرورة بناء واسعة، وهي السيرورة التي لا تعكس العبارات اللغوية التي تنشئها، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر الأوضاع فيه أهدافاً للعبارات التي تنطبق عليها، وهذا المستوى الوسيط يسميه فوكونبي بالمستوى المعرفي الذي يبنى حين تستعمل اللغة، بحيث يتم تحديده، في الوقت نفسه، بواسطة

Fauconnier, G. (1984). *Espaces mentaux*: P 18.

(١)

الأشكال اللغوية التي نستخدمها في التركيب وفي إنتاج الخطاب عبر مجموعة من التلميحات من قبيل الخلفيات والتنبؤات والتجليات الذريعية... إلخ^(١).

إن الحديث عن الفضاءات الذهنية باعتبارها مقاربة معرفية، تمدنا بالأدوات التي يجب أن تتوافر في أي نموذج معرفي دون المرور من التحديات ذات المنحى الموضوعي لأن كل فضاء يحوي كيانات ذهنية مترابطة داخل علاقات واسعة، فنجاح قول معين يتم عبر تخصيص مساحة واسعة من الاقتضاءات والتضمينات^(٢)، فتعددها يعطي الانطباع أن الكثير من اللغة يظل حبيس الذهن لعدم توافر الفضاءات المناسبة التي تلائم خرجه (output) لغويا، مما يزيد من التأكيد أن ما نتواصل به لغويا لا يشكل إلا فضاء بسيطا لا يمكن أن يتوازي مع حجم اللغة التي تظل في الذهن، وغالبا ما نعبر عن ذلك بقولنا إن اللغة عاجزة عن قول كل ما نريد، أو إننا في كثير من الأحيان لا نستطيع قول كل شيء لضرورات مقامية أو تخاطبية أو اجتماعية معينة، وبالتالي، إذا استثمرنا في ذلك جيدا، فإننا من المهم أن نؤكد أن قولنا إن اللغة أداة تواصل يحتاج إلى براهين تجريبية أكثر قوة مما قدم في إطار اللسانيات الوظيفية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نجازف بقول ذلك في ظل أن الكثير مما نريد قوله تخاطبيا لا يتوازي مع حجم اللغة المفكر فيها، وحتى عندما نتواصل فإننا لا نستطيع إيصال المعنى بالتصور الذي نريده، لذلك قد نتدخل بقولنا ماذا تعني؟ أو ماذا تقصد؟

٢- ٤ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظريه الاستعارة التصويرية

تعدّ نظرية الاستعارة التصويرية (Conceptual metaphor theory) المقدمة في عمل «لايكوف» (٩٣)^(٣) عملا متطورا داخل اللسانيات المعرفية، إذ تشكل نهجا أو

(١) عبد المجيد جحفة (٢٠٠٠)، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، ص ٥٠.

(٢) المرجع والصفحة نفسيهما

(٣) Lakoff, G(2006).Conceptual metaphor, in cognitive linguistics, Gruyter berlin,New York,-

مقاربة لتنظيم التصورات وبنائها، والتي سبق وأن نوقشت بشكل كبير داخل العلوم المعرفية بشكل عام، الفكرة المحورية التي تتأسس عليها النظرية تقوم على مبدأ التعيين الذي يربط بين التصورات وبين بعض المفاهيم المجردة من قبيل الزمن والفضاء.

عندما أُلِّفَ كتاب الاستعارات التي نحيا بها من طرف كل من جورج لايفوف ومارك جونسون، لا أحد كان يعتقد أن هذا الكتاب سيشكل في ما بعد ثورة حقيقية في مجال البحث اللساني عموماً والدلالي تحديداً، خصوصاً أنه أخذ في الكثير من الأمور التي كانت إلى عهد قريب ملتصقة بمجال واحد، ومن بين القضايا التي تمت إعادة النظر فيها الاستعارة التي تم إخراجها من مجال البلاغة وإدخالها مجال اللسانيات عبر محاولة فهمها بطريقة جديدة لا ترتبط بالألفاظ اللغوية فقط، بل هي مسألة تتصل بالتفكير وبآليات بناء الذهن تصوراً وإدراكاً، مؤكدين أنها أصبحت ترتبط بكل مجالات حياتنا اليومية، بل إن النسق التصوري الذي يتحكم في بنياتنا اللغوية هو نسق ذو الطبيعة الاستعارية في كثير من تفاصيله.

ما يمكن أن تساهم به النظرية هو أن نسقنا التصوري مبين بطريقة استعارية، فنحن لا يمكن أن نتصور حياتنا بدون استعارة فهي تسيطر على تفكيرنا وتبني نسقنا اللغوي وتساهم في توسيع مداركنا، بمعنى أن اللغة التي نتجها هي في الأصل لغة مبينة بشكل استعاري، وما كنا نتصوره حقيقة هو في الأصل استعارة، وبالتالي تحول نسقنا اللغوي من دراسة اللغة إلى دراسة الذهن، فشكل ذلك ثورة حقيقية في مجال اللسانيات المعرفية، إن لم نقل إنها النقطة التي فتحت الباب أمام بلورة دراسات لسانية جديدة عرفت باللسانيات المعرفية، على اعتبار أن ما نتصوره جدالاً هو في الأصل لا يمكن أن يتمشى إلا مع معجم ينتمي إلى الحرب، فنحن مهوسون بالإقناع والشعور بالانتصار وتقديم الحجج والبراهين، وبالتالي كلما وجدنا أنفسنا في جدال ما؛ نتصور في مقابل ذلك أنفسنا في حرب نبتغي الانتصار فيها، ومن الأمثلة التي قدمها المؤلفان في هذا الإطار:

الجدال حرب:

١٣ - لا يمكن أن تدافع عن ادعاءاتك.

١٤ - لقد هاجم كل نقط القوة في استدلالتي.

١٥ - أصابت انتقاداته الهدف.

١٦ - لقد هدم حجته

١٧ - لم انتصر عليه يوما في جدال

١٨ - إذا اتخذت هذه الإستراتيجية ستبُاد

١٩ - إنه يسقط في جميع براهيني^(١).

ما يدفعا نحو هذا التصور هو أننا نوظف كل الأسلحة التي نمتلكها من أجل أن نتنصر في الجدال، بل إن الآليات التي تسيطر على تفكيرنا ونحن نخوض في الجدال هي حجم تصوراتنا التي من خلالها نبني معارك كلامية فيها الهجوم والهجوم المضاد، بمعنى أكثر دقة لا يمكن أن نتصور حياتنا دون استعارة، كما لا يمكن أن نتصور أن نسقنا اللغوي خال من الاستعارة، فكل ما نتجه من لغة يكاد يكون استعاريا، لذلك تم إخراج الاستعارة وتخليصها من البلاغة وإدخالها مجال الذهن والتصور، فتحوّلت بذلك آليات إدراك الاستعارة من اللغة نحو الذهن.

على هذا الأساس، أشار «لايكوف وجونسون» (٨٠)(٩٩) إلى مجموعة من الافتراضات المركزية التي ترتبط بالبنية التصورية للاستعارة، وهي الفرضيات التي يمكن تلخيصها في شكل أسئلة جوهرية ذات أبعاد معرفية هي: ما هو المبدأ العام الذي يتحكم في عملية توظيف التراكيب اللغوية للتعبير عن المسار والجدال والحب...؟ ثم هل هناك مبدأ عام يتحكم في كيفية استعمالنا لتعابير لغوية خاصة دون غيرها؟

(١) لايكوف وجونسون (١٩٩٦)، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ص ٢٢.

الأکید أن المبدأ العام الذي يتحكم في نسقنا اللغوي ليس فقط جزءاً من قواعد اللغة ولا من معجمها، إنه جزء من النسق التصوري لها، هو المبدأ الذي نفهم من خلاله مجال الزمن من خلال مكون استعاري يُدرك من خلال السياق التالي:

٢٠ - وصلت علاقتنا إلى طريق مسدود.

العاشقان في رحلة، والهدف والمبتغى واحد هو الوصول، هذا التصور مبني من خلال مسار مشترك يسمح لهما بالتقدم نحو الأمام، فالاستعارة هنا تنطوي على فهم مجال معين من التجربة^(١)، بمعنى أن نفهم الاستعارة على أنها «نسخ» (Mapping)^(٢) من مجال المصدر إلى مجال الهدف، وقد اعتمد «جونسون ولايكوف» (٨٠) في ذلك على إستراتيجية لتسمية حالات النسخ هاته واستعملا أساليب لتقوية الذاكرة غالباً ما تكون عبارة عن أسماء متعلقة بها على الشكل التالي: المجال الهدف هو المجال المصدر، أو كبديل لذلك، المجال الهدف كالمجال المصدر، وفي هذه الحالة سيكون اسم حالة النسخ هو الزمن/ بضاعة، الحب / رحلة ...

(١) جورج لايكوف (٢٠١١): النظرية المعاصرة للاستعارة، ترجمة محمد الأمين مومن، ضمن الاستعارة والمعرفة مختبر اللسانيات والتوصل، إعداد خالد برادة، عبد المجيد جحفة، منشورات المختبر، كلية الآداب، بني امسيك - البيضاء، ص: ٢٠.

(٢) لقد تم أخذ هذه لترجمة من مقال «النظرية المعاصرة للاستعارة» لمحمد أمين مومن التي اعتبر فيها أن مفهوم النسخ يقابل (Mapping) الذي يؤشرنا عن الفهم العميق الذي يتحقق أنطولوجياً بين مجالي المصدر والهدف، مما ينعكس على طرق تفكيرنا التي تنظم في شكل خرائط معرفية، و يعتبر «طولمان» (٤٨) (Tolman) أول من استعمل مفهوم الخرائط المعرفية ليصف الكيفية التي نفهم من خلالها الظواهر المعقدة، وقد استعمل هذا المفهوم في ميادين معرفية كثيرة، كعلم النفس والتربية وعلم الذكاء الاصطناعي. فيؤشر من خلاله أن السمات التي تكون على مستوى المصدر يتم نسخها على مستوى الهدف، الشيء الذي يجعلنا نتج عبارات استعارية من قبيل: (الزمن مال، الزمن بضاعة، الزمن ثروة، الزمن رحلة، الزمن طيب، الزمن وحش، الزمن ساحر.....)

وقد جمع «لايكوف وجونسون» (٨٠) كل هذه المعطيات في شكل تعميمات صاغها على الشكل التالي:

- إن الاستعارة عبارة عن حالة نسخ «تصورية» تصف تعميما من نوعين: تعميم تعدد المعاني: وهي القاعدة التي تقرّ بوجود معانٍ منسوخة بتعبير لغوية، ومن الأمثلة على ذلك نذكر:

٢١- وصلت علاقتنا إلى طريق مسدود،

٢٢- وصلت علاقتنا إلى مفترق الطرق،

٢٣- تسير علاقتنا نحو المجهول...

تعميم استنتاجي: هو تعميم يقدم مجموعة من الاستنتاجات عبر مجالات تصورية مختلفة، وهنا التأكيد على وجود حالات نسخ تقدم إجابة عامة عن سؤالين: لماذا تستعمل الكلمات المرتبطة بالزمن/ سفر في وصف علاقة حب مثلا؟ ولماذا تستعمل الأنماط الاستنتاجية للحديث عن السفر والاستدلال على علاقات الحب / السفر...؟

من وجهة نظر المحلل اللغوي، فإن «لايكوف وجونسون» (٨٠) أكدوا أن هذه الألفاظ المتزاوجة والعبارة للمجالات تعطي الدليل عن وجود حالات نسخ متعددة ومتنوعة^(١). بل إن بنياتنا اللغوية في كثير من الحالات هي بنيات تصورية ذات بعد تصوري. فتصوراتنا هي عمليات نسخ بين ما يوجد في الواقع وبين ما يوجد في الذهن. لنزيد من التأكيد مرة أخرى أنه إذا كان حجم اللغة المنجزة لا يتوازى مع حجم اللغة المفكر فيها على مستوى الذهن، فإنه من الواجب أن نؤكد أن وظيفة اللغة لا تكمن في التواصل بقدر قدرتنا على ترجمة ما يوجد بالذهن. خصوصا أن الافتراض الذي

(١) للمزيد حول الموضوع المرجو العودة إلى كتاب: البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن لمؤلفه عبد الكبير الحسني، الصادر عن دار كنوز المعرفة في (٢٠١٥).

تقوم عليه نظرية الاستعارة التصورية يزيد من تأكيد أن نسقنا اللغوي هو نسق استعاري بآليات تصورية.

وبالتالي نصل أن التصورات التي تتحكم في تفكيرنا هي ذات طبعة ثقافية، فهي تتحكم في سلوكنا اليومية البسيطة، تبين ما ندرکه وتبين كذلك الطريقة التي نتعامل بواسطتها مع العالم، وبهذا يلعب نسقنا التصوري دورا مهما ومركزيا في تحديد حقائقنا اليومية، من جهة أخرى فنسقنا التصوري ينسجم مع جل التفاصيل التي نسلکها في حياتنا اليومية، إذ لا تغدو اللغة، في هذا التصور، إلا طريقة كاشفة لمسارات سلوكاتنا، وبما أن التواصل مؤسس على النسق التصوري نفسه الذي نستعمله في تفكيرنا وفي أنشطتنا، فإن اللغة تعد مصدرا مهما للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق^(١).

٢- ٥ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظرية دلالة الأطر

في الطريق التأسيس للسانيات المعرفية طرح «شارل فيلمور» سنة (١٩٨٧) نظرية مهمة جدا سماها بنظرية الأطر، وهي نظرية تتأسس على أن الطفل والإنسان عموما لا يمكن أن يدرك معنى الكلمة في الجملة دون أن يستحضر في ذهنه مجموعة من المعارف المتنوعة الخاصة بتلك الكلمة. فالأطر ضرب من البنية الذهنية المجردة التي تتحدّد حول معنى الكلمة انطلاقا من المعارف والتجارب التي عاشها المتكلم؛ بمعنى أنه إذا كانت النظرية الدلالية إطارا منظما للمداخل المعجمية، فإن ما يهمنا هي طبيعة المعلومات الموجودة في كل مدخل وسبب وجودها بالصورة التي هي عليها، على اعتبار أن بناء نسق من الدلالة الخاص بالمداخل المعجمية يعود إلى الأطر متجانسة بنماذج المعرفة البشرية مختلفة، هي الأطر التي يتم تخصيصها بفهم موحد ومؤمل

(١) لايكوف وجونسون (١٩٩٦)، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ص ٢١.

لكل التجارب الخاصة، فإذا أخذنا نموذجاً للمدخل المعجمي للفعل (كتب) مثلاً في السياق التركيبي التالي:

٢٤ - كتب الكاتب رسالة في المكتب.

٢٥ - دونت معلوماتي في مذكرتي الخاصة

يمكن أن يتضمن فعل الكتابة مجموعة من المعطيات الخاصة من قبيل: تدوين معلومات بأداة أو قلم، وفي ذلك على مستوى الشرح اللغوي سنجد المعلومات التالية: تحويل منطوق الكلام إلى مدونات تتخذ من الكتب والمجلدات والمذكرات... فضاء لها، بمعنى ضرورة استحضار جهاز معرفي إدراكي نعتمد فيه على الحركة الواعية التي تحول المعلومات من فضاء الذهن إلى فضاء الكتاب، بمعنى هناك فعل قصدي يساعد على برمجة المعطيات الخاصة بفعل الكتابة،

في ذلك تمييز خاص للفعل عن باقي الأفعال الأخرى مثل: دوّن، رقن، وهو التمييز الذي نرصد ملامحه من خلال الاعتماد على الإدراك، وما يهمننا في هذا المكون المعرفي للمعنى أن كل المعلومات التي تخص جهازنا المعرفي تكون مرمزة (Encoded)، من هنا تتحدد أهمية نظرية دلالة الأطر باعتباره أن فهمنا للمعنى يتجسد من خلال اعتمادنا على الإدراك الحسي وليس على معطيات شروط الصدق كما طرحت في الدلالة المنطقية. بمعنى أن مفهوم الإطار يغنينا عن الحديث عن شروط الصدق الممكنة في عالم ممكن، فالإطار الموحد بينيته الداخلية يعكس جانباً من التجربة الذي يصبح بمعنى من المعاني شرطاً من شروط الصدق الداخلية على المعنى^(١).

يجب أن نؤكد أن بناء نظرية من هذا النوع لا بد وأن يعود بالأساس إلى طبيعة البرمجة اللغوية التي يحويها كل مدخل معجمي على حدة، بمعنى أن كل مدخل له

(١) عبد المجيد جحفة (٢٠٠٠)، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، ص ٤٨، ٤٩.

هندسة معرفية تتحكم بشكل كبير في طبيعة المعلومات التي تبني الفهم وتمنسه، بمعنى وجود علاقات دلالية تربط بين الألفاظ التي تبني الحقول الدلالية، وهي العلاقات التي ينتصر من خلالها فيلمور إلى فكرة الفهم الموحد، فهي حقول لكونها تصف جانبا من السلوك البشري الذي يكون مختلفا بالضرورة^(١).

٢-٦ أوليات البناء المعرفي للمعنى: نظريه التوليد الدلالي

لم يتبته الكثير من الباحثين الدلالين في مجال اللسانيات إلى أن مسألة التوليد الدلالي هي نظرية معرفية مرتبطة بنمو الوعي اللغوي عند الأطفال، فعندما يتقلون من مرحلة الاكتساب إلى مرحلة التعلم تبدأ مباشرة مرحلة مهمة مدمجة تسمى بالإبداع، وهي نسق يشتغل وفق آليات توليد معاني جديدة وخاصة منبثقة من المعجم الذهني الذي يبنيه الطفل من خلال عشيرته اللغوية التي نما داخلها، بمعنى أن الطفل لا يكتفي بما هو مقدم له، بل إنه يبدع في لغته عبر توليد أنساق لغوية تنسجم مع قدرته الفطرية.

يمكن أن يستغل التوليد الدلالي في عملية البرمجيات اللغوية؛ بمعنى أدق إن أي توليد دلالي لمعان جديدة لا بد وأن يرتبط بحجم الآليات المتدخلة في ذلك، العملية ليست بسيطة كما أنها لا يمكن أن تصل إلى درجة عالية من التعقيد شريطة أن تتوافر الآليات الدقيقة وراء ذلك.

تقوم نظرية التوليد الدلالي برصد الدلالات الجديدة التي يتم توليدها عبر تحليلها وتفسير ظواهرها والكشف عن سماتها، وبالتالي فهي نظرية تحاول أن ترصد التمايز بين المدخل المعجمي ذي معنى واحد والمدخل المعجمي الذي يملك أبعادا دلالية متعددة؛ بعبارة أخرى، إنها نظرية تشخيصية تحاول أن تبين دور المعنى الواحد في بناء الدلالة العامة، هي اعتبارات لا يمكن أن تقوم لها قائمة إلا إذا انبنى المعنى الواحد على مدخل معجمي واحد، وانبتت الدلالة على المدخل الواحد بمعان متعددة.

(١) عبد المجيد جحفة (٢٠٠٠)، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، ص ٤٨، ٤٩.

في سنة ١٩٧٢ قدم «جاكندوف» تفسيراً رائعاً لما أسماه بنظرية «العلاقات الدلالية» في كتاب له تحت عنوان «التأويل الدلالي في النحو التوليدي» والذي حاول أن يبين فيه أن العلاقات الدلالية بين الوحدات المعجمية تقوم على ما أسماه بـ«العلاقات المحورية» التي تربط بين المحور وباقي موضوعاته التي ترافقه^(١)، وهي الأدوار التي تربط أشد الارتباط بالمستوى الدلالي الذي يتم إسناده إلى الوحدات المعجمية داخل المعجم والمفردة داخل مجال التركيب.

٢٦ - أكل محمد التفاحة

٢٧ - * أكل محمد الحائط

فما يجعل البنية الأولى بنية سليمة هي طبيعة الدور المحوري الذي يلعبه الفعل (أكل)، بحيث يعمل على توزيع أدواراً محورية تنسجم مع سماته الداخلية التي يفرضها على المنفذ (محمد) الذي يجب أن تتوافر فيه جميع السمات الضرورية والكافية لكي يقوم وينفذ الفعل، ثم التفاحة التي أسند لها دور الضحية لقابلية أن تؤكل من جهة، ومن جهة ثانية فهي تملك سمات ضرورية وكافية لكي يقع عليها الفعل.

لكن، إذا ما حاولنا أن نطبق التحليل نفسه على البنية الموالية، فإننا سنجد تبايناً واضحاً في عملية توزيع الأدوار المحورية على الموضوعات المرافقة للفعل أكل، بحيث أنه منح دوراً محورياً للولد باعتباره المنفذ، لكن عندما وصلنا إلى موضوع «الحائط» وجدناه يتخذ موقعاً ملائماً في التركيب لكنه غير كافٍ لكي يقع عليه الفعل، فالحائط لا يملك سمات المناسبة التي تؤهله لذلك، وبالتالي تسقط البنية فوراً.

تكمن أهمية النظرية الدلالية في قلبها المحوري يكمن في محاولتها إعادة بناء النحو من جديد وفق آليات لم تكن رؤيتها ممكنة في الجملة، وهي إعادة بناء جيدة منحت

Jackendoff, R. (1972). Semantic Interpretation In Generative Grammar.Mit

(١)

مساراً جديداً للدراسات الدلالية التي اهتمت ببناء الأنساق الدلالية في التركيب، إذ يمكن أن نجزم أن ما يجعل التركيب قاصراً على إخراج الجملة اللاحنة (Agrammatical) بصورتها السليمة أنه مشروع لا يملك إلا المواقع فقط، مما فرض تدخل الدلالة من أجل تحويل البنى من صورتها غير المقبولة إلى صورتها السليمة نحويًا ودلاليًا، حتى أضحي الإعراب منقسماً على جانبيين، إعراب بنيوي وهو إعراب للمواقع فقط، وإعراب دلالي يرتبط بفحص السمات التي يفرضها الفعل على موضوعاته، وهو الأساس الذي يخرج الجمل من صيغتها اللاحنة إلى صيغتها السليمة^(١).

الجملة:	أكل	الولد	التفاحة	نوع الإعراب
إعراب بنيوي	فعل	فاعل	مفعول به	(إعراب بنيوي / مواقع)
إعراب دلالي	محور	منفذ	ضحية	(إعراب محوري / دلالي)

عندما نقدم هذا التحليل داخل مسألة الاكتساب اللغوي، فإن الأمر يزداد توضيحاً، بحيث لو قدمنا لطفل صغير تجاوز مرحلة الاكتساب (النحو الكلي) إلى مرحلة التعلم (النحو الخاص) جملاً من قبيل:

٢٨ - أكل الولد

٢٩ - أكل الولد التفاحة

٣٠ - *أكل الولد الحائط

(١) لعب (كاتز وفدور) و(كاتز وبوسطيل) دوراً مهماً في إدخال المكون الدلالي ضمن التمثيل النحوي للنظرية التوليدية، وقد نبهوا أن الإعراب البنيوي غير كافٍ للحديث عن المقبولية النحوية، وأن الرهان على حدس المتكلم المثالي لا يمكن أن يستجيب لمقتضيات التراكم التي قد تلامس الخطاب، مما فرض تدخلاً أو تعديلاً يجعل من المكون الدلالي مكوناً مستقلاً يتأسس دوره على ما نسميه البنية المحورية إذ يسند المحور أدواراً محورياً على الموضوعات التي يشرف عليها، وهي بنية تقوم على أساس فحص السمات الموجودة في الموضوعات ومواءمتها مع المحور حتى يستقيم التركيب.

تفترض نظرية الاكتساب اللغوي أن المتعلم يبني المعنى المقصود بالاعتماد على السياق^(١)، بمعنى أن الطفل السليقي من المفترض أنه عندما يسمع جملة أكل الولد فإنه سيحبك أكل ماذا؟ ولو سمع الجملة الموالية فإنه سيستحسن التركيب، ويقف عند حدود مداركه، ويفهم أن السياق المقدم له هو سياق تام لا ينقصه أي شيء، والدليل على ذلك أنه لا يحبك بسؤال كما جرت العادة من قبل، في حين وأنت تقدم له السياق الأخير، فإنك ستنتظر ردة فعل غير متوقعة؛ لأن نسقه لا يقبل أن يكون تأويله الدلالي للفعل أكل يتجاوز في مداركه حدود المواقع ويتصل بطبيعة الضحية التي سيسقط عليها الفعل، فيفهم أن التركيب المقدم له يحتاج إلى تعديل دلالي يجمع بين الفعل الأكل والمأكول.

لو افترضنا أن هذا التحليل صحيح، وسلمنا جدلاً بطرق الحجاج فيه، فإننا سنصل إلى معطيات مهمة في مسألة هندسية المعنى، على اعتبار أن فهم الطفل لتركيب لغته بالصورة المحللة سلفاً يعطينا دليلاً أننا عندما نبدأ في عملية إدراك اللغة ندرک معها كل ما له علاقة بآلية التحليل المبرمج الدقيق على مستوى الذهن، فنحن لم نعلم الطفل الصغير آليات التحليل، بل ما قدمناه له سوى مفردات التقطها من المحيط فسرها تشومسكي بما دعاه بـ «فقر المنبه»^(٢).

إن المعاني المبرمجة هندسياً داخل المعجم الذهني لكل واحد منا دفعت بنظرية النحو في ما بعد إلى الاستنجاذ بالمعجم؛ لأن قدرة المتكلم على إنتاج عدد لا حصر له من الجمل السليمة تتطلب التسليح بآليات وقواعد تؤلف بين المدخل المعجمي المراد استعماله، لذلك فإن تفسير طرق وآليات بناء النحو تتطلب البحث في طرق التفكير

(١) محمد غاليم (٢٠٠٧)، النظرية اللسانية والدلالية، توبقال. ص، ٣٣

(٢) نظرية فقر المنبه: نظرية قدمها تشومسكي في إطار الدفاع عن كفاياته الملاحظة والتفسيرية، محاولاً أن يبين أن المعطيات اللغوية التي تقدم للطفل الصغير في مرحلة الاكتساب تكون قليلة بالمقارنة مع طبيعة التطور الذي تعرفه لغته في مرحلة التعلم.

البشري، وطرق التفكير البشري لا يمكن أن نصل إليها إلا إذا كانت اللغة وسيلة في حد ذاتها وليست غاية يقف عندها محللو ودارسو اللسانيات بشكل عام، وفي هذا الإطار سبق وأن قدم فوكونيني نظرية أسمها بنظرية الفضاءات الذهنية التي حددنا أهميتها من قبل. فما يمكن أن نؤاخذ على هذه النظرية أنها كانت تهدف إلى وضع تفسير ذريعي للغة فقط ولم تستثمر نتائج التحليل في البحث عن طرق بناء الفكر البشري، بمعنى أنها جعلت اللغة غاية وليست وسيلة.

النظرية الدلالية بهذا المعنى هي نظرية لهندسة المعنى في جوهرها، هي نظرية تدفعنا إلى الانسياق وراء ما قدمه تشومسكي عندما كان يتحدث عن تطور اللغة والذي فسّره باعتباره خلاصة رياضية توجد عليها البنية البيولوجية للذهن البشري، هل ما نتصوره يكون اعتباطيا؟ هل التصورات تمثل المعنى أم أن المعنى هو الذي يمثل التصورات؟ كيف يتم التوفيق بينهما داخل الذهن البشري؟ هي الإجابة التي نرصد الإجابة عنها في إطار المشروع العام للاكتساب اللغوي الذي قادته اللسانيات المعرفية عبر كل مراحل تطورها.

٣- اكتساب المعرفة الدلالية.

عند دراسة معاني الكلمات في اللغة، لا يجب علينا التركيز على الكيفية التي يتم من خلالها تعيين المعاني للكلمات، وشددنا في المعيار المعرفي أنه يجب على النظرية دلالية شرح الكيفية التي تعلّم بها اللغة، على اعتبار أن المعيار المعرفي يضع قيودا على كيفية بناء دلالة اللغة. أو بعبارة أخرى، كيف نتعلم ما تعنيه الكلمات؟ وبالتالي نفترض أن تنظيم المعاني داخل «مجالات» هو العامل الحاسم في جعل تعلم اللغة أكثر كفاءة^(١).

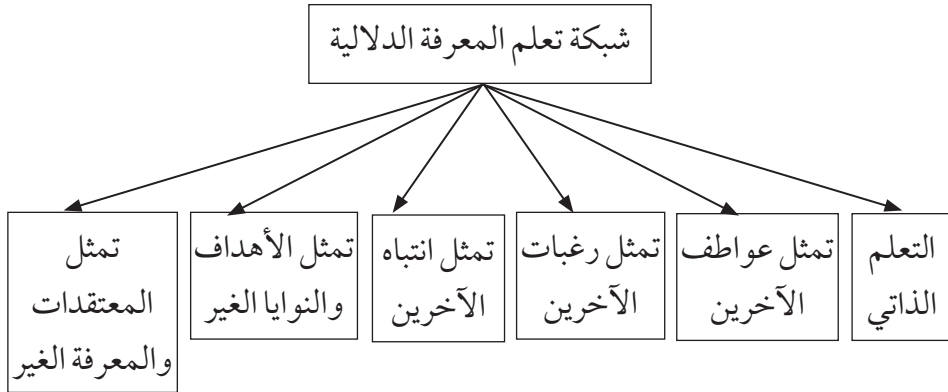
(١) تشير بعض البحوث المتخصصة في رصد تنمية القدرات اللغوية عند الأطفال إلى بعض الأدلة التي تؤكد أن تعلم بعض المجالات الأساسية يكون أكثر فعالية من غيرها. وينطبق هذا على المجالات التي تركز على البرامج الحسّية. على سبيل المثال، (Spelke، ٢٠٠٠؛ Kinzler و Spelke، ٢٠٠٧) الذين حدّدوا «نظم المعرفة الأساسية» في أربعة: تمثل (١) بنية الإبصار مكاني، (٢) الأشياء وتفاعلاتها، (٣) الإجراءات وموجه الهدف، و(٤) الأرقام وعلاقات الترتيب.

نفترض أن بناء المجالات المعرفية التي يكتسبها الأطفال تستمد من التفاعلات الاجتماعية (المعيار الاجتماعي) التي تبصم عميقا في ذهن الطفل. إذ لا يمكن معرفة علاقات القرابة بشكل مرئي فقط. بل ذلك يُعرف من خلال رصد حجم التفاعلات الاجتماعية التي تنسج بين الناس، وكمثال آخر على ذلك هو مجال المعاملات الاقتصادية: فلا تعتقد أنه بمجرد مراقبة العملات المعدنية والفواتير التي يجري تبادلها للبضائع كاف لتوليد مجال الأسعار، والقروض، وأسعار الفائدة، وما إلى ذلك. فلا بد من البحث عن ذلك داخل الأنساق العميقة الداخلة في تكويننا، فنحن كما قلنا مفطورون لكي نتعامل مع الآخر، والآخر يشكل صورة لما نحن عليه اليوم على الأقل لغويا، فلا يجب أن نغفل الدور الذي يلعبه المعيار الاجتماعي في بناء صورة عن المجتمع اللغوي الذي ننمو داخله.

٣- ١ شبكة تعلم المعرفة الدلالية

التفسير المقترح في هذا الباب هو أن يتم تنظيم المعرفة التصورية التي يقتصر دورها على تنظيم المعرفة الدلالية لجعل تعلم اللغة أمرا ممكنا وميسرا. نعلم أن هناك فرقا في الجهد المعرفي، فاستيعاب معرفة جديدة هي خطوة صعبة جدا؛ لأنها تقوم على أساس إضافة مفاهيم وتصورات ومصطلحات جديدة إلى المعرفة المشتركة بين مجموعة من العناصر المحتملة، (كلمات والإيماءات، والرموز، الخ)، مع الإشارة إلى أن كل عنصر من هذه العناصر يمكن تطويره بشكل ذاتي ليشكل هو الآخر معرفة أخرى. وعلى النقيض من ذلك، فإنه في حالة عدم تقاسم المعرفة، فإن ذلك يعوق عملية التواصل، وإذا كنا نعي جيدا أنه لا يوجد أي تعارض بين دور أي جزء من أجزاء الجسد البشري مع المعرفة؛ لأن كل جزء له دور ما في بناء المعرفة، وهي عملية معقدة جدا اعتبارا لتدخل مجموعة من المؤثرات التي تساهم في بناء المعرفة الدلالية، والمعرفة في هذا التصور هي كل مظاهر الذكاء البشري، هي كل حركة من حركات أعضاء الجسد البشري لأن المعرفة المتجسدة تقوم على شبكة معرفية متداخلة تساهم

بشكل كبير في بناء المعرفة الدلالية، وهي الشبكة التي تم تجميع معطياتها مما قدمه
(كراندفور ٢٠١٤)^(١) على الشكل التالي:



الشكل ٣: شبكة تعلم المعرفة الدلالية.

٣-١-١ التعلم الذاتي

تطور المعرفة الدلالية بشكل ذاتي هي عملية إدراكية يتم تطويرها بشكل جيد عند الأطفال بالمقارنة مع الأنواع الأخرى من الحيوانات، ما يعني في هذا السياق أننا نتقاسم ونتمثل ما يجري في ذهن الآخرين ونتنبأ بما يفكرون فيه، وأغتنم مصطلح «ذهن» هنا لإشراك، ليس فقط المعتقدات، ولكن كل أشكال الحالات الذهنية، بما في ذلك العواطف والرغبات والنوايا في النقاش الفلسفي، إذ عادة ما يشار إلى تطور المعرفة الذاتية بأنها «نظرية الذهن» (انظر مثلاً «كاردنفور» ١٩٩٩)، ونحن إذ لا نريد أن نتجنب هذا المصطلح، فإننا لا نرغب في المساواة بين المعرفة الدلالية وبين ما يمثل معتقدات الآخرين، الأمر الذي يتنافى مع ما نحن نريد ندرسه، لأن الأمر يرتبط عندنا بالتطور الذاتي المتعلق بالمعرفة الدلالية.

(١) للتوسع في المسألة المرجو العودة إلى كتاب:

Gärdenfors, Peter.(2014) Geometry of meaning: semantics based on conceptual spaces ; MIT PRESS/ Massachusetts Institute of Technology.LONDON

يعدّ التطور الذاتي مهما لتعلم اللغة؛ لأنه يضيف المعلومات التي تساعد الطفل على تفسير معنى التعبير الذي تلفظ به؛ اعتباراً أن أشكال التطور الذاتي لها صلة بعمليات التواصل نفسها التي تستخدم في حالة عدم التواصل. بمعنى أن القدرات العامة المشتركة هي العناصر السابقة التي تغذي عملية تعلم اللغة. فنصبح وفق ذلك كائنات قارئة أذهان بمجرد رصد سلوك الآخرين بعد مرور السنة الأولى، لأن المكون الذهني يبدأ في النضج تدريجياً وذاتياً حتى يتمكن من الوصول إلى مرحلة الوعي بالعالم، وهي عملية ثلاثية الأبعاد تتدخل فيها آليات الانتباه المشترك التي تجمع بين ملكة الوعي والمعرفة. لتأمل الأمثلة التالية:

٣١- يميل لون البرتقالة إلى الأخضر مائل إلى الصفرة

٣٢- يميل لون البرتقالة إلى البنفسجي

٣٣- تعيش الدولة تضخماً خطيراً في معاملاتها الاقتصادية

٣٤- انتعش الرهن العقاري نتيجة تخفيض الأسعار.

بناء على معطيات التراكم الواردة أعلاه، فإن آليات التعلم الذاتي تشير إلى بعض التباينات القوية. وهي التباينات التي يمكن أن نرصدها من خلال المفارقة التالية، لماذا يعدّ أمر التعلم أسهل عندما نشرح لطفل يبلغ من العمر أربع سنوات معنى اللون «أخضر مائل إلى الصفرة» أو اللون «البنفسجي»، في الوقت الذي نجد فيه صعوبة لشرح المصطلحات لها علاقة بالمعاملات مثل «التضخم» أو «الرهن العقاري»؟ مع العلم أن الفرق لا يمكن أن يقف عند مسألة تردد كلمة، لأن شروط التداول المعملاتي هي أكثر تواتراً بالمقارنة مع الألوان، فالطفل الذي يبلغ من العمر أربع سنوات له قدرة على تمثيل المجال الدلالي للألوان من منطلق تكوينه الذاتي في المجال، فهو يعرف ويعلم أن الألوان هي جزء من حياته اللغوية لأنه يتمثلها من خلال كثرة تردها على مسامعه

من جهة، ومن جهة أخرى فهو يلامس التغيرات التي تطرأ عليها من خلال رصده لهذه التحولات، وبالتالي يعرف معاني كلمات كثيرة عن الألوان. أما مسألة إضافة مصطلحات للألوان الجديدة من قبيل الأحمر والأزرق والأبيض والأسود ... هي مجرد مسألة التعلم فقط ترتبط بمحتويات التعيين القائمة بين الكلمات لخلق مساحة معرفية جديدة. لكن من ناحية أخرى، عادة لا يتعرّف الطفل على مجال المعاملات الاقتصادية. فالمال بالنسبة لطفل يبلغ من العمر أربع سنوات لا يعني له سوى الأشياء الملموسة، فالتصورات المجردة ليست ضمن أولوياته للوصول للمحتوى الدلالي.

٣- ١- ٢ تمثل عواطف الآخرين.

غالباً ما تحوّل القدرة على تبادل العواطف مع الآخرين من خلال التعبيرات الجسدية والصوتية إلى قيم سلبية أو إيجابية، فهي تعدّ الأكثر وضوحاً بين الحيوانات الاجتماعية على اعتبار أن ما يميز حيوان الشمبانزي والغوريلا هي قدرتهما على التعبير بإشارات الوجه أو بواسطة التعبيرات المسرحية، وهي التعابير التي تحمل بعداً عاطفياً لا تستند في مجملها على المعنى المرجعي. وإذا ما نحن رصدنا المقارنة بين الحيوانات والبشر ندرك أن العواطف تتطور في وقت مبكر جداً عند الأطفال، اعتباراً أن قدرة الإنسان على قراءة ما يجري في ذهن الآخر من خلال رصد لتصرفاته وسلوكاته وملامحه، فهي كاشفات مهمة لبناء تنبؤات عما يدور في ذهن الآخر، وهنا يمكن أن نرصد الفروق الواضحة بين الإنسان والحيوان، اعتباراً أن الحيوان قارئ سلوك الإنسان قارئ أذهان.

٣- ١- ٣ تمثل رغبات الآخرين

تعد الرغبة موقفاً إيجابياً تجاه بعض الأفعال، على اعتبار أن فهم رغبات شخص آخر يتطلب فهم أن البعض قد لا يحب الأشياء نفسها التي تحب القيام بها. في المقابل ذلك، فإن تمثل العواطف يتعلق بالحالة الداخلية للفرد دون الإشارة إلى كائن خارجي.

فالتائج المتوصل إليها من الدراسات المرتبطة بتنمية القدرات اللغوية عند الأطفال تشير أن البالغين من العمر ثمانية عشر شهرا يمكن لهم أن يدركوا أن الآخرين لديهم رغبات أخرى مخالفة لرغباتهم.

٣- ١- ٤ تمثل انتباه الآخرين

تمثل انتباه الآخرين يعني أننا نستطيع أن نفهم أن شخصا آخر يريد فعل أو قول شيء ما، فالبشر وبعض الثدييات الأخرى، وبعض الطيور لهم قدرة كبيرة على تمثيل الآخرين من خلال رصد انتباههم وفهم المقصود من وراء ما يريدون القيام به، بمعنى أنه يمكن للأطفال الصغار جدا فهم الأشياء التي يبحث عنها الآخرون. النتائج المتوصل إليها من خلال رصد هذا الاهتمام المشترك بين شخصين اثنين أنهما يتوقفان في الوصول لنفس الهدف في الوقت نفسه. على اعتبار أن تحقيق الاهتمام المشترك هو متجسد في السلوك المتبادل بين طرفين، هو شرط ضروري لوسم القدرة على الانخراط مع الآخر.

٣- ١- ٥ تمثل أهداف الغير ونواياه

ما دام النظام المعرفي البشري يأخذ معناه من خلال التحيين الذاتي للمعطيات التصورية، فإن هذه الحركة توجه لهدف محدد هو رصد النوايا والقدرة على قراءتها مباشرة من خلال مراقبة السلوك، فالرضع يملكون في بداية الأمر قدرة كبيرة على قراءة نوايا الآخرين وتفسيرها بشكل جيد عن طريق تفعيل مبدأ السببية. لاحظ أنه على الرغم مما يعترض السلوك البشري من عقبات تواصلية في قراءة الآخر، فإن القدرة على تفسير سلوك شخص آخر يمثل هدفا يرمى الوصول إليه. وهذا لا يعني بالضرورة أن أحدا يستطيع أن يرسم خارطة للنوايا بشكل استنساخي، بل يكفي أن تتمثل الهدف من وراء عمل ما لكي نتحقق من مقصدية ذلك. ما يهمنا من دراسة النوايا المشتركة هي القدرة على رصد السلوك الذي من خلاله يستطيع الفرد أن يتمثل خطط الآخرين، وينسق ذلك مع نواياهم الخاصة والأهداف المتوخاة من وراء ذلك، ويكفي أن نستحضر هنا

الرياضات الجماعية لكي نستطيع أن نفهم القدرة الهائلة في تفعيل هذه الآليات، بل والقدرة الهائلة التي تتمثل من خلالها نوايا الغير، لا تتحقق نجاعة اللعبة ولا تنجح الخطط إلا بقدرة أعضاء الفريق على قراءة نوايا بعضهم البعض بشكل جيد.

٣- ١- ٦ تمثل معتقدات الغير والمعرفة.

الاختبارات الأكثر تقدما بين البشر والحيوانات الأخرى هي تلك التي تنطوي عليها معرفة الآخر من خلال رصد ما يعتقد وما يعلم، لقد حاول توماسيللو (٢٠٠٦) مراجعة الأدلة التجريبية لشمبانزي مؤكدا أن القروود لها بعض التمثلات المحدودة، فمن السهل اختبار ما إذا كان الأطفال الصغار يفهمون أن «المشاهدة هي خير معرفة»، بل يمكن التواصل معهم من خلال اللغة في سن مبكرة نسبيا، في حين فشلت كل القروود التي تم اختبارها في ذلك. وهناك علاقة بين الكفاءة اللغوية لدى الأطفال وقدرتهم على التعبير عن ذلك بطرق أخرى غير اللغة.

نتيجة لهذا الاعتماد على اللغة، تحولت التجارب إلى رصد حركات تتبع العين بدلا من الاستجابات اللفظية، مع هذه المنهجية، يمكن أن نثبت أن الأطفال الذين تبلغ أعمارهم خمسة عشر شهرا يمكن أن يفهموا بالفعل معتقدات الآخرين، إذ غالبا ما يملك البشر في كثير من الأحيان معرفة ما يعتقد شخص آخر، هي المعرفة من الدرجة الثانية غير أنها يمكن أن ترتقي إلى معرفة عليا، هي المعرفة التي تتجسد في شكل اعتقاد، لذلك غالبا ما نصدر من خلال ذلك العديد من الأحكام من قبيل «إنه طفل ذكي جدا»، فالقدرة على ترتيب المعتقدات تشكل أساس المعتقدات المشتركة، والتي غالبا ما تكون مجتمعة.

وتستغل هذه المكونات الستة في التطور الذاتي - المشترك التي أشرنا عليها هنا في التواصل الإنساني، اعتبارا أن أهميته تظهر في نمو الأطفال، وبدرجة أقل في إدراك الكائنات غير البشرية، مما يوحى بأنها لعبت دورا هاما في تطوير الجهاز الذاتي لدى البشر.

٤ - التصورات: أوليات الاكتساب وبداية تأويل العالم

تدفعنا مسألة اكتساب التصورات، باعتبارها العملية العامة المتدخلة في بناء القدرات الذهنية والتصورية إلى الحديث عن الوظائف الذهنية والعقلية التي يمثل الجهاز العصبي عند الإنسان مقرّها الرئيسي والأول. وعلى هذا الأساس، إلى الاصطدام بأخطر مشكلة معرفية واجهتها ولازالت تواجهها اللسانيات المعرفية، ذلك أن الدماغ الذي يتجاوز عدد خلاياه العشر المليارات والتي تشابك فيما بينها بشكل غير معروف، قد أدى بعلماء البيولوجيا إلى القول: «إننا لا نملك حول هذه العلبة السوداء سوى بعض المعارف الجزئية والتي لا يمكن أن تصلح للتطبيقات العلمية»^(١).

وإذا علمنا، بالإضافة إلى هذا، أن الإنسان لا يوظف من طاقة دماغه سوى ٣٪، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدّة هو كيف يمكن لدارس لا يملك سوى الكم اليسير من إمكانياته العقلية أن يدرس ويفهم الوظائف الحقيقية لدماغه؟

قدمت اللسانيات المعرفية برنامجاً محكماً لوضع الأسس والأهداف الرئيسية من البحث في شروط الاكتساب. إذ تبين للباحثين (لانفاكير، ايفانس، كراندفور)، أن المعطى القائل بأن الخاصية المعرفية للغة هي ظاهرة فطرية طبيعية غير خاضعة للمؤثرات المحيطة بها، إنما هو اعتقاد خاطئ. وما يزيد من تأكيد هذه الطروحات هو ما أثبتته البحوث الطبية التي أنجزها بروكا (Broca) وكارل فيرنيك (Carl Wernicke) على الجهاز العصبي للإنسان؛ إذ بينت وجود الكثير من الأنشطة التي تنتبأ من خلالها باكتشافات تشريحية جديدة في اللسانيات البيولوجية والمعرفية، وذلك لكشف البنية البيولوجية للمقدرة اللغوية عند الإنسان.

ينصب اهتمام الكتاب بمسألة الاكتساب عند الأطفال عبر الكشف عن الخرائط

(١) G. Lonterié (1987): le cerveau , collection clefes, ed , segher , Paris , P.52.

المطبقة على البنية التصورية للكائنات البشرية، بمعنى أدق، أن الهدف الأول والأخير من البحث هو دراسة العلاقات القائمة بين الخرائط العامة للمعجم الذهني وبين الوظائف المتدخلة في بناء النسق اللغوي على مستوى الدماغ البشري.

الحقيقة أنه لا يمكن لمتخصص في اللسانيات المعرفية أن يدرس الأسس المعرفية للغة دون دراسة الأسس الدقيقة لطبيعة البنية اللغوية نفسها، وبنية اللغة هي نسق معقد ينطلق من معرفة المراحل الطبيعية للتطور اللغوي عند الطفل، بمعنى كيف يبدأ الطفل في تكوين تصورات؟ وهل التصورات سابقة عن اللغة أم أن اللغة سابقة عن التصورات؟ ما هي العوامل المختلفة التي تتحكم في العملية اللغوية عند الطفل؟ ما هو دور النسيج الاجتماعي في تكون البنية اللغوية عند الأطفال؟ كيف يمكننا قياس درجة التطور المعرفي للغة عند الأطفال^(١).

٤ - ١ - هندسة المعجم الذهني

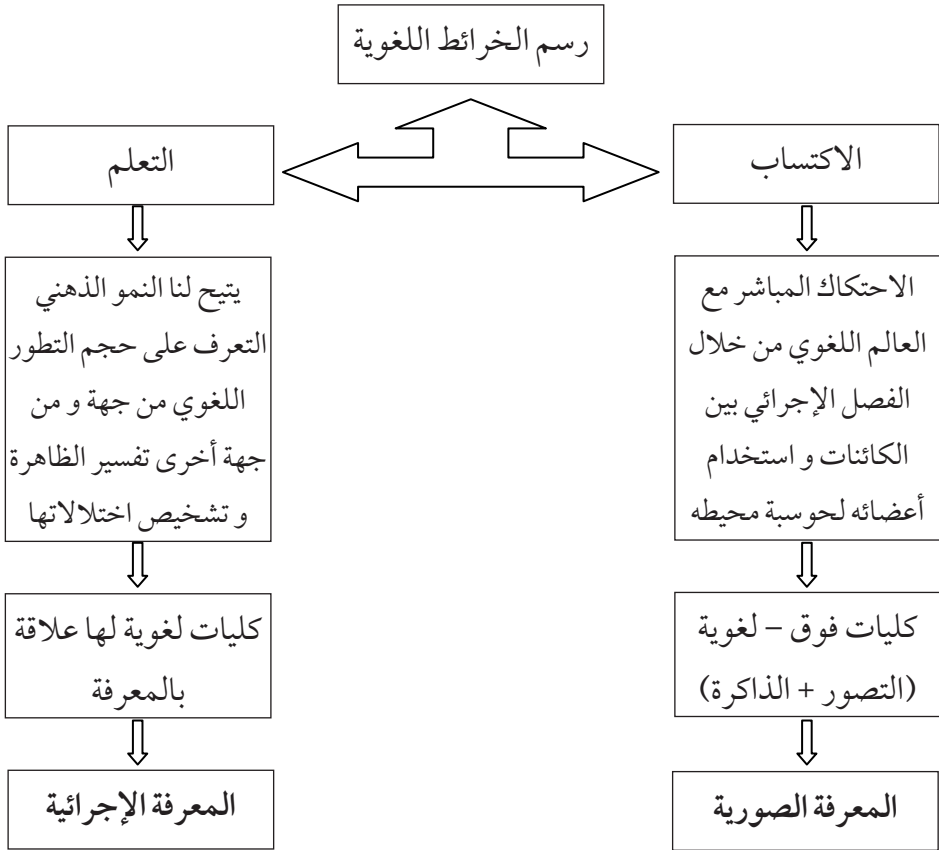
لقد ساد الاعتقاد القائل إن الطفل يولد وهو لا يعرف أي شيء، أي أنه يكون عبارة عن صفحة بيضاء وأن البيئة هي التي تعلمه ما ترغب فيه (التصور الوضعي)؛ أو أن الطفل عندما يولد يكون يعرف كل شيء، وأن ما يظهر من أشكال الاكتساب والتعلم، ليس سوى توظيفا لتلك المعرفة التي يولد مزودا بها (التصور العقلاني). أما التصور المعرفي فيقف في منزلة أن محتوى التعلم ينبغي أن يكون ملائما لمستوى نمو العمليات الذهنية. فالملكة المعجمية ملكة فطرية، مرتبطة بالإنجاز اللغوي والمؤثرات، فهو ملكة فطرية

(١) تندرج دراسة الاكتساب اللغوي في مجال يسمى حاليا باللسانيات النفسية، وهو مجال مشترك بين علم اللسانيات وعلم النفس، ويعالج المسائل النفسية والبيولوجية التي يتضمنها استعمال اللغة، ويتناول العلاقات النفسية القائمة بين حاجات التعبير والتواصل عند الأفراد، ويبين الوسائل اللغوية التي توفرها اللغة لإشباع هذه الحاجات. فهذا مجال يبحث، بشكل عام، في المسار العقلي القائم ضمن اكتساب اللغة واستعمالها.

تكتسب وتتعلم عبر جهاز البيولوجي المسؤول عن القدرة والملكة اللغوية. فأهمية البنيات الذهنية ذات غاية قصوى لوصف موضوع المعرفة، لأن الموضوع لا يستوعب إلا في الحالة التي تسمح بذلك درجة نمو البنية الذهنية. ولتقريب المسافة ارتأينا أن نطلق من ملاحظة أساسية هي أن الإنسان يملك قدرة هائلة على تذكر آلاف الكلمات، لكن مع ذلك نجد أنفسنا محاطين بعدد من الأسئلة الجوهرية: كيف تتم عملية تخزين الكلمات في الذهن؟ وكيف تتم عملية استرجاعها (Retrieval) من الخزان الذاكراتي عندما نحتاجها في سياق الاستعمال؟

إن المراحل الأساسية في النمو الذهني للفرد تشترط بشكل أساسي أن نبدأ من مرحلة الاكتساب، وهي مرحلة غير لغوية بالدرجة الأولى، بل نتصور أنها مرحلة ذات بعد تصوري من خلال بداية الرضع لاكتشاف العالم المحيط بهم، وهي تداعيات لا يمكن رصدها إلا من خلال تحديد كافة الإمكانيات السلوكية والذهنية التي يستطيع إنجازها في كل مرحلة، مع إمكانية وضع تفسيرات والتأويلات ممكنة باعتبارها محاولات فهم ما يجري داخل ذهنهم والعمل على قراءة سلوكياتهم قراءة جيدة للسيطرة على الوضع التواصللي بكل حكمة، فالغاية الكبرى هي قراءة المقصود من ملامح الوجه والبكاء والصياح والأنين... وهي تداعيات غير لغوية لكن نستطيع وفقها أن نفكك شفراتها والتواصل معها بشكل جيد، بمعنى نستطيع أن نفهم أن أنين الطفل ليس وضعاً للمرح، ونستطيع قراءة ملامح الوجه بشكل نفهم من خلاله مقصود الطفل عند الضحك وعند البكاء وعند الاستغراب... وهكذا. وعليه فإن الطفل ينتقل بسرعة خلال نموه الذهني الطبيعي من المعرفة الصورية إلى المعرفة الإجرائية، وهو انتقال مخيف ومثير يدعونا إلى محاولة استقراء التجارب المعرفية التي استفادت بشكل مباشر من الخلاصات التي قدمتها اللسانيات عبر كل مراحل تطورها، بل إن ذلك يتجاوز حدود اللسانيات نحو الاستفادة من المعرفة الطبية والبيولوجية والنفسية.

فعندما نقول إنه لا يجوز أن ننظر إلى الرضع نظرة سلبية، فلأن حياته اللغوية تقوم على عزل الكائنات بعضها عن بعض عبر المزيغ بين اللعب على الأرض، واستخدام الجسم، الرأس واليدين والعينين. هو العزل الذي نزكي من خلاله الافتراض الذي يقول إن التصورات تكون سابقة على اللغة، وحينما يكتسب الطفل اللغة فإنها تلعب وفق ذلك دورا خطيرا في تفعيل التصورات وتطويرها بشكل محير فعلا. ولرصد ذلك نتأمل الخطاطة التالية:



الشكل ٤: رسم الخرائط اللغوية

يدفعنا هذا إلى ضرورة استحضار مفهوم «الصورة الذهنية» كما وردت عند «بياجي» من أجل وضع تفسير لطبيعة ودور الصور في بناء الأنساق اللغوية عند الأطفال؟ فإذا كان المشكل العام الذي انطلقنا منه ذو بعد معرفي، فإن ذلك سيدفع نحو اعتبار «قضية الصورة» مهمة جدا في فهمنا الدقيق لمساهمتها في تكوّن العمليات المعرفية»^(١)، إلا أنه ما يمكن أن نؤكد عليه أن التمثلات التصورية لا تتكون بنفس السهولة، هناك مستويات هندسية بحيث يسهل علينا تحليلها تكوينيا»^(٢) هي التمثلات التي تنطلق من معطيات المحسوس عبر الاحتكاك المباشر مع المحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الطفل، بحيث يقدم الكثير من المعلومات اللغوية التي يتم تخزينها وفق برنامج خاص، إلا أن هذه التمثلات سرعان ما تتحول إلى كلمات وجمل عبر عملية الملء الدلالي الذي يتيح للطفل فرصة صياغة عالمه اللغوي الخاص، إن العلاقة التي تشكل بها اللغة لها عناصر متدخلة بشكل مباشر في عملية التكوين، المحيط الاجتماعي والثقافة والعشيرة اللغوية وطبيعة التنشئة كلها عوامل مساهمة في بناء التصورات وتمثلاتنا حول الأشياء التي تحيط بعالم الطفل، بمعنى أن الطفل في هذه المرحلة هو مختبر دقيق نحلل من خلاله عناصرنا الأولى في التكوين اللغوي. ونحن إذ نؤكد وفق ذلك على مسألة مهمة جدا هي أن التصورات والفكر يوجدان قبل اللغة، بمعنى أن اللغة ليست هي الفكر، لكن بمجرد أن تدخل اللغة على التصورات فإنها تلعب دورا خطيرا في الكشف عنها وتطويرها.

والملاحظ أن دراسة الطاقات اللغوية دراسة معرفية تجريبية، قد أتاحت لنا صياغة مجموعة من الفرضيات التي ساهمت إلى حد كبير في وضع نظرية اكتساب اللغوي على خط التطور الذي تعرفه اللسانيات المعرفية بصورة أساسية، خصوصا

Piaget J.: l'image mentale , puf , P. 2. (١)

Piaget J.: l'image mentale , puf , P.12. (٢)

فكرة بناء المعجم اللغوي عند الأطفال، فهي مسألة تحتاج منا التدخل السريع لكي نعيد النظر في بعض المنطلقات التي نراها غير موفقة بشكل كبير في دراسته، فلا يمكن أن نسلم كون المعجم اللغوي ليس معجماً ذهنياً، كما لا يمكن أن يكون المعجم تصورياً من حيث النشأة، فمرحلة بناء المعجم الذهني هي مرحلة تصورية بالدرجة الأولى قبل أن تتبلور في قوالب لغوية ممنسقة بشكل متواضع عليه من طرف الجماعة اللغوية، فنحن مفطورون للتعامل مع الآخر والتعايش معه وفق منطلقات بيولوجية مستمدة من الطبيعة، فالإنسان كائن تصوري بفطرته واجتماعي بطبعه.

٤ - ٢ - دور المعرفة الدلالية في الاكتساب اللغوي

تخبرنا نظريات الاكتساب والتعلم أن الأطفال يتعلمون لغتهم بناء على معرفتهم المحدودة لبعض الكلمات «(المعجم الذهني) ويدوون في وضع هذه الكلمات داخل تراكيب معينة ومحددة ومضبوطة، والأهم أنهم بتركيبهم للكلمات يحاولون أن يوصلونا معهم إلى بناء معنى معين يبحثون عنه، أما إذا لم يتوقفوا في معرفة الكلمات فإنهم لن يتوقفوا في بناء أي نوع من التواصل في جميع النقط التي تقود نحو بناء الجملة أو التركيب، وعليه يمكن أن نؤكد أن المعرفة الدلالية تبقى مهمة جداً من المعرفة النحوية في تعليم الأطفال للغة، إذ يمكن أن نساير في هذا أن اكتساب السمات الدلالية يكون كونياً بفضل الأنشطة المعرفية (Cognitive activities) التي يمتلكها الأطفال جميعاً، ذلك أن السمات التي تحدد وفق الإدراك الحسي هي التي تدفعنا نحو الخوض في منطق التطابق بين السمات الإدراكية والسمات الدلالية اللغوية، قبل أن يخضع ذلك إلى منطق التوسع الدلالي (الإبداعية) (Creativity)، ف «قطُّ» مثلاً يختزل في البداية في شكل صوت، وهي سمة إدراكية سمعية ثم يضاف إليها سمات أخرى مميزة: [صوت] + [ذيل] + [أليف] + [لاحم] + [كائن حي]... ممّا يحيلنا مباشرة نحو تقريب صورة اكتساب السمات الدلالية إلى اعتبار مفهوم الكلمة هو خرج (Output) يجمع

في التطابق المنطقي بين السمات الإدراكية والسمات الدلالية^(١). وعلى هذا الأساس سنجد أنفسنا أمام محك لغوي دقيق يستفز معارفنا ويزيد من حجم القلق اللغوي والإزعاج الفكري الذي ظل لعقود يمجّد التركيب ويعتبره أهم حلقة في البحث اللغوي واللساني بشكل عام.

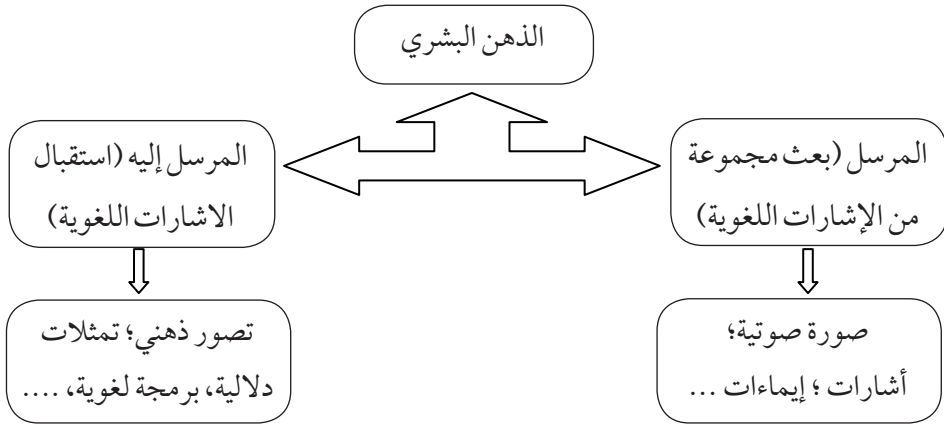
ما يزيد من التأكيد على أهمية المعرفة الدلالية في خلق الاكتساب هو أنه يمكن لمتعلم لغة ما أن يتواصل مع المحيط اللغوي حتى وإن لم يكن على دراية كافية باللغة، فمعرفة بعض الكلمات تكفي لخلق نوع من التواصل دون معرفته لطبيعتها ولا خصائصها التركيبية والمعجمية... بل إن أول ما يبحث عنه الطفل هو ماذا تعني كلمة ما؛ لكي يستثمر في ذلك من أجل بلوغ الكفاية التواصلية المنشودة، لكن عندما يعجز تماما عن معرفة أي كلمة من كلمات لغة أخرى فإنه بإمكانه أن يتواصل بالإشارات والإيماءات للبحث عن المقصود ومنه البحث عن المعنى، وعليه يمكن أن يحصل التواصل دون وجود لغة مشتركة، فأنظمة التواصل تظل فعالة بشكل كبير حتى عندما تنقطع جميع السبل اللغوية المشتركة.

إلا أن الحلقة الوحيدة، في نظرنا، التي تجمع بين جميع لغات العالم هي المعنى باعتباره خامّة كلّية لا تعترف بالحدود اللغوية المترامية هنا وهناك، فالمعنى مؤسسة شرعية لكل المداخل المؤسسة للاكتساب والتعلم، بل إنه الوسيلة الوحيدة التي توحد بين كل لغات العالم من منطلق أن القضية العامة التي شغلت الدالّيين عبر تاريخ اللغة هي الكيفية التي تتشكل من خلالها العلاقة بين اللفظ والمعنى بقطع النظر عن طبيعة الدوال والمدلولات، مع ذلك يمكن أن نزيد على ذلك هو تجاوزنا في بناء المعنى لهذه العلاقة بالوقوف عند الإشارات والإيماءات والرموز باعتبارها معاني لا تتمظهر صورها

(١) للمزيد من التوضيح يرجى الاستعانة بمقال «المعنى في الاكتساب اللغوي» لمحمد صالح بن عمر، ضمن كتاب المعنى وتشكله ج١، الصادر عن جامعة منوبة، ٢٠٠٣ ص، ١٨١.

في شكل ألفاظ. ليغدو المعنى الضامن الوحيد للاستمرارية بين أنظمة التواصل اللفظية وغير اللفظية، مما فرض على النظرية الدلالية أن ترفع من وثيرة المعطيات المعرفية لكي تستبين الآليات الذهنية التي تساعد في بناء الأنساق اللغوية بشكل كلي^(١).

عندما نتحدث عن أنظمة التواصل التي ترتبط بالمعنى، فإن ذلك سيقود حتما نحو منعطف جديد في العملية التواصلية، هو المنعطف الذي يتجاوز ضرورة وجود لغة في العملية، ويتجاوز ضرورة التقييد بجهاز مفاهيمي وتصوري مشترك في تحقيق العملية، بل إن العملية كلها ترتبط وفق ذلك بنظام جديد تتكفل بإنجازته القدرات الذهنية والبرمجة اللغوية التي تكون عند المرسل، كما يفترض أن يتمتع المرسل إليه بقدرة عالية من الكفاءة والإبداعية من أجل فهم الرسالة وبرمجتها وفق متطلباتها الدلالية. بمعنى أن النظام المتحكم في بناء النسق التواصلية لا يقف عند اللغة فقط، بل يتجاوزها نحو المعنى وتجلياته في / على الذهن.



الشكل ٥: تصميم الذهن البشري

(١) لقد سبق لدي سوسير أن ميّز بين اللسان والعلامة وأكد أن اللسان عبارة عن لغة مكونة من نظام اجتماعي للعلامات، في حين أن العلامة ما هي إلا خطاب فردي يتجسد في علامات لغوية أو منتجات جماعية تتمطر قوتها في التفاعل الذي ينتج عنه علاقة تواصلية بين البشر، وهي إشارات قوية تؤكد أن البحث في دلالة العلامة يبقى مهما جدا في نسج علاقة تواصلية ناجحة.

من المؤكد أن نشير أن تمثل الطفل للمعنى يعود بالأساس إلى تخطيط لغوي عام، هو التخطيط الذي يجعل من دلالة اللفظ أو المعنى تكون عنده على شاكلة تصورات ذهنية مستقاة من طبيعة الاحتكاك اللغوي مع العشيرة اللغوية التي ينتمي إليها من جهة، ومن جهة أخرى بطبيعة التجربة الخاصة والتفاعل اللغوي المشترك الذي يؤلف في النهاية تشكلا لغويا خاصا اسمه الطفل. فكلمة (شجرة) بالنسبة للطفل هي مجرد مخطط لا تستقيم دلالاته إلا من منطلق الملء المحتمل بالمقولات التي تنتمي إلى واقعه الخاص. وبالتالي فإن الأطفال بشكل عام يملكون ما يكفي من المعلومات اللغوية التي تساعدهم في بناء نسقهم اللغوي الخاص، وهذه مؤشرات كبرى تدفع نحو التأكد أن التراكيب اللغوية التي يستعملها الأطفال في بناء نحوهم الخاص لها علاقة بطبيعة المعرفة الدلالية التي تجمع في هذه المرحلة بين التصور والمعنى.

ولنا أن نتخيل حجم النجاح المعرفي الذي تحققه المقاربة الدلالية في هذا الموضوع، خصوصا عندما نفهم أن الطفل عندما يبني تصورات عن عالمه الخارجي، ثم يربط تلك التصورات بدلالات خاصة، بعد ذلك تتحول الحصيصة إلى تراكيب وجمل، فإن كل هذا يزيد من التأكيد أن أول ما يعرفه الأطفال عن عالمهم اللغوي هي تصورات عن الأشياء، وهي نفسها التي تتمظهر في شكل تصورات، فالإنسان بهذا المعنى يملك قدرات معرفية، وهي القدرات التي تنزل منزلة الوجاهات التي تربط التصورات بنسق الفكر (المقاصد، النوايا، المخططات...) فالإنسان كائن قصدي له نسقه خاص يوظف كل ما شأنه أن ينقل الأفكار والتصورات إلى بنيات إجرائية.

خاتمة

حاولنا في هذا الفصل أن ننطلق من افتراض أن تنظيم المعلومات في أذهاننا مبرمج في شكل عمليات هندسية أو الطبوغرافية، وهو الافتراض الذي حاولنا أن ندافع عنه من منطلق استحضار الأدبيات التي رافقت ظهور اللسانيات المعرفية، بمعنى أننا

ركزنا بشكل كبير على الأسس المعرفية التي تراكمت طوال سنوات طويلة من البحث اللساني من أجل الدفع نحو بناء مقاربة لسانية جديدة، وقد اعتمدنا في ذلك على مجموعة من المعايير التي بدت في نظرنا مهمة لقيام نظرية دلالية قوية، قبل أن نتجه نحو منطلق المعرفة اللسانية وطرق تكوينها سواء من جانب الاكتساب أو من جانب التعلم. لنكتشف في نهاية المطاف أن المعرفة اللسانية هي عبارة عن هندسة بيولوجية متداخلة المعالم تساعد على برمجة اللغة عند الأطفال، سواء في مرحلة الاكتساب أو التعلم. إلا أن هذا التدرج تحكمه معايير منهجية محددة، هي المعايير التي تتحكم في بناء الدلالة المعرفية وتوزيع الأفكار المثبتة، حتى تتمكن بموجب ذلك من بناء مسار منهجي محكم يضبط النتائج ويسائل الخلاصات.

الفصل الثاني

الدلالة المعرفية ونظرية الفضاءات التصورية

تقديم

من المهم بالنسبة لي شخصيا أن أوضح أمرا أجده غاية في الأهمية هو أن بناء المعرفة لا يعني الإيمان المطلق بحقيقة الأشياء كما تراها وتتصورها، فكون الإنسان يعرف أن الجمع بين واحد وواحد يعطينا ما حصلته اثنين، وأن الرباط هي العاصمة الإدارية للمغرب، وأن الحرية هي أن نقوم بكل ما نرضاه، وأن العدالة حق من حقوق الإنسان... الخ، فلو افترضنا أن هذه المعارف ثابتة بالنسبة للحقيقة، فإن الأمر سيغدو مختلفا بعض الشيء لو بحثنا في المشترك الذي يربط بين كل تلك المعارف، بمعنى أننا سنجد أنفسنا أمام نوع جديد من المعرفة لها علاقة بالرياضيات والجغرافية والسياسة والحقوق والأخلاق... ونحن إذ نعلم أن هذا من اختصاص علم المعرفة - الاستملوجيا - فإن ما يمكن أن نستفيد منه هو أن بناء المعرفة سيرورة متحوّلة ترتبط بنمو المعارف في الذهن البشري، وهي محاولة لنقل المعطيات من الاستملوجيا إلى اللسانيات، على اعتبار أن القاسم المشترك بينهما هو ميدان الذهن البشري، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا يوجد تمايزات بينهما لعلّ أهمّها هي محاولة اللسانيات إخراج المعرفة من طابعها التجريدي إلى الطابع الإنجاز. وبالتالي فمن الأهمية بمكان أن نؤكد أن اهتمام اللسانيات بهذا المجال جاء وفق سياق نرصد أهميته من خلال التحولات التي رسمت الدرس اللساني بعد التوليدية.

١ - تحولات الفكر اللغوي

تعدّ اللسانيات المعرفية اتجاها لسانيا جديدا نشأ من منطلق الدعوة إلى البحث

عن الإجابات المحتملة للأسئلة التالية: كيف نفكر؟ كيف نتمثل العالم؟ كيف نكتسب المعرفة ونخزنها؟

في إطار الإجابة عن هذه الأسئلة يجب في البداية أن نقدم لمحة عن السياق التاريخي الذي مرت منه اللسانيات حتى وصلت إلى محطة اللسانيات المعرفية، فالبداية كانت مع اللسانيات البنيوية التي تم التركيز فيها على مسألة بنية الكلمة من خلال رصد المستويات العامة التي تتحكم في بناء الكلمة، فاستقام هذا الاتجاه مع الدراسة العلمية للغة التي تتخذ من اللغة موضوعا لها ومن المنهج الوصفي طريقا تحليليا للوصول إلى البنية العامة المتحكمة في النسق اللغوي بشكل عام.

اتسمت المرحلة الثانية من هذا التطور بظهور اللسانيات التوليدية التي انتقدت بشدة الاتجاه الأول عبر تحويل مسار البحث اللساني من مستوى التركيز على البنية اللغوية إلى مستوى الوصف الصوري الرياضي للغة من منطلق التركيز على مستويات توليد البنى، لذلك فإن المشروع التوليدي هو مشروع يحاول أن يطرح مقارنة لبناء نظرية عامة لوصف الملكة اللغوية.

بعد اللسانيات التوليدية وما راكمته من نتائج ومعطيات كان من اللازم أن يتحول مسار البحث اللساني من مستوى الوصف الصوري للغة إلى مستوى وظيفة اللغة، فركز هذا الاتجاه على المؤثرات التي تساهم في بناء الأنساق التواصلية من زاوية اعتبار أن وظيفة اللغة الكبرى هي التواصل وليس وصف ما يدور في ذهن البشري.

عندما طرحت مسألة الذهن البشري، ومحاولة التوليديين الإجابة عن سؤال كيف نكتسب اللغة؟ وكيف نفكر؟ فإن الإجابة الصورية لم تكن كافية للإجابة عن ذلك، فكان من الضروري أن ينتقل المسار اللساني من التركيز على الوظيفة إلى التركيز على المعرفة، عبر التأكيد أن المعارف المكتسبة اختيارية وموجودة فينا بالقوة وليس

بالفعل، وهي مشتركة عند الكل، وعليه نجد أنفسنا أمام محاولة لفهم المعرفة من منطلق اعتبارها مجموع الأنشطة والسيرورات التي بواسطتها يكتسب جسم معين أو جهاز لغوي المعلومة ويعالجها ويخزنها ويستعملها^(١). بمعنى أن أصل الاشتقاق هي بنية حملية دلالية وليس البنية بمفهومها البنيوي كما طرحت مع التوليديين والبنيويين^(٢).

إذا كان معظم اللسانيين المعرفيين هم في الأصل توليديون، فإنه من واجبنا أن نشرح هذا الانتقال من خلال الوقوف على المسلمات أو المنطلقات التي دفعت بهؤلاء إلى تغيير الوجهة، على اعتبار أن النحو التوليدي أسس مشروعه العلمي على منطلقات أهمها:

- اللغة هي نسق من الخورزميات؛

- اللغة نسق فطري ومستقل عن القدرات المعرفية الأخرى، وتحليله يتم في استقلال عن الاهتمامات المعرفية بالمعنى الواسع للكلمة؛

- اختزال مفهوم النحو بالمعنى الواسع في التركيب باعتباره مكونا توليديا ومركزيا ومستقلا، أما المكونات الأخرى فمجالها هو الهامش؛

- لا يتم وصف البنية التصورية للغة إلا من منطلق ما صدقي / صوري.

- اعتبار أن وظيفة اللغة هي التعبير عمّا يوجد في الذهن.

في مقابل هذه المسلمات، فإن اللسانيات المعرفية حولت سياق البحث اللساني من البحث في العلوم المعرفية إلى اللسانيات المعرفية إلى الدلالة المعرفية، وهي تحولات التي رسمت لمنطلقات جديدة لعل أهمها:

(١) العزاوي أبو بكر (٢٠١٨)، الفضاء في اللغة، محاضرة أقيمت في إطار الأنشطة الدورية لجمعية اللسانيات بالمغرب، جامعة محمد الخامس، الرباط

(٢) يفسر هذا الأمر أن معظم اللسانيين المعرفيين هم في الأصل كانوا توليديين من أمثال: لايكوف؛ فكوني؛ لانفاكير؛ بوركاي؛ تالمي....

- اللغة ليست ملكة معرفية مستقلة (يعني تداخلها المستمر مع الإدراك)؛
- النحو هو العمل على نقل التصورات والمقولات؛
- ارتباط المعرفة اللغوية بالتجربة المنبثقة عن الاستعمال؛
- اللغة نسق فطري مستقل؛
- التركيب غير مستقل عن الدلالة^(١)؛
- لا يوجد المعنى في الذهن «فقط».

لا تطرح اللسانيات المعرفية نفسها كنظرية بديلة أو مناقضة للسانيات التوليدية أو غيرها، لكنها تموقع نفسها ضمن مقارنة من بين المقاربات التي تسعى إلى تدعيم البحث اللساني عبر فتح أفق جديدة للبحث والمساءلة، لذلك نجد أن تركيزها انصب حول مسألة البحث في المعنى، بمعنى أنه إذا كانت اللسانيات المعرفية تبحث في المعنى، فإن تشكل المعنى في الدلالة المعرفية مرّ، إذن، عبر مراحل عامة تأسست وفق أبحاث لسانية توائم بين الدلالة وباقي التصورات الأخرى المشكلة له:

- علم الدلالة هو نظرية للمقولة لكونها تؤسس لممارسة إدراكية؛
- علم الدلالة هو نظرية في الفهم لأنه لا بد من الذاتية لإدراك المعنى الموضوعي؛
- علم الدلالة هو نظرية في التصور لأن الجزء الأكبر من نظامنا اللغوي هو تصوري لأنه يرتبط بفهمنا للعالم وإدراكه؛
- علم الدلالة هو نظرية في المعنى على اعتبار أن فهمنا للعالم وإدراكنا له لا يتأسس إلا من خلال تجربتنا مع المحيط، فمكان الإدراك وزمان الإدراك ومسافة الإدراك وطريقة الإدراك وزاوية الإدراك هي التي تحدد طبيعة المعنى.

(١) العزاوي أبو بكر (٢٠١٨)، الفضاء في اللغة، محاضرة أُلقيت في إطار الأنشطة الدورية لجمعية اللسانيات بالمغرب، جامعة محمد الخامس، الرباط

سيكون من الطبيعي أن تتخذ اللسانيات المعرفية موضوعات محددة للدراسة والتحليل، هي الموضوعات التي تنطلق من دراسة اللغة كظاهرة ذهنية، بمعنى أن نموضع اللغة في سياق الوسيلة التي نفهم من خلالها طرق اشتغال الذهن وليست غاية في ذاتها كما فعلت باقي النظريات اللسانية الأخرى، لذلك فإن الموضوعات المنسجمة مع هذا الطرح هي الذاكرة، والاستعارة، والمقولة، والمجالات، والحركة، والزمن، والفضاء...

عندما نقول إن اللغة ظاهرة ذهنية فهذا يقدم لنا دليلاً على أن وظيفتها الأساسية هي تقوية الجهاز العصبي، وهي خاصية مميزة للإنسان عن باقي الثدييات الأخرى، فامتلاك الإنسان لهذه الخاصية هو الذي دفعه إلى تطوير لغته على حساب باقي الكائنات الأخرى، واللغة معرفية من هذه الزاوية لأنها تربط بين أدمغة مختلفة، فهي تعزل في أذهاننا بشكل نسقي ومحوسب على اعتبار أن الذكاء الفردي هو جزء من الذكاء الاجتماعي، بمعنى أن أي تواصل أو ترابط لغوي هو في حقيقة الأمر تقوية للترابط العصبي، وبالتالي فالقدرة النحوية هي قدرة تواصلية بالأساس. فنحن فانون واللغة باقية^(١).

٢ - نظرية الفضاءات التصورية: هندسة جديدة للمعنى

كلماتنا تعبر عن تصوراتنا. وبالتالي ينبغي على النظرية الدلالية أن تقوم على نظرية التصورات، فنحن لا نركز في بناء ذلك على مساحة الذهن ولكن على هندسته، معتمدين في نمذجة ذلك على نظرية الفضاءات التصورية كما تصورها «كارادنفور» (Gärdenfors، 2000). وفكرتها المركزية هي أن المعاني التي نستخدمها في التواصل تنتظم في إطار بنيات مجردة يتم التعبير عنها من خلال الأبعاد والمسافات والمناطق ونقط هندسية أخرى.

(١) محمد صلاح الدين شريف (٢٠١٨)، المحاضرة الافتتاحية بالمعهد العالي للغات بنابل تحت عنوان [إن-ك] ملامح وأبعاد، في إطار الندوة الدولية التي حملت عنوان اللغة نظاماً عرفانياً، يناير ٢٠١٨.

٢ - ١ بناء الفضاءات التصورية

يتم بناء الفضاءات التصورية من أبعاد النوع كدرجة الحرارة والوزن والحجم والقوة، مع العلم أن الدور الأساسي للأبعاد هو تمثيل «الصفات» المختلفة للأشياء بقطع النظر عن مجالات انتمائها، بعض الأبعاد تأتي، مما نسميه المجالات، مثلا من الفضاء (أبعاد الطول والعرض والعمق)، أو اللون (هوى، والتشبع، والسطوع)؛ أو الطعم (ملح، مر، حلو، وحامض...)؛ العاطفة (الإثارة والقيمة)، وترتبط هذه الأبعاد ارتباطا وثيقا بما ينطوي عليه الإدراك. ومع ذلك، هناك أيضا أبعاد التي هي ذات طابع مجرد، لا معنى لها. وينبغي أن يفهم البعد فهما حرفيا؛ إذ يفترض أن كل بعد له بنية طوبولوجية أو هندسية خاصة من جهة ومتميزة عن البقية من جهة أخرى. وكمثال أول، نأخذ البعد الزمن، يأخذ البعد الزمني بنية ذات بعد واحد متماثل مع خط الأعداد الحقيقية، إذا اعتبرنا الحاضر يُؤشر إلى نقطة الصفر على الخط الزمن، ومستقبل يتوافق مع الخط الحقيقي الموجب، والماضي مع الخط سلمي^(١)، في المقابل ذلك، فإن بُعد الوزن له تماثل مع الخط الموجب؛ بسبب عدم وجود الأوزان السلبية. وهي تداعيات يمكن رصدها بشكل واضح عندما نحول هذه الفضاءات التصورية إلى مجال اللغة، فننتج عبارات موافقة لذلك، فتصورنا للماضي بعدد سلمي لأنه فات يمنحنا قدرة التعبير عنه بتراكيب خاصة، والأمر نفسه بالنسبة لتصورنا للحاضر والمستقبل، لكن يبدو الأمر مختلفا عندما نتحدث عن الأوزان إذ لا يستقيم التركيب اللغوي فيها إلا من خلال الإحالة عليها بأعداد حقيقية لانعدام التصور المحيل على الرقم السلمي فيها، وهي التراكيب التي يمكن نسجها على الشكل التالي:

٣٥ - نقصت عشرون سنة من عمري

(١) للتوسع أكثر في مسألة الأبعاد الزمنية في اللغة العربية يرجى العودة إلى الفصل الثاني من مؤلف البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية من اللغة إلى الذهن، لعبد الكبير الحسني، الصادر عن دار كنوز، ٢٠١٥.

٣٦- كلما كبرت سنا زادت سنوات عمري

٣٧- لا يهمني إلا اللحظة التي أعيشها الآن

٣٨- ازداد وزني خمس كيلوغرامات

٣٩- نقص وزني خمس كيلوغرامات

تسمح لنا الهندسة أن نتحدث عن تصور القرب والبعد في الفضاء، هو التصور الذي يبني على المماثلة بين نقطتين مرجعيتين داخله، فالتأويل هو أنه إذا كان نقطة «أ» أقرب من نقطة «ب» بدلا من نقطة «ج»، فإن «أ» هي الأكثر مماثلة من «ب» منها من «ج». اعتبارا أن علاقات التشابه بينهما يجب أن تكون هامة في تمثيل التصورات. وستكون علاقات التشابه مهمة في تمثيل التصورات. إذا كان من المفترض أن المجال يحتوي على مقياس يمكن المرء أن يضع أرقاما للمسافات في الفضاء، فإن تحديد المسافة بين القرب والبعد تخضع لمقياس المسافة بين ذواتنا والنقط المرجعية التي نحيل عليها، ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن للأمر أن يكون معمما على جميع المسافات. فالمنطق الأساس لهذه العلاقة يتجلى في رسم خطاطة لا متوازية وغير منعكسة، لأن «أ» ليس جزءا من «ب» والعكس صحيح، فلا يمكن أن نتحدث عن البعد/ القرب إذا لم تكن كل أجزاء مرصودة؛ لهذا نؤكد أنه إذ رصد البعد/ القرب من مكان «أ» فإن الأجزاء ستكون على المسافة نفسها في المكان «أ»، إلا أنها علاقة فضائية غير ملزمة ولا ضرورية^(١). على اعتبار أن مشكل رصد المسافة بالمعنى المطلوب

(١) كتب أستاذنا عبد المجيد جحفة مقالا تحت عنوان أجسادنا في الفضاء تولد الاستعارات، مخصصا إيها في البعدين العمودي والأمامي، ضمن الاستعارة والمعرفة، منشورات مختبر اللسانيات والتواصل (٢٠١١)، وهو المقال الذي يقدم العديد من البراهين التجريبية على مركزية الجسد في بناء المعاني اللغوية، وخاصة المعاني الاستعارية، وهو جزء من تيار عام قاده ودافع عنه جونسون (١٩٨٧) الجسد في العقل. لذلك، ولمعرفة كافة التفاصيل المرتبطة بالموضوع والتوسع فيه يرجى العودة إلى المقالين.

يجب أن يقاس وفق آليتي التأويل المعرفي للمسافة والتفسير العلمي للبعد.

من المهم أن نقدم تمييزاً بين التأويل المعرفي والتفسير العلمي لأبعاد، فالتفسير المعرفي يتعلق ببنية الإدراك البشري وبعوالمهم الداخلية. أما التفسير العلمي فيتناول كيفية رصد الأبعاد المختلفة التي يتم عرضها ضمن نظرية علمية. على سبيل المثال، في مجال البصريات، يتم تحديد اللون عن طريق البعد الخطي للطول، في حين أن التمثيل النفسي له فيتجسد في البعد الدائري، على اعتبار أنه عندما ينظر إلى الأبعاد ككيانات معرفية، يجب أن لا تحدد بنياتها من قبل النظريات العلمية التي تحاول إعطاء وصف «واقعي» للعالم من خلال القياسات النفسية والفيزيائية والتي تحدد من جهة أخرى كيفية تمثيل التصورات في أذهاننا، لأن الفكرة الأساس للمجال أنه ينبغي إعطاء معنى أكثر دقة للقيام بذلك، فالأبعاد نوعية بطبيعتها إذ تشكل جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة الأنطولوجية للعالم بكل كياناته، بمعنى أنه لا يمكن تعيين قيمة كيان ما على بُعد واحد دون إعطائه قيمة من ناحية أخرى. على سبيل المثال:

٤٠ - يتدرج اللون من الأبيض نحو الأسود.

يتجسد إدراك اللون من ضرورة إعطاء تصور عنه، إذ لا يمكن إعطاء قيمة لكائن تدرج في لون معين دون أن نعطي معنى آخر لقيمة التشبع (الأسود)، بمعنى أن درجة إدراك اللون هي الوصول بالأمر إلى درجة التشبع، وهو أمر ينطبق بشكل مبسط على مستوى درجة صوت الذي نرفع من وتيرته جنباً إلى جنب مع ارتفاع الصوت خاص بالإنسان. بمعنى أنها أبعاد التي لا تقبل التجزيء ولا تكون قابلة للانفصال (حجم وأبعاد تدرج اللون).

لكن عندما نستحضر المعيار الدلالي في تحلل البنية المعرفية لمجالات الألوان نجد معطيات أخرى يمكن وصفها بشكل مستقل عن الخصائص الأخرى للجسم، على سبيل المثال، فتمثلنا المعرفي للألوان يمكن وصفه من قبل ثلاثة أبعاد: فالبعد

الأول يقوم على مفهوم الهوى الذي تمثله دائرة اللون مألوفة، فالبنية الطبوغرافية لهذا البعد تدفع نحو رصد الاختلاف عن الأبعاد المتماثلة مع الوقت أو الوزن.

أما البعد الثاني فهو مرتبط بما هو نفسي على اعتبار أن تمثنا للون يرتبط بمعيار التشبع، والذي يتراوح ما بين الرمادي (درجة الصفر من كثافة اللون) ثم يبدأ في الزيادة من درجة الكثافة، إذ يمكن تعيين هذا البعد على فاصل زمني.

البعد الثالث هو السطوع، والذي يختلف من الأبيض إلى الأسود، وبالتالي هو بعد متماثل مع خط النهاية.

- درجة إدراك اللون: الهوى ← التشبع ← السطوع

تشكل هذه الأبعاد الثلاثة هندسة لمجال اللون الذي هو فضاء جزئي من فضاءنا التصوري المنسجم مع معايير الإدراك الحسي، والتي ينبغي أن يتم تعيينها وفق الخصائص الفيزيائية التي تمثلها، اعتباراً أن أي خاصية من تلك الخصائص تشكل إشارة ترسل إلى الدماغ الذي يعمل على وضع برمجة خاصة لها، بمعنى أن تمثنا لها يجب أن يتوافق مع التراكيب العصبية داخله؛ بمعنى آخر أن هذه البرمجة تخضع لهندسة منسجمة مع وضع تصوراتنا الوجودي. لذلك فنحن ننظر إلى الأبعاد كبنيات معرفية لا ينبغي أن يتم تعيينها وفق خصائص فيزيائية مختلفة عنها.

نؤكد وفق ذلك أنه من المستحيل تقديم قائمة كاملة عن كل المجالات المشكّلة للفضاءات التصورية للمعرفة البشرية، فبعض المجالات تتطور في مرحلة الطفولة المبكرة. وبعضها الأخر نتعلمه في وقت لاحق في الحياة.

في كثير من الأحيان نتعلم مفاهيم جديدة توسيع من نطاق المسافة التصورية لتقودنا نحو مجالات جديدة، المهم أن معظم التصورات تتسم بعدم الاكتمال ضروري؛ بمعنى أنه يجوز لأحد أن يصف «الوطنية» من خلال رصد عدد من خصائصها، إلا

أن وصفه لن يكون كاملاً، وخير دليل على ذلك هي المسافة التي نقطعها في إدراك المعنى الحقيقي لها، إذ نتصوره في طفولتنا مجالاً يقتصر على نشيد وطني وعلم بألوان محددة؛ قبل أن يتوسع وعاء ذلك ليشمل الهوية والانتماء والأرض... المهم أن بين وطنية النشيد ووطنية الهوية مساحة فضائية تصورية خضعت للتوسع بحكم تطورنا المعرفي، فتكون كل نقط المسافة بينهما معبرة عن حركة فضائية مجردة للوطنية كوعاء ذهني قابل للتطور والتوسع.

فعندما تدعي الدلالة المعرفية أن المعاني كائنة في أذهان الناس. فإنها تتخذ شكل بنيات تصورية تشير نفسها إلى كيانات في العالم الحقيقي. فالدلالة المعرفية تحاول إعطاء إجابات عن الكثير من المشاكل التي رُصدت في الدلالة الواقعية خصوصاً تلك التي لها علاقة بالواقع نفسه، مثل شرح عمليات التعلم وبناء القدرات الذهنية التي لا تتوافق مع العالم الحقيقي.

تفترض المقاربة الواقعية للدلالة أن المعنى يتكون فقط من علاقات التي تجمع بين الرموز المجردة وعناصر من نماذج العالم الحقيقي. لذلك، يتم تحقيق المنطق الصحيح من خلال التلاعب المنطقي البارع بين الرموز والعناصر، إلا أن هذه المقاربة تفتقر إلى مسألة حضور الذات، لأنه، ووفقاً للدلالة الواقعية، يبقى العالم منغلقاً على نفسه، بمعنى أنه لا يوجد كائن حقيقي وفعلي لا يلعب تجسده أي دور في بناء المعنى، كائن موضوعي صرف يحدده العالم الخارجي، كائن لغته يمكن أن تتوافق مع العالم الخارجي وتطابقه بدون أن يكون للذهن ولا الدماغ أو الجسد دور فعال ودال، لذلك فنظرية الصدق الواقعية نظرية كاذبة لأنها تربط بين الأحكام والقضايا من زاوية الصدق أو الكذب بصورة موضوعية في استقلال عن أي فهم بشري^(١)، ولكن، في مقابل ذلك،

(١) مقتطف من مقال تحت عنوان: من نكون؟، لجورج لايكوف ومارك جونسون، ترجمة عبد المجيد جحفة، ضمن الاستعارة والمعرفة، منشورات مختبر اللسانيات والتواصل (٢٠١١)، ص. ١٠٩.

يمكن أن نرصد تفاعلا بين أنظمة المعلومات المحصلة ومستخدامها بطريقة واضحة ومفهومة، الشيء الذي يقتضي ويتطلب وضع تصورات للمعرفة العقلية التي تختلف بحسب اختلاف مستخدميها. كما أكدت على ذلك إيلانور روش (I.Rosh.) بقولها: «ينبغي التأكيد على أننا نتحدث عن عالم متصور وليس عن عالم ميتافيزيقي بدون علم»^(١).

٢-٢ خصوصية الفضاءات التصورية

بموجب ذلك نكون أمام مقاربة الفضاءات التصورية بمعناها الذي يتوافق مع الإجابات التي ظلت تنادي بأن الذهن مجسد فينا بطرق تفصل بين العقل باعتباره المسؤول على رصد الاستنتاجات المنطقية وحلّ المشاكل والنقد والتقييم والتوصل إلى فهم معين لأنفسنا وللناس وللعالم، بمعنى أن التغيير في فهمنا للعقل سيكون تغييرا في فهمنا لأنفسنا، فالعقل ينشأ من طبيعة أدمغتنا وأجسادنا، وبين الذهن باعتباره تجسيدا للطريقة التي تجعل من أنساقنا التصورية تعتمد على العلاقة بين أجسامنا والمحيط الذي نعيش فيه، وعليه، فالجزء الأكبر من نسقنا التصوري إما كلي وإما منتشر عبر اللغات والثقافات، بمعنى لا يوجد كائن بدون مركز، فهو النقطة التي تنشأ منها ووفقها كل معاني الفضاءات التصورية المسؤولة على بناء المعنى في الذهن، أي أن نشوء نسقنا التصوري في التجسد المشترك، وفي التجربة الجسدية المشتركة يخلق ذاتا واسعة التمركز^(٢).

من المهم بالنسبة لنا أن ندرك حدود اشتغال الفضاءات التصورية - فهي تستخدم بشكل عام لإدخال تمييز بين الخصائص والتصورات. وهو تمييز مهم لنا حتى نقف

(١) Martin RAUBAL Formalizing Conceptual Spaces. Institute for Geoinformatics, (١) University of Münster ; Germany ; p .2

(٢) مقتطف من مقال تحت عنوان: من نكون؟، لجورج لايكوف ومارك جونسون، ترجمة عبد المجيد جحفة، ضمن الاستعارة والمعرفة، منشورات مختبر اللسانيات والتواصل (٢٠١١)، ص. ١٠٦ .

بشكل منهجي على حدود التمايز بينهما لوجود مسافة معرفية فاصلة، مع العلم أننا نستخدم فكرة الخاصية للدلالة على المعلومات المتعلقة بمجال واحد. إذ نقترح تبعا لما ورد في «كارادنفور» (١٩٩٠، ٢٠٠٠) Gärdenfors أن الخاصية هي منطقة محدبة في مجالها^(١)؛ لأنها تساهم بشكل أو بآخر في تشكيل حالة خاصة من التصورات ضمن مجال واحد، في حين يستند التصور على مجال واحد أو أكثر (Gärdenfors ٢٠٠٠)، تم يتم طمس هذا التمييز في كل حساباتنا اللغوية والفلسفية. على سبيل المثال، يتم تمثيل الخصائص والتصورات والمفاهيم العلاقية عبر مسارات تخضع لمنطق الترتيب بحسب قيمتي التفاضل والتكامل.

التصورات ليست مجرد حزمة من الخصائص. فتمثيل مجموعة من الكائنات يتضمن أيضا سردا للروابط بين المناطق بمختلف مجالاتها التي ترتبط بالمجموعة، على سبيل المثال:

٤١ - أعجبنى طعم التفاح

٤٢ - يميل لون التفاح إلى الأحمر

ينطوي تصورنا للتفاح على علاقة قوية تجمع بين مجموعة من الخصائص التي تربط بين الحلاوة في مجال الطعم ومحتوى السكر في مجال التغذية، فكلما نقص اللون الأحمر انخفضت نسبة الحلاوة في التفاح، في مقابل ذلك نجد بعض التصورات التي من الممكن توسيع نطاقها عبر تمثيل لها بمجموعة من المجالات مثلا الطيور. فالطيور لديها شكل؛ وحجم؛ وألوان؛ ووزن؛ وصوت، بالإضافة إلى ميولات بيئية،

(١) تكون المنطقة R محدبة إذا فقط إذا كانت النقطتين x و y في R، بل إن جميع النقاط بين x و y هي أيضا في R، يتمحور الدافع الأساس لهذه الأطروحة أنه إذا كان بعض الكائنات موجودة في x و y فإن كلا المجالين يدخلان في الممتلكات الخاصة للمجال، ثم أن أي الكائن يقع بين x و y فإنه يتعلق بالصورة نفسها بالممتلكات المجال، حتى وإن لم تكن كل المجالات مجسدة في إطار الفضاء التصوري.

وهلم جرا...مما يعني أن الكثير من المجالات قد لا تكون مغلقة، إذ يمكن توسيعها بالمزيد من المعرفة، وكلما توسعنا في الخصائص المميزة للمجال إلا وكان ذلك دليلا على الزيادة في المعرفة، وكل زيادة في المعرفة تكون بوظيفة معينة، فلا يمكن أن نتصور أن توسيع المجال يكون هكذا بدون جدوى أو غاية.

التصورات لها وظائف معرفية متعددة: أنها تساعد في تنظيم مفاهيمنا وتصنيفها، وأنها تشكل الأساس الجوهرية في بناء معاني الكلمات، لذلك فإن التركيز على دور التصورات في علم الدلالة سيقدم قوة إضافية تبين لنا كيف يُربط نموذج نظري للتصورات بعوالم الإدراك والتفكير.

إن تصويب الخصائص قد يبدو في صورة افتراض قوي إذا ما دعم ببعض البيانات الخاصة التي يمكن رصدها بشكل ملحوظ في العديد من المجالات إدراكيا: على سبيل المثال، اللون والطعم والوزن والمقاييس...هي عبارة عن مجالات لها من البيانات ما يمكننا من تصنيف ومقولة العالم وإدراكه. فالحجة الرئيسة الموظفة لدعم متطلبات البناء المقولي هو أنه يسهل التعلم إذا ما اعتمدنا على تصنيف المقولات. فقد تم إجراء اختبار تجريبي من طرف «بورتير» (Portier 2007) باستخدام بيانات متعددة الأبعاد من 170 قطعة من الفاكهة موزعة على سبعة عشر نوعا مختلفا. وقدمت محصلة بيانات الفاكهة على خمسة مجالات: القياسات؛ واللون؛ والشكل؛ والحجم؛ والوزن، وحاول الباحثون أن يقارنوا حيثيات التعلم معتمدين من جهة على منطلقات الفضاءات التصورية، ومن جهة ثانية الاعتماد على أساليب أخرى من التعلم الآلي باستخدام المساحات ذات الأبعاد متعددة. وأظهرت النتائج أنه عندما استخدم المتعلمون فضاءاتهم التصورية كان متوسط دقة التعلم هو 97 بالمئة، في حين وصلت نسبة الأساليب الأخرى إلى 56 بالمئة. هذه النتيجة تؤكد أن الفضاءات التصورية توفر إطارا متينا وفعالا للتعلم. في مقابل ذلك يمكن أن ندعم هذه الفرضية بتجربة ثانية ترتبط بتعلم الأطفال للحساب، فعندما نقدم

لطفل لم يتجاوز معدل عمره سنتين أو ثلاثة عملية حسابية بأساليب مختلفة، فإن أقصى ما يمكن تعلمه هو أن يردد على مسامعك ما توتر عليه من عمليات دون أن يدرك أو حتى يتمثل أنه ينجز علاقات رياضية معقدة، لكن عندما ندخل هذه العمليات في إطار التمدرس الممنهج، فإن الطفل يبدأ في إدراك المعاني العامة المرتبطة بالجمع والقسمة والناقص...، ولو تأملنا هذه المفاهيم الرياضية سنجد لها عبارة عن مجالات خاصة تنضبط وفق آليات حسابية دقيقة، وبالتالي فإن النتيجة المتوصل بها من خلال هذه التجربة تفيد أن الأطفال يستطيعون إنجاز الكثير من العمليات دون إدراك لما ينجزونه، بينما عندما يبدوون في استخدام فضائهم التصورية فإنهم منطقياً يشغلون آليتي الإدراك والتمثل، وهما في نظرنا مفتاحان أساسيان لتعلم سريع وفعال^(١).

هناك بعض المقارنات التي تفرض نفسها باعتبارها عمليات مثيرة للاهتمام بين تحليل الخصائص والنظرية النمط النموذجي التي وضعتها إيلانور روش والمتعاونين معها (انظر، على سبيل المثال: (روش، ١٩٧٥، ١٩٧٨)؛ (١٩٨١؛ لايكوف، ١٩٨٧) فعندما يتم تعريف الخصائص كمناطق محدبة في مجال ما، فمن المتوقع أن الآثار الأولية لذلك هي أن المرء يمكن أن يصف المجالات وفق خصائص انتمائها بناء على أنها أكثر أو أقل مركزية.

على العكس من ذلك، إذا تم اعتماد نظرية النمط النموذجي فإن تمثيل الخصائص والمفاهيم المرتبطة بها أمر متوقع. وإذا نحن افترضنا أن بعض أبعاد الفضاء التصوري تعطى فرصة لتوسيع مجالاتها المعرفية بالنظر إلى قابلية تحليلها إلى مجموعة من

(١) تعدّ التصورات أمراً حاسماً لضمان فعالية أكبر في بناء التواصل، كما أن حدود التفاعل بين التعلم وفعالية التواصل لهما دوراً هاماً في اكتساب التصورات، وهي الفكرة التي تم الدفاع عنها بشكل قوي في «جاغر» (Jäger ٢٠٠٨) الذي أكد أن تكييف المعاني في عملية التواصل كاف لكي يكون عاملاً مهماً في بناء نسق تواصلية بعيد نوعاً ما عن مركزية التركيب في ذلك.

المناطق، في هذه الحالة، ينبغي على الخصائص المرتبطة باللون مثلا أن تكون عبارة عن نقاط مركزية للخصائص التي تمثلها، ويمكن بعد ذلك رصد العديد من المعلومات عن نماذج يمكن استخدامها لتوليد المناطق أخرى بأبعاد خاصة سواء من حيث القرب من المركز أو البعد عنه، مع العلم أن الحديث عن «أقرب» نقطة من اللون الأحمر مثلا هي نفسها الأبعاد التي توفرها المساحات التصويرية التي تتولد من خلال الانتقال من التشبع إلى السطوع، وهي بالنسبة لنا القاعدة عامة لتوليد عدد كبير من المقولات بأبعاد أخرى أقل أو أكثر اتساعا.

انسجاما مع فرضية النمط النموذجي، فإنه سيكون من المؤكد أن فرضية مركزية الدلالة هي الأكثر شيوعا في بناء المعنى والأكثر حضورا لتفسير التعابير اللسانية. ومع ذلك، نلاحظ أن هذه التصورات لم تكن عبارة عن نماذج أولية في تفسير مقاييس الانتماء لكونها تتوافق مع المناطق المفتوحة للمقولة، وعندما نؤكد على انفتاحها فإننا لا يمكن تحديد أي نقطة من النقط المشكلة للبعد أو المساحة على أنها مركزية أو أنها الأكثر شيوعا.

من النماذج الأخرى التي من الممكن أن تساعدنا في تدعيم فرضية الفضاءات التصويرية هي التأكيد أنه من السهل أن يثبت الإنسان أن الفضاء هو واحد من أهم الأشياء تجريدا في حياته، اعتبارا أن كوكبنا يوفر جوابا هندسيا لقياس التشابه، فوجود مساحة قابلة للتقسيم إلى عدد محدود من المناطق يعني أن التعبير عن ذلك لن يكون إلا بعدد محدود من الكلمات التي تستخدم للإشارة إلى الكل، مثلا: كل المعاملات المالية والتجارية تختزل في مفهوم الاقتصاد، وكل الرياضات الجماعية أو الفردية تختزل في مفهوم الرياضة، وكل المعاملات الأسرية تختزل في مفهوم الأسرة وهكذا... إذ غالبا ما نعتمد في ذلك على السياق، فنصل وفق ذلك إلى نتيجة مفادها أنه لن يتم رصد الحدود الفاصلة بين النقط المشكلة للمقولة بشكل دقيق ومحوسب لأنها منفلثة عن التقعيد والنمذجة.

توفر آلية الأبعاد خيوطا مهمة للاقتصاد المعرفي في تعلم وإدراك التصورات. إذا كان تصنيف كل نقطة في الفضاء يتم تخزينه في الذاكرة، فهذا من شأنه أن يضع المطالب السخيفة على الذاكرة البشرية. ومع ذلك، إذا كان قائما تقسيم المقولات إلى فئات، فهذا يعني أن الأوضاع النسبية للنماذج بحاجة دائمة إلى أن نتذكر خصائصها العامة. فبمجرد أن أذكر واحدا من النماذج، يجب علي استحضار التصنيفات الأخرى وحسابها باستخدام الجوانب المترية للفضاء. وباختصار، فإن آليات الهندسية المركزة على القياس الأبعاد وحساب المسافة تخفف العبء على الذاكرة^(١).

٣ - التعلم عبر الفضاءات التصورية

نحن لم نولد مع تصوراتنا، إننا نتعلمها، لذا يجب أن نمثل للكيفية التي يتم من خلالها إنشاء مناطق معرفية المعينة داخل فضاءنا التصوري عن طريق التجربة الذاتية التي غالبا ما تكون مفيدة، ويجب أن لا نقيّد حدودنا المعرفية في دائرة ما نتصوره متطابقا مع الحالات المعروفة فقط، ولكن يجب أن تعمم على وضعيات معرفية جديدة كذلك. إذ يمكن أن يكون تعلم التصورات أكثر أو أقل نجاحا عندما يتم تصنيف تصور معين بشكل خاطئ، على سبيل المثال، قد يصنف شخص ما أحد أنواع التوت تحت مفهوم الطعام وينتهي به المطاف بمشاكل في المعدة أو ما هو أسوأ. إذا سندرك أننا ارتكبنا خطأ في التصنيف، مما يحتم علينا ضبط قواعد التطبيق التصوري حتى لا نسقط في الخطأ، وبالتالي نأمل تجنب نفس الخطأ في المستقبل.

(١) يعتمد تصنيف المقولات على مستوى خصوصية التصورات الممثل لها وفق سمات دقيقة ومحددة. ف«روش» (١٩٧٥، ١٩٧٨)، تميز بين المستويات الأساسية العليا والمستويات الأساسية الثانوية. فكل مستوى سيولد مقولات أكثر دقة. فالقيد الطبيعي المفروض على التصورات ينسجم مع التسلسل الهرمي الذي يعطي للمقولة المرتبطة بمستوى أعلى قوة حجائية أكبر مقارنة بتصور المقولة في مستوياتها الدنيا.

٣-١ فرضية النمط النموذجي للتصور

تعلم التصور غالباً ما ينتقل عن طريق التعميم المطبق على عدد محدود من الأمثلة، يمكننا أن نفترض أن النمط النموذجي للتصور يستخرج من هذه النماذج إذا تم وصف النماذج من منطلق النقاط التماس بينها في الفضاء التصوري، على اعتبار أن البناء التصوري لأي مقولة تنتمي إلى العالم لا يمكن أن تبنى في معزل عن باقي المقولات الأخرى، أو لنقل إن تكوين التصور النموذجي ينبثق من نقط الالتقاء الكبرى التي تساهم بشكل كبير في تأسيسه، ومن أجل ذلك يمكن تطبيق قاعدة بسيطة لحساب النمط النموذجي لأي فئة، هي أن موضع التماس في أي نقطة من نقط النموذج يجب أن توافق بصيغة أقوى أو أقل للجميع النماذج.

٤١ - الحب عشق / الدجاجة طائر

٤٢ - الحب سفر / الزمن بضاعة

إن الذي يدفعنا نحو تصور الحب عشق هو إدراكنا أن ما بينهما هي نقط التقاء تدفع نحو تصورنا أن كل حب هو عشق بدرجة من الدرجات المتاحة في بناء المعنى العام للحب، بمعنى أن العشق هو درجة من درجات الحب فقط وليس كله، والذي يجعل من الدجاجة طائراً هو إدراكنا لها وفق معايير ضرورية تتوفر عليها الدجاجة وتدفعها نحو الانتماء إلى هذا مقولة، لا يصعب علينا تعلم ذلك مادام أن الأطفال يتعلمون لغتهم من خلال الرصد الدقيق للمحيط اللغوي الذي يعيشون فيه، لكنهم قبل أن يدركوا ذلك فإنهم يكتسبون نسقاً يربط بتصورات تدفعهم نحو اعتبار كل الكائنات المحيطة بهم حيوانات لا يظهر التمايز بينها إلا من خلال رصد شكلها وحجمها ولونها... فهم لا يكتسبون اللغة بل يكتشفون العالم المحيط بهم ويؤولونه وفق تصوراتهم عنه، ممّا يدفعنا نحو التأكيد أن بناء التصورات يكون سابقاً على اللغة، وفي ذلك دلائل كثيرة

و متنوعة، يكفي أن تمعن النظر في سلوك رضع حتى تتمكن من رصد ذلك، وعندما نتعلم اللغة فإنها تلعب دورا خطيرا ومهمًا في بناء تصوراتنا بشكل أكثر نضجا.

عندما نتأمل البنى التصورية الأخرى، تبين الآلية الموضحة هنا كيف يمكن، بمجرد إنشاء بنية المجال، تعميم تطبيق المفاهيم على أساس بضعة أمثلة فقط لكل تصور. وقدرتنا على استخراج المعلومات الإضافية المطلوبة منه لتعميمه على البنية الهندسية للفضاء التصوري الأساسي. وبهذه الطريقة، تضاف معلومات الفضاءات التصورية إلى المعلومات التي تستنبط من خلال التجربة، بمعنى أن تصورنا للحب سفر هو في حد ذاته تصور بني على اعتبار الحب رحلة موفقة بين شخصين على امتداد حياتهما، وهي رحلة بتصور فضائي ينطلق من نقطة البداية ويصبو الوصول إلى أبعاد مدى زمني متاح، لذلك يجب أن نرصد هذا التوافق التصوري الموجود بين الحب والسفر في كونهما لا يستقيمان معنى إلا بالنظر إلى السمات الفضائية التي تطبعهما، وعندما تتصور الزمن طيب، فإن ذلك لا يمكن أن يبنى إلا من خلال الجمع بين الزمن كقيمة مادية يمكن استثمارها كما يجب، وبين تصورنا له كبضاعة قابلة للتداول والبيع والشراء، وأنت تقول: اشترت الشركة خمس دقائق للإشهار، فهذا كفيلا بأن يوضح لنا حجم القيمة التي تمنح للزمن في البث التلفزيوني مثلا، لذلك تم الجمع بينهما على أساس كونهما قابلان لكي يؤولا على القيمة، والقيمة هنا هي النمط النموذجي التي يتجسد في الزمن كما يتجسد في البضاعة.

٣-٢ تحولات البناء التصوري

لا يمكن أن نعتقد أن تعلم هذا النوع من التصورات يكون في مرحلة البداية، إذ غالبا ما يتم استنباط هذه العلائق في مرحلة متأخرة من مراحل التعلم الأساس، على اعتبار أن الربط بين المكونات المشكلة للعالم المقولي تصوريا تتطلب نضجا لغويا يتجاوز المؤلف نحو العناصر فوق- لغوية التي لها علاقة بالتمثل والإدراك والتصور،

وعلاوة على ذلك، فإن التصورات التي تم إنشاؤها بواسطة هذه الآلية عادة ما تكون ديناميكية، بمعنى أنه عندما يلاحظ طفل ما بنداً جديداً في الفئة، فهو يضيفه إلى بقية العناصر المشكلة للنموذج الأول لهذه الفئة، لكن تتغير إلى حد ما مقومات المجال الأساسية، مع العلم أن الفئات التي ليس لها حدود مشتركة تظل على حالها، وهذا يعني أن التغيير الذي يحدث عن طريق التعلم سيكون محلياً.

من المهم أن نؤكد أن أهمية التصورات تكمن قوتها في التعلم السريع من جهة، ومن جهة أخرى تقنين المساحة التصورية التي يوفرها المفهوم عندما ننخرط به ضمن الفضاء التصوري المتاح أمام الطفل، هكذا نجد أنفسنا أمام شرح لآليات التي تفسر الكيفية التي تمكن متعلم اللغة من التقاط معنى كلمة واحدة بسرعة، ولكن عملية الإتيان الكامل للمعنى يتطلب عدة لقاءات.

من بين الآليات المقترحة في ذلك الأخذ ببعض الجوانب المفرطة في التعميم التي قد تحدث في تشكيل المفهوم، على سبيل المثال، عندما يتعلم الطفل كلمة «كلب»، فإن ذلك لا ينطبق عنده على الكلاب فقط، ولكن أيضاً على الماعز والخيول والعجول، وهلم جرا... ويعود السبب إلى افتراض أن الطفل لا يستطيع أن يسم سوى عدد قليل من النماذج في فضاء الحيوان، وهذه نماذج تساعد على توليد مساحة تصورية خاصة يعمل في ما بعد على تقسيمها وفق ما هو متاح أمامه. وبالتالي فإن الطفل سوف يُفرض في التعميم بشكل مقارن وقياسي، بل ستتسع وظائفه التواصلية مع العالم على نحو أفضل، فكلما استطاع الطفل أن يعرف بعض المعلومات حول حيوان جديد سيتعلم وفق ذلك الطفل نماذج جديدة حوله، وبالتالي سيكون مضطراً لتعديل التصور الأول تدريجياً إلى أن يصل إلى الاستخدام العادي، اعتباراً أن تقسيم مساحة التصورية للحيوانات سيصبح أكثر دقة كلما تم إضافة نماذج معرفية جديدة.

على نحو آخر يمكن أن نفسر الأمر كون تعلم الطفل لبعض التصورات المرتبطة

بالحيوان تنطلق من وسم معمم يشمل الجميع، فالكلب عنده هو كل حيوان يُسقط على بصره، وكلّما زادت معرفة الطفل ارتفع عنده معدل التمييز حتى يصل في مرحلة متأخرة من التعلم إلى تعديل التصورات الأولى بتصورات أخرى أكثر نضجا، وبالتالي خلق مساحة تصورية جديدة تنسجم مع تمثلاته للحيوان بشكل عام تدفعه إلى وسم الكلب بسمات تكون متميزة عن باقي الحيوانات الأخرى.

غالبا ما تعترض عملية التعلم الكثير من الصعوبات لعل أهمها أن اللغة الطبيعية مليئة بالعبارات الغامضة، وقد حلم الفلاسفة منذ زمن بعيد ببناء لغة دقيقة حيث يتم القضاء فيها على كل غموض، إذ يجب أن يكون كل سوء فهم ليس أكثر من سوء تقدير فقط، الغموض بهذا المعنى لا يمكن أن يفهم على أساس الخطأ، لكنه ميزة مرتبطة بالتصميم العام للغة الطبيعية، وفق ذلك من الممكن أن نوسع دائرة النقاش حول الأسباب الوجيهة التي لها صلة بالاقتصاد المعرفي عبر مساءلة اللغات بشكل عام، لماذا لغة تحتوي على عبارات مبهمّة؟ في حين أن لغات أخرى لا تتوفر على ذلك؟

٤٣ - هذا شخص أصلع؟

٤٤ - هل هذا الكلب أصفر أو بني؟

من المهم أن نؤكد أن غموض المفاهيم هو نتيجة لحقيقة لغوية مفادها أننا نتعلم تصوراتنا من الأمثلة والأمثلة المضادة، فغالبا ما يتم المزج في التعلم بين التصورات التي لها علاقة باللون الأبيض بتعلمها على أساس أنها نقيض الأسود، فنربط فهمنا لهذا بذلك، ممّا يعكس سلبا على عملية التعلم بأكملها، بمعنى أن الحديث عن الغموض في بعض التصورات هو راجع للحفريات اللغوية الأولى التي تنقش على مستوى معجمنا الذهني الأساس، مما يخلق فضاء تصوريا غير دقيق بما يكفي لترجمة التصورات بالمعايير المناسبة والمطلوبة. بمعنى آخر أن المعايير المناسبة لا تستقر إلا عبر العديد من التعديلات التي ينجزها الطفل ومنه الراشد على تصوراته بشكل مستمر، إلا أنه

بين المرحلة والمرحلة تتم الكثير من المعطيات التي تضيفي على التصور الكثير من الغموض قبل أن يستقر التصور على نمط نموذجي متمايز ومتفرد^(١).

والنتيجة العامة لهذا كله هي أن القيود المعرفية المفروضة على بعض المجالات والنماذج والأوزان تكون نسبية، مما يفسر أن التصورات في شكلها العام تكون غامضة في البداية، فالطفل يكون تصورات عن المجالات التي تحيط به، قبل أن يبلور تلك المعرفة بشكل معين باستعمال اللغة، والسبب القاطع في ذلك أن التصورات موجودة في كل مكان، مما يؤكد أن كل ما يوجد في اللغة هو الغموض، وعندما نستعمل الآليات اللغوية فإننا نقصد من وراء ذلك مواجهة الغموض على وجه الخصوص، ويمكن أن نرصد ذلك من خلال التراكيب التصورية التي تفعل بواسطة الزيادة من دقة التواصل. على سبيل المثال، كلمات مثل «جدا»، «تماما»، و«تقريبا» يمكن الجمع بينها وبين بعض الصفات غامضة مثل «أصلع» و«الصفراء» التي تقود نحو إنشاء تراكيب أكثر دقة من قبيل: هذا رجل أصلع تماما / إنها صفراء جدا.

(١) يقدم نموذج تشكيل التصور أدلة جيدة حول آليات الغموض، أنها تولد وفق إمكانية خلط مساحة تصورية إضافية على التصور الأولى عبر إسقاط الكثير من السمات المتعلمة ومدركة عليه، للحصول في نهاية المطاف على التصور الجزئي الذي يمكن، بعد ذلك، أن يستخدم هو الآخر في علاقة مع تصورات أخرى لتحديد درجة العضوية في الفئة من الفئات، وبالتالي من الممكن أن نزكي الافتراض الذي يقول إن ظواهر الغموض تنشأ بشكل طبيعي.

وهناك دليل آخر على غموض بعض التصورات عن الأطفال، هو أن الأوزان النسبية في مجال ما لم يتم تحديدها بدقة. لسبب واحد هو أن إنشاء الآلية المعرفية للظواهر المتصلة بالتصور القاطع يتم تضخيمه من قبل الأنظمة الحسية، بحيث ينظر إلى المسافات ضمن فئة من الفئات بأنها أصغر حجما، وينظر للمسافات بين الفئات على النحو أكبر مما هي عليه القيم المحددة للبعد المادي. على سبيل المثال، عندما يغني شخص قليلا خارج السرب، فإننا نميل إلى سماع نغمات ليست كما هي عليه إذا تم قياس الترددات ومقارنتها بالقيم المثالية. وعند الانتقال من النموذج الأول في اتجاه النموذج الثاني يتم وفق ذلك تصنيف النقاط التي تدفع نحو القفز من القيم المثالية إلى القيم غير المثالية عبر خلق مساحة معرفية ضمن الفضاء التصوري العام الذي تنظم وفقه المعايير العامة.

٣-٣ المعاني لا توجد في الذهن «فقط».

لا يمكن أن نسلّم أن كلّ التصورات التي نتعلمها توجد مقابلات آلية لها على مستوى الذهن، نحن إذ لا نغامر بقول ذلك، فإننا نحتاج إلى أدلة تجريبية تدعم ذلك، فإذا كانت الكلمات تحيل على شيء ما في بيئة الشخص الداخلية، فإن المعطيات المعرفية الداعمة لها يمكن أن نستخدمها أو الاستعداد لإضافتها في التواصل حالما احتجنا للاستعانة بها، إلا أنها ليست بالضرورة محورية في التواصل؛ لتأمل التراكيب التالية:

٤٣- يحدث السجين زميله عن انبهاره بجمال المحيط الهادئ

لنأخذ بموجب ذلك الظروف الفعلية للحالة الخارجية لسجينين، إذ يمكن لهما التحدث بحماس في ظلام زنزانتهم حول الحياة على جزيرة مشمسة في المحيط الهادئ. بل واستحضار كل التفاصيل المرتبطة بطرق الاستجمام وحيثيات الفضاء وهندسة المكان، وهو إسقاط تصوري خارق لا ننتبه إليه؛ ولكن كيف يمكن أن نعلم أن الآخرين لديهم إشارات «المقابلة» في بيئاتهم الداخلية؟ من أين لنا بهذه القدرات التي تدفعنا إلى المقابلة بين ما نتصوره وما هو موجود بالفعل، فليس من الضروري أن يكون السجين قد زار المحيط، لكن في مقابل ذلك من الممكن أن يتحدث عن جماله من منطلق وضع مقابلات بين ما يتصوره حول المحيط وبين ما هو كائن في الواقع، فكيف يمكن أن نفسّر ذلك؟

يمكن أن نرجع ذلك إلى مفهوم الإبداعية كما نتصوره عند الطفل، إذ يتمكن الأطفال من إدراك عالمهم بشكل خاص كما يتصورونه، وهي التصورات التي تتطور بشكل خطير فور تعلم الطفل للغة، وهي اللغة نفسها التي يتعلمونها من منطلق جزئيات بسيطة يقدمها لهم محيطهم اللغوي، وهي الجزئيات التي نستنبط من خلالها القواعد العامة التي تدفعه نحو بناء تصورات حول ما يحيط به، المهم أن الطفل يتمكن من

تفعيل دور التصورات في الحديث عن أشياء لا تتطابق وحجم الاكتساب أو التعلم اللغويين، بمعنى أن الطفل يستطيع أن يتحدث عن عوالم أخرى مفترضة دون أن يعيش فيها، فيمكن أن يتحدث لنا عن إمكانية العيش في جزيرة جميلة دون أن تطأ قدماه ولو مترا واحدا منها انطلاقا من الأساس الفكري للتصورات الممكنة، فما دام هناك مخزون لا محدود من التصورات الممكنة، وأساس فطري لاكتسابها فإنه بإمكانه أن يولّد مجموعة من أوليات ومبادئ التأليف التي تجعل من فعل «المقابلة» بين الكائن والممكن أمرا محتملا.

في مقابل ذلك، تستخدم الحيوانات مجموعة متنوعة من السلوكيات التي تساعدنا على التواصل. وأن ما يميز التواصل الإنساني أنه لا يقف عند فهم معنى السلوك في حد ذاته فقط؛ وإنما هو العمل على إدراجه ضمن العمليات التي يمكن استخدامها تواصليا، وهي العمليات التي تتجاوز حدود السلوك إلى مستوى اللغة، فللكلمة وظيفة العلامة التواصلية التي من الممكن أن نحددها على النحو التالي: «حدث موجه من العلامة نحو المرسل إليه، والمرسل إليه عليه أن يقدر ذلك». فوظيفة العلامة التواصلية تعني فهم أن الإشارة لها المعنى نفسه بالنسبة للمرسل إليه والمرسل. مع العلم أن «لها المعنى نفسه» هي فكرة الانعكاسية، ولتوضيح ذلك نتأمل الأمثلة البسيطة التالية:

٤٤ - أعلم أن «الأسد» يعني «حيوان مفترس وملك ملوك الغابة».

٤٥ - أفترض أنك تعرف أن «الأسد» يعني «حيوان مفترس وملك ملوك الغابة»

٤٦ - أفترض أنك تعرف أنني أعرف أن «الأسد» يعني «حيوان مفترس وملك

ملوك الغابة»

إذا كانت معاني الكلمات موجودة في العالم ومطروحة في الطريق، فإننا نتقاسم رسم الخرائط الذهنية للغة بشكل يدفع نحو اعتبار أن التراكيب أعلاه تحيل على المعنى

نفسه، لكن من الملاحظ أن الخرائط اللغوية الموظفة في ذلك تكاد تكون مختلفة؛ لأن المسألة المركزية في نظرية المعرفة التصورية هي حجم التوازي الذي نتقاسمه في إدراك المعنى بين العلم بالشيء وافتراض العلم بالشيء وافتراض العلم أنك تعلم الشيء. إن هذه التفاصيل البنيوية في تركيبها تدفعنا نحو التأكيد على معنى واحد هو أن الأسد حيوان مفترس وملك الغابة.

من جهة أخرى، هناك هجوم عنيف ضد الدلالة المعرفية، خصوصا فيما يتعلق بالمعيار الاجتماعي، والتي أطلقها «بوتنام» (Putnam ١٩٧٥)، وهو يلخص حجته بأن «المعاني لا توجد في الذهن»^(١)، في رأيي، الدرس المستفاد من حجة «بوتنام» هو أن تطبيق الدلالة المعرفية ليس أمرا مستحيلا، ولكن يمكن أن نسجل مجموعة من نقاط الضعف من قبيل أن أنصارها نسوا دور البنية الاجتماعية للغة في بناء المعنى.. بمعنى أن معاني الكلمات لا تتواجد في العالم (فقط)، ولكن من الممكن جدا أن تستخرج من التفاعلات التواصلية بين مستعملي اللغة. لنكون وفق ذلك أمام نتيجة محورية هي أن المعاني موجودة في ذهن مستعملي اللغة «كراندفور» (Gärdenfors ١٩٩٣)، «كراندفور وواركلين» (٢٠١٣؛ Warglien & Gärdenfors).

إلا أن المطالب المركزية التي يجب أن ننتبه إليها هي ضرورة تفعيل المعاني الاجتماعية في إنتاج اللغة، فمن المهم جدا أن نؤكد أن افتراض امتلاك الناس نفس المخططات أمر لا يستقيم مع الطبيعة اللغوية الخاصة. فالمعاني بنات أفكار خاصة. إلا

(١) من أبرز المؤاخذات التي يمكن أن نسجلها على نظرية مخططات الصور افتراضها أن جميع المخططات تكون على مستوى الذهن الفردي. كما نجد أن نظرية الدلالة المعرفية لا تفسر كيف يمكن لمخططات الصورة أن تساهم في تحديد التمايز بين الأفراد. بمعنى، أن الدلالة المعرفية لا توفر بيانات كافية قابلة للتطبيق وفق المعيار الاجتماعي. ويبدو أنها تفترض ضمنا أن جميع الأفراد داخل مجتمع اللغوي لديهم المخططات نفسها. غير أن هذا الافتراض سيكون من الصعب علينا مجازاة تخطاته بالنظر إلى صعوبة جمعه مع أي نظرية معقولة ومنطقية تهتم بكيفية تعلم المخططات الصورة.

أن إنتاج هذه الأفكار وتجميعها لا يخضع لنفس المعايير بسبب اختلافاتنا البيولوجية، وتنوع مداركنا، ومجتمعاتنا، وثقافتنا الخاصة. فإدراك معنى الشيء لا يكون بالدرجة نفسها بين الناس، وهذا أمر طبيعي لا نختلف فيه.

٣- ٤ إنتاج الفضاءات التصورية.

لا يمكن أن نتصور أن إنتاجنا للفضاءات التصورية يولد هكذا بدون ضوابط أو قيود، كما لا يمكن أن نتصور أن الأطفال يبنون تصوراتهم عن العالم بدون علاقات اجتماعية تساعدهم على بلورة ذلك وتنميته، لكن من المهم أن نؤكد أن عملية توليد التصورات لا يخرج عن إطار الأبعاد المشكلة للمجالات، والتي يتم انتقاؤها من مجالات مختلفة أو مقارنة، بمعنى أن إنتاجنا لها يتأسس من خلال مساحة معرفية التي توفرها المجالات، على سبيل المثال، يمكن تحليل العلاقات باعتبارها مساحات منتجة بالنظر لدلالة الصفات النسبية، كما هو الحال بالنسبة للتركيب التالي:

٤٥ - شعرت ب «الدفء» وأنا بصحبتك.

يتحدد معنى الدفء من خلال الإشارة إلى درجة حرارة جسمين، إذا مثلنا لُبُعد درجة الحرارة ب R من الأرقام الحقيقية، وإذا كانت $t(x)$ لا تدل على درجة حرارة الجسم X ، فيمكن أن ندرك الفضاء المنتج بالنظر إلى جميع الأزواج من قيم درجة الحرارة المحصورة بين $\langle t(x), t(y) \rangle$ ، إذ يمكن تحديد العلاقة « x » في هذا الفضاء كونها أكثر دفئا من « Y »، وهي العلاقة التي يمكن حصرها في المجموعة المكونة من جميع الأزواج $t(x) > t(y)$ ، تتحول هذه الفئة إلى مجموعة فرعية مكونة من جميع النقاط الواردة في الفضاء المنتج. فمن السهل أن نرى أن هذا النوع من التحليل ينطبق على جميع العلاقات النسبية حيث إن توليد البعد يكون متماثلا مع الأرقام الحقيقية^(١).

(١) اخترع ديكارت نظام الإحداثيات كوسيلة لتمثيل العلاقات بين متغيرين x و y ، إذ من بعدين مستقلين x و y ، يمكن أن ينشأ الفضاء على مساحة تجمع كل النقط الواقعة بينهما، فمن خلال المساحة =

وتجدر الإشارة إلى أن إنتاج الفضاءات ليس مجرد إنتاج لأبعاد أساسية فقط، بل هي نتاج تصورات فضائية، مثلا تعتمد التلال والجبال إلى حد كبير على قيم بعدي العرض والارتفاع لتحديد طبيعتهما الجغرافية، فإذا كان تشكيل البعد مرتفعا جدا؛ فإنه ينسجم مع الوضع الطبيعي للجبل، مع العلم أننا لا نراعي في ذلك بعد العرض إطلاقا، لذلك لا يمكن أن نطلق على التشكيل واسع الانخفاض بالجبل. وبالتالي فالمنطقة المؤشر عليها في الفضاء المنتج الذي يمثل الجبل لديها شكل ثنائي الأبعاد، بمعنى أنه نتاج بعدي العرض والارتفاع^(١).

يمكن الكشف عن مجموعة من الارتباطات التي تتعلق بالأبعاد عندما نتجج الفضاءات التصورية. فإذا كان الارتباط بين البعدين قويا، فمن الممكن أحيانا تحديد بعد جديد (مستوى أعلى) يشكل الأساس في بناء معاني جديدة. وبهذه الطريقة، يمكن إنشاء تصورات جديدة كمناطق ضمن الفضاء المنتج. على سبيل المثال، وجود علاقة قوية بين قيم حلاوة الفاكهة وألوانها. سيظهر الارتباط كبنية خطية تقريبا في إنتاج الطعام ولون المجالات التي تحتويها، وكأننا نحاول أن نبني مجال الطعم وفق قيم الحلاوة التي تحيل عليها، فكلما مال التفاح إلى الاحمرار مثلا، كلما ارتفعت نسبة الحلاوة فيه.. وعندئذ يمكن استخدام هذا الخط كبعد دلالي جديدة مرتبط ب «النضج». بمعنى أن الفضاء التصوري للحلاوة يساهم في إنتاج فضاء تصوري آخر هو اللون، فعندما نقصد

= الرابطة بين الزوجين $\langle x,y \rangle$ يمكن أن تنشأ علاقات فضائية بصورها وفق النظام الديكارتي كنسب ثنائي الأبعاد قبل أن يتم توسيع ذلك لينسجم مع عدة مسافات (نطاقات) X و Y . فيكون بذلك قدّم نظرة قوية عن إنتاج الفضاء.

(١) ويمكن رصد العديد من الأمثلة على تكوين الفضاءات تزامنا مع نمو الطفل. ربما من الأمثلة الأكثر شهرة ما قدمه بياجيه (١٩٧٢) حول مهمة الحفظ. يميل الأطفال الصغار إلى تحديد حجم السائل مع ارتفاع منسوبه في الحاوية زجاجية مثلا. بمعنى أن الأطفال يميلون إلى تمثيل حجم السائل بالتركيز على ارتفاعه دون الانتباه إلى عرض الحاوية.

خضار الشراء فاكهة التفاح مثلا فإننا نربط بين لون التفاح وبين نسبة الحلاوة فيه، فكما اقترب اللون من الاحمرار كلما كانت نسبة الحلاوة فيه مرتفعة.

ونحن نرصد طرق استثمار الفضاءات التصورية في التعلم، يجب أن نتفق أن الدور الأساسي للتواصل البشري هو التأثير على الحالة الذهنية للآخرين، مما يؤدي إلى تغيرات معرفية في الأفكار والقضايا والمواقف (٢٠٠٨) (بوتنام Bentham)، فيجب أن نتذكر بأن التواصل وسيلة «لجعل المعنى أكثر شيوعاً» عبر محاولة تجميع الأفكار في أذهان مشتركة، ممّا يعني أن تمثيلها في الأذهان يصبح متوافقا بما فيه الكفاية لتلبية الأهداف التي دفعت نحو الإبلاغ. عموما هناك نوعان أساسيان من التجميع: واحد بطيء وآخر سريع.

يتعلق التجميع البطيء بالكيفية التي يعدّل بها مجتمع ما استخداماته للكلمات والإيماءات والإشارات...، حتى يتسنى لهم الحصول على المعاني الثابتة نسبيا داخل المجتمع، هي المعاني التي تتحول إلى معانٍ مستقلة إلى حدّ كبير عن أي سياق تواصلية معين، ممّا سيترتب عنه في ما بعد خلق العديد من التوازنات التي تجعل العناصر اللغوية تقف جنبا إلى جنب مع الهندسة (Geometry) وطوبولوجيا (Topology) التصورات. كما هو الحال عندما نتحدث عن إحالة اللون الأبيض على السلام، وإحالة غصن الزيتون على الأرض، وإحالة اللون الأحمر على الحب... فهي معانٍ مستقرة اجتماعيا إلى حدّ كبير، بمعنى أن الفضاء التصوري للون الأبيض ساهم في إنتاج مجال تصوري مستقر نسبيا هو الإحالة على السلام...

أما النوع الثاني من التجمعات الذهنية فيتعلق بالتجميع السريع الذي يرتبط بالمتغيرات التي تحصل على المعنى خلال عملية التفاعل التواصلية. ويمكن في بعض الأحيان أن يتحقق بدون مساعدة من لغة. وكمثال على ذلك، يمكن أن نفترض في عملية تواصلية وجود طرفين يركزان اهتمامهما على مشاهدة مباراة في كرة القدم

الفريق نفسه، فهما يجتمعان على دعم الفريق وتشجيعه لتحقيق الفوز. ما يهمنا هنا أن عملية التجميع السريع تتعلق بتطوير الأرضية المشتركة للواقع خلال الحوار أو التبادل المماثل للأفعال التواصلية المشتركة على مستوى العالم. ونؤكد أن التواصل البشري إلى حدّ كبير يعتمد على المتحاورين «يتقاسمون أرضية مشتركة تتميز بالخصائص التالية:

- المشاركون في اجتماع العمل متفقون على جدول الأعمال

- تتراكم عائدات الخطاب عبر تنمية المعلومات المشتركة عن طريق الكلام

- يصمّم المتحدثون كلامهم من خلال التعرف بسهولة على المعنى المراد إضافته إلى الأرضية المشتركة بينهم.

في هذه العملية، يتم أخذ المعاني مجتمعة كنقطة انطلاق، ولكن تضاف لها معاني أخرى مرتبطة بطبيعة الأوصاف التي تمنحها البيئة التواصلية. وهي عملية تجميع سريعة تنبني على التراكم السريع للمعاني الجديدة التي يمكن أن نحتاجها كأرضية مشتركة في حوار لاحق.

عندما يتكلم المرء عن دلالة اللغة، عادة ما يتم التعامل فقط مع عملية التجميع البطيئة، في حين ينظر إلى جوانب التواصل التي تنتمي إلى عملية التجميع الذهني سريع على أنها تنتمي إلى البراغماتية، ومع ذلك، أريد القول إن أوجه الشبه كبيرة موجودة بين التجميع البطيء للمعنى والتجميع السريع له، فهناك كلمات التي تتغير معانيها ببطء، وهناك كلمات التي تتغير معانيها بسرعة في مجرى الحوار. فعلى الرغم من التقدم العلمي الهائل، فمعنى «حجر» يفترض أنه لم يتغير كثيرا منذ العصر الحجري، ومن ناحية أخرى، هناك العديد من مكونات اللغة، كالضمائر مثلا، التي يتغير معناها بشكل سريع، فمعنى كلمة «هذا» يتغير تقريبا في كل مرة يتم استخدامه فيها، وبالتالي نحن لا نجد أي حدّ أو

فاصل بين معاني الكلمات والبراغماتية^(١). على هذا الأساس نكون أمام خارطة طريق جديدة تعيد النظر في الكيفية التي يبنى بها المعنى، فعمليات التجميع تخضع لهندسة وطوبوغرافيا دقيقة تدحض المقاربات التي ظلت تنادي باعتبارية تكوين المعنى.

٤ - المجالات في اللسانيات المعرفية.

ونحن نطرح في هذا الكتاب فرضية أن المجالات تشكل جزءا أساسيا من المعرفة الدلالية، فإن تقديم بعض الأدلة اللغوية يساهم بشكل كبير في تطويرها، وهي محصلة يمكن استثمارها من خلال النتائج المتوصل إليها من تحليل لبيانات لغة الأطفال، وهي عملية تطويرية بشكل قوي، فكلما زاد حجم المعرفة زادت نسبة التوسيع في المجال التصوري للكلمة، بهذا المنظور نكون أمام بناء لغوي تنموي يراعي حجم المساحات التصورية المتولدة عن طريق الزيادة في المعرفة. وفق ذلك يمكن أن نقترح فرضية الحقول الدلالية باعتبارها فرضية مناسبة تنسجم مع ما يشكله الأطفال حين يتعلمون لغتهم، بل يمكن أن نؤكد أن تجميع التصورات وتصنيف العالم يدرك قبل حتى قبل أن يتعلم الأطفال معنى الكلمات بشكل كامل.

باستخدام الفضاءات التصورية كإطار للنمذجة، ونحن نتبع تطور الدلالة المعرفية عند الأطفال من خلال تحديد ووصف المجالات المطلوبة لمستويات العمليات التواصلية. فإننا نؤكد أن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن خمس سنوات لا يمكنهم فصل حجم السائل عن ارتفاعه عند اختيار بين كأسين من عصير الليمون، الأول طويل وضيق جدا، أما الثاني قصير وواسع عرضا، فهم يعتقدون أن الأمر نفسه عندما يرتبط الأمر بقياس الحجم في علاقة ذلك بالمسافة، إلا أنهم يتعلمون الفصل بين بعد ارتفاع وبعد الحجم في وقت لاحق. بهذه الطريقة، يتم توسيع نطاقهم التصوري من مجال

Langacker, 2008, pp. 40-41

(١)

الأول إلى مجال جديد. ونحن إذ نفترض أن هذه المجالات هي نطاقات منفصلة، فإننا ندعم ذلك بالقليل من الأدلة التجريبية التي يمكن استخدامها لدعم هذه الافتراضات، وهي المجالات التي تتوزع بين ما هو حسي وتجريدي^(١). على اعتبار أن بناء المجال في اللسانيات المعرفية يجب أن يبنى على قوة تنبؤية استباقية، وهذا ما يميز التحليل المعرفي في اللغة عن بقية التحاليل الأخرى التي تقف عند مستوى التقييد المنطقي أو الصوري الذي يميل إلى الكلية والتعميم.

يظهر في أدبيات «لانفاكر» (Langacker (1987) أنه يميل ميلا قويا نحو تفسير مفهوم المجال بطريقة شاملة. إذ يكتب أن «المصطلح يفسر على نطاق واسع كونه يشير إلى أنواع مختلفة للتصور»^(٢). ومن الأمثلة الأخرى على ذلك ما أكده «كلاوسنر وكروفت» اللذان كتبا: «على الرغم من أن البنى الأساسية المكونة من «التصور» و«المجال» و«بنية المقولة» توظف بأسماء مختلفة، فهي في الأساس البنية نفسها بين الباحثين في اللسانيات المعرفية»^(٣).

أول مناقشة نقدية نطلق منها هي محاولتنا تحديد ما هو المقصود بالمجال. أزعم أن لانفاكير «Langacker» يخلط في تحديده لمفهوم المجال إذ يدمج العديد من المكونات التي يتم الاستناد إليها في تحليل المعاني المعجمية. على وجه الخصوص،

(١) تم اعتبار مفهوم المجال مركزيا في اللسانيات المعرفية بشكل عام، وهو الأمر الذي نجده في عدد من مقالات التي تطرقت لتحليل المفهوم (على سبيل المثال، كروفت، ٢٠٠٣؛ Clausner & Croft. كلاوسنر وكروفت، ١٩٩٩)؛ (Pedersen بيدرسن، ١٩٩٥)؛ (إيفانز وجرين Evans & Green، ٢٠٠٦).

(٢) Langacker (2008) "the term is broadly interpreted as indicating any kind of conception or realm of experience." P (44)

(٣) Clausner and Croft (1999), who write: "Although the basic constructs of 'concept,' 'domain,' 'construal,' and 'category structure' go by different names, they are essentially the same among researchers in cognitive linguistics." p. 1

واعتقد أن تمييزه بين المجالات الموضوعية والتكوينية هو تمييز مضلل.. وينظر إلى المجالات تكوينه على نحو أفضل من خلال رصد العلاقة بين الأجزاء والكل، بدلا من العلاقة بين الشيء وعلاقته بالمجالات^(١).

حاول لانفاكير (١٩٨٧) «Langacker» أن يظهر أن المعنى يستند على التصورات: الدافع وراء ذلك هو إدخال مفهوم المجال كجزء من هذا البرنامج إذ يقول إن المجالات «هي بالضرورة كيانات معرفية مشكّلة من الخبرات العقلية والمساحات والمفاهيم والتصورات»^(٢)، بمعنى أنه يصف المجال كونه توصيف لوحدة دلالية، وهذا الوصف متوافق بشكل كبير مع المجال كما هو بالمعنى الجشطالتي، فكان من المهم جدا أن يتجه البحث في المجالات المعرفية نحو ضرورة توضيح التمايز بين المجالات الأساسية مقابل المجالات مجردة. إذ يلاحظ في المجالات الأساسية مثلا أن مفهوم المفصل يفترض وجود «إصبع»، والذي، بدوره، يعتمد وجوده على وجود مجال أكبر هي اليد فالذراع ثم الجسم^(٣).

أما عندما تطرق لانفاكير للمجالات المجردة فإن تحديده لها انطلق من فرضية كونها مجالات غير أساسية إذ عرّف المجال المجرد بأنه «مجال غير أساسي، أي أنه

(١) أحد أسباب هذا التأمل هو أن اللسانيات المعرفية في بداياتها الأولى قد وضعت تمييزا دلاليا رئيسيا بين «الشكل» و«الأرض»، وهو التمييز الذي تم استعارته من علم النفس الجشطالتي، والفكرة الأساسية هي أن البنية الدلالية لكلمة (أو بناء) تتكون من التصور (الشكل) وبنيتها المفترضة مسبقا (أرض). في رأيي، فإن هذا التمييز غير مناسب في جميع الحالات، واستخدامه كمبدأ عالمي يؤدي إلى ارتباك لا لزوم له.

Langacker, R. W. (1987). Foundations of cognitive grammar (Vol. 1). Stanford, CA: (٢) Stanford University Press. P 147

(٣) من ضروري لوضع عدد من «المجالات الأساسية»، أن نؤكد، أنها عبارة عن المجالات تمثيلية أو لنقل مجالات تصويرية غير قابلة للاختزال إدراكيا، ومن بين هذه المجالات الأساسية هي تجرّتنا مع الوقت، وقدرتنا على التعامل معه وفق أبعاد مكانية ثلاثية الأبعاد.

مفهوم أو تصور جمعي / كلي يعمل كمجال لتعريف مفهوم أعلى رتبة»^(١). وفي حاشية التعريف، يضيف: «المجال المجرد يعادل أساسا النموذج المعرفي المثالي... وهو ما أسماه الآخرون بشكل مختلف الإطار، المشهد، المخطط أو حتى السيناريو». هذا التوصيف العام الذي تكرر في معظم المناقشات لا يقدم أي معيار حول مقاييس تحديد المجال. اعتبارا من حيث المبدأ، أن أي بناء تصوري أو معرفي، مهما كان بسيطا أو معقدا، يمكن أن يكون بمثابة مجال معرفي لتوصيف المعاني، أما وأن نعتبر ذلك وصفا شاملا لجميع المجالات، فإن ذلك يجعل من المفهوم غامضا للغاية.

لذلك نقول أنه من الضروري أن يكون توصيف المجال بشكل أضيق حتى يتم تدقيق المعطيات بما يتناسب ومعايير المكان والزمان والمساحة والفضاء، كلّها مجالات تم ضبطها وفق معايير محوسبة بشكل دقيق، فالمساحة تدعم التصور المكاني، والوقت يدعم التصور الفضائي المبني على الحاضر واليوم والأسبوع...، بمعنى أن هذه القراءة تعدّ خطوة ايجابية في الاتجاه الصحيح، خصوصا عندما أدركنا أنه من الممكن أن نذهب بالتصور أبعد من المتوقع، وهذا يعني أنه بمجرد أن يتم عرض التسلسل الهرمي للمجالات، فإن التمييز يفقد الكثير من أهميته.

وفق ذلك يمكن تصنيف المجالات، بحسب لانفاكير، إلى فئتين هما: الأبعاد والتصنيفات، فعندما نتحدث عن التصنيفات، فإننا نربط ذلك بما يعرف ببنوية التصنيفات التي تتمظهر قوتها من خلال تقديم أول مثال على ذلك هو الإصبع باعتباره ينتمي إلى مجال المفصل، واليد كمجال للإصبع، ربما نعتقد أننا أمام شيئين مختلفين أو أمام تصور يفترض وجود تصور آخر، على الرغم من أن الإصبع يفترض وجود جهة، وبالنظر إلى البنوية التصنيفية، فإنه لو تم استبدال إصبع واحد بآخر، سيكون

Langacker, R. W. (1987). Foundations of cognitive grammar (Vol. 1). Stanford, CA: (١) Stanford University Press. P 150

حاصل النتيجة أننا لم نخرج عن مجال اليد. أو عندما نستبدل محرك سيارة بآخر، تكون النتيجة هي أننا ما زلنا داخل مجال السيارة، لكن في مجال الأبعاد يمكن أن نتحدث عن الألوان، إذ يفترض أن نحدد لونا ما - برتقالي مثلا - باعتباره ينتمي إلى المجال اللون. ولكن لا يمكن أن نستعيض البرتقالي بلون آخر مع الحفاظ على المحتوى المجال نفسه. لذلك لا يمكن في هذه الحالة أن نتحدث عن بنوية الأبعاد لأنها تنسجم مع مقتضيات الكل المتكامل؛ فعلاقات الجزء / الكل لا تحدث إلا في نطاق بنيوي، ويمكن تدعيم ذلك من خلال تقديم العديد من الأمثلة الأخرى كما هو الحال بالنسبة لأوثار العود الذي يتكون من ثلاث نغمات أو أكثر...؛ ثم مثال العائلة التي تأتلف من الوالد والوالدة والطفل... فالتصنيفات لها خصائص متعددة، في حين أن الأبعاد يمثل سوى خاصية واحدة في اللسانيات المعرفية.

إلا أنه ما يمكن أن نؤاخذ عليه لانفاكير هو قوله أن المشاعر لا يمكن أن تصنيفها/ تميزها من حيث الحجم. ومع ذلك، نجد في الأدب النفسي عدة تحاليل لها علاقة برصد أبعاد العواطف، وهي الأبعاد التي يمكن تصنيفها من حيث المحتوى إلى بعدين أساسيين: بعد القيمة الذي يتأسس على درجة المساحة الموجبة نحو الجوانب السلبية من العواطف. والبعد الثاني هو الإثارة الذي يتأسس على نطاق مسافة التي تنطلق من الهدوء إلى العاطفة الحماس، رغم عدم وجود نظرية واحدة ونهائية لرصد أبعاد العواطف، إلا أن النتائج المتوصل بها من علم النفس المعرفي تدعم النظرية القائلة بأن المجالات الأساسية للعواطف هي أبعاد ترتبط بمستوى الشعور والإحساس (أعلى مستوى) و(أقل مستوى)^(١).

(١) والنتيجة في نظرنا هي أن كروفيت Croft هو الوحيد الذي حاول أن يقرب المسافة بينهما من خلال انطلاقة من فرضية النظرية الواحدة، إنه ينطلق من فكرة واسعة للمجال وقال انه يجب أن نمايز بين (القاعدة) المجال ومصنوفة المجال. وتمشيا مع هذه الأطروحة المقترحة؛ يصف كروفيت الاستعارات كتعيينات للمجال، ثم يقول إن الكناية تنطوي على خاصية التحول من الصدارة نحو =

٤ - ١ هندسة المجالات المعرفية.

تتخذ الدلالة المعرفية من المجالات نموذجا مناسباً لرصد العلاقة بين مختلف البنيات الدلالية، مستثمرة في ذلك النظريات السابقة^(١)، على اعتبار أن ضبط هذه الخصائص يتموقع داخل مجالات معرفية بالتركيز على مدلولاتها؛ بمعنى أن ضبط المجال المعرفي ينبثق من طبيعة المجال الدلالي الذي تم التواضع عليه للإحالة على التجربة الحسية أو النظام الكامل للمعارف، إلا أن هذه المجالات منها ما هو أولي لا يمكن تحليله إلى مكونات (الزمان + المكان مثلاً)، ومنها ما يمكن تحليله وفق متطلبات النسق اللغوي إلى أبنية معرفية على درجة كبيرة من التجريد والتعقيد، وهو التصنيف الذي يسند إلى مفهوم الصورة المجردة أو الخطاطة التي تشمل عدداً محدوداً من الخصائص العامة التي تؤسس للمقولة، على اعتبار أن العناصر التي تحيل على الأسماء في لغة ما هي صورة مجردة لمقولة الاسم وقس على ذلك بقية المقولات اللغوية الأخرى. لتأمل الأمثلة التالية:

٤٦ - يقرأ زيد كتاباً كل أسبوع.

٤٧ - زيد شغوف بالكتابة والقراءة.

= إمكانية تسليط الضوء على شيء واحد في المجال داخل مصفوفة المجال نفسه، وهذا توصيف يختلف من وجهة نظري مفهوم الكناية، ولكن نتيجة لتحليل كروفت هي أساساً نفس المنجم. أن قال، وأعتقد أن التناقض بين تعيينات مجال الأبعاد والعلاقات الكناية يجعل الفرق بين وظائف الاستعارات ووظائف الكناية أكثر وضوحاً. وللتوسع أكثر يرجى العودة إلى كتاب:

- Croft, W. (2002). The role of domains in the interpretation of metaphors and metonymies. In R. Dirven & R. Pörings (Eds.), *Metaphor and metonymy in comparison and contrast* (pp. 161–205). Berlin: Mouton de Gruyter

(١) نقصد بذلك المجالات الدلالية والحقول الدلالية ونظرية النمط النموذجي والقيود الضرورية والكافية ومفهوم الدرجة في التصنيف المقولي، وهي المقاربات التي مهدت بشكل كبير لظهور اللسانيات المعرفية عموماً واللسانيات الدلالية بشكل خاص.

إن حدود التمايز بين التركيبيين لا يكمن في طبيعة المحتوى الدلالي الذي يؤشران عليه، بل يتجسد في طبيعة التنظيم الذهني والهندسة المعرفية للمضمون ذاته، على اعتبار أن «يقرأ» و«القراءة» تحملان المحتوى الدلالي نفسه لاشتمالهما على المضمون نفسه المحيل على الأشياء والموضوعات، إلا أنهما يختلفان في طبيعة العمليات الذهنية والمعرفية التي تهندس ذلك المضمون المشترك، فمدلول اسم (القراءة) يظهر الأشياء التي تربط بينها تلك العلاقات، بينما مدلول الفعل (يقرأ) يبرز نوع العلاقات الكائنة بين مكونات الأشياء والذوات، بمعنى أدق، إن التمايز الدلالي بين العبارتين يكمن في انتمائهما إلى مقولتين لغويتين مختلفتين بالنظر إلى أن هذا التباين يعود بالأساس إلى التنظيم الذي يفرضه كل من المدلولين على المضمون المشترك بينهما.

إلا أن هذا التمايز بين العبارتين يقودنا نحو مسار جديد في قراءة مقولات الاسم والفعل في اللغة العربية ومحاولة فهم جديد لطبيعة المحتوى الدلالي الذي يرسم خط التوظيف ضمن بنيات تركيبية سليمة، فمتكلمو اللغة العربية يستعملون الكثير من العبارات دون حاجتهم إلى البحث في طبيعة المحتوى الدلالي الذي تحمله تلك الاستعمالات، لذلك فعبارة الاسم تتخذ حيزاً معيناً في المكان، وهو الحيز الذي يتسم بسمتي [+/- محدود]، ممّا يسمح لنا بإمكانية التمييز بين الأسماء المعدودة وغير المعدودة من زاوية أن كل اسم معدود هو في الأصل إشارة إلى حيز غير محدود في مجاله الأساس، وهذا فصل إجرائي يدفعنا إلى ضرورة التأكيد أن الأسماء المعدودة تمثل في الأصل مجموعة من العناصر التي تشكل حيزاً متماسكاً من الوحدات التي تأتلف بنيويًا لتشكل المقولة، وهو التحديد الذي يدفعنا إلى الحديث عن المجال الكمي بمنطق التسوير (Quantifier) كما طرح في الدلالة التوليدية عندما ربط بالمكان في علاقته بالأشياء المادية^(١)، لتأمل الأمثلة التالية:

(١) نعتقد أن نواة المقاربة المعرفية للغة موجودة في النحو الكلي كما طرحه تشومسكي.

٤٨ - شربت ماء / بعضا من الماء / * جزءا من الماء

٤٩ - شربت عسلا / نوعا من العسل / * بعضا من العسل

إن الحديث عن الماء أو العسل في هذا المستوى التصوري يقودنا إلى معالجة هذه الأسماء من منظور جديد ومغاير عن ما قدم في إطار التفكير النحوي القديم، خصوصا إذا ما تم ربط ذلك بمسألة الماهية أو المادة، فنحن على معرفة أن كل جزء من الماء أو العسل يكون متجانسا بالنظر إلى أن كل عينة من المجموعة فهي تنتمي بالضرورة إلى الكل الذي يشكل المقولة نفسها، بمعنى أن مكونات الماء وحيياته هي من تشكل الماء نفسه، وأن مكونات العسل هي التي تشكل مقولة العسل نفسها، فيصبح الماء والعسل ممثلين عن كل الأجزاء المتجانسة التي تشكل الكل^(١)، وهي القراءة التي تؤسس لفكر جديد ومعايير جديدة في التصنيف تكاد تكون مختلفة عن المقاربات المعرفية السابقة، فعندما نتحدث عن الجزء في علاقته بالكل سنجد أن اليد أو الرأس لا يمكن أن تشكل كلا اعتبارا أن الجزء المشكل للذات لا يعيننا بالضرورة، وهذا تفسير يؤكد أن إضافة الأجزاء إلى بعضها البعض هي التي تحدد الكل الذي هو الذات بأكملها^(٢)، وعليه، فإن

(١) في إطار التحاليل العلمية التي أجريت على عيتين من المادة نفسها لا يكونان أبدا متماثلين كل التماثل، إلا أنه نحن دائما ما نعمل على تحييد الاختلافات الجزئية بالنظر إلى طبيعة التصورات التي نؤسسها ونبنينا عن علاقة الجزء بالكل، وإذا صحت هذه المقدمات العلمية مستقبلا وأثبتت فعاليتها فإنه سيكون من المؤكد أن نعيد النظر في طبيعة المسلمات التي نقدمها كمنطلقات في بناء المجالات اللغوية معرفيا ومقوليا، ومنها المقاربات الأولى التي انطلقت منها الدلالة المعرفية في صيغها ما بعد الثمانينيات. كما ستكون فرصة مواتية لإعادة النظر في المنطلقات الحجاجية التي كانت تعتبر أن علاقة الاستلزام بين الجزء والكل علاقة حجاجية، في حين أن الجزء لا يمكن أن يكون مطابقا للكل لضرورات علمية لها علاقة بطبيعة المادة ومكوناتها.

(٢) تعود أدراج هذه الفكرة إلى فيتجنشتاين (wittgenstein) الذي أكد على ضرورة إعادة النظر في طبيعة الشروط الضرورية والكافية بسبب خضوع القيود والسمات المشككة للمعاني لبعض الاستثناءات في بنائها منطلقا في ذلك من أنه إذا كان من الضروري أن يملك الإنسان يدين ورجلين ورأس ودماع =

السياق العام الذي يتحكم في بناء المعدودية بالنسبة للأسماء يتحدد تصوريا ومفاهيميا من منطلق قابليتها للإفراد والتثنية والجمع، أما الأسماء التي لا تقبل العدّ فلا يسع مجالها النحوي ذلك، فيتحدد عدّها من منطلق قولك «خمر قليل» و«ماء كثير»، لكن لا يمكن أن يصاغا نحويا على: خمران وخمور بالنظر إلى الأجزاء المشكلة لها؛ بمعنى أن قليل / كثير تدخل على الأسماء التي تقبل العدّ (بالنظر إلى الجزء) في حين أن الأسماء التي تعدّ على الجمع والتثنية فيمكن أن تصاغ من نفس جنسها كما هو الحال عندما نتحدث عن دار؛ دور؛ دور؛ ديار.

إن الأساس العلمي من الحديث عن المجالات المعرفية التي تؤسس للأسماء في اللغة العربية تعيدنا نحو ضرورة إعادة النظر في بعض القواعد النحوية التي حكمت مسار البحث اللغوي منذ زمن طويل، فالأكيد أن النحاة العرب اجتهدوا في زمانهم وبمؤهلاتهم الخاصة واجتهاداتهم الذاتية لتبيان الكثير من الضوابط التي تمنسق اللغة نحوا وبلاغة، لأن البحث في الدلالة المعرفية يقتضي البرهنة أن ما نهدف إليه اليوم، من خلال هذا البحث، هو أن نبين أن المحرك الأساس لعملياتنا اللغوية هي الدلالة في مستواها المعرفي، بمعنى أن كل الأنساق اللغوية التي نسعى اليوم إلى بنائها تعود أساسا إلى الدلالة باعتبارها المؤهل المركزي في بناء تراكيب لغوية سليمة، بمعنى أن الوقوف عند [+/- معدود] بالنسبة للخمر أو الماء أو الحليب يقودنا نحو التأكيد أن [- معدود] يمكن أن تنضبط مع حيز أو مكان محدد يجعلنا متمكنين بشكل جيد من الفضاء الذي نستطيع من خلاله التمييز بين مختلف السوائل تمييزا نوعيا وليس كميا، بالنظر إلى مجموعة من السمات كاللون والرائحة والطعم... وهذا سبيل - في نظرنا

= ليكون كائنا حيا، فهذا لا يعني أن الأشخاص الذين لا يملكون ذلك هم ليسوا بشرا، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، إلا أن الفكرة المحورية التي حاول الرجل أن يدافع عنها هي أن مثل هذه الاستثناءات تشكل حاجزا أمام بناء قيود صارمة على المجالات التي تشكل المقولة.

- جيد لكي نشير أن بناء المعنى لا بد أن يختص بضرورة التمييز في هذه الأسماء من حيث استعمالاتها، بمعنى أن الكشف عن المدلول العام الذي يحكم الكلمة يتموقع ضمن مجال محدد بخارطة معرفية لغوية مضبوطة تجعل من مدلول العسل مختلفا عن مدلول الماء أو الخمر أو الحليب... رغم أنهم جميعا يدخلان معرفيا ضمن مجال السوائل. إلا أن ما يدفع نحو هذه التمايزات هي طبيعة الوظائف الدلالية التي يضطلع بها كل عنصر من العناصر المشكلة للمادة^(١).

إذا كان ما يميز صوت الإنسان عن الضوضاء هو امتلاكه لمعنى معين، فإن اللغة تسقط منزلة نشاط ذي معنى في حد ذاته، بمعنى أن الوظيفة الأساس للغة هي التبليغ عن مقاصد الناس، وهي المقاصد التي أتاحت الفرصة أمام الفلاسفة واللسانيين وعلماء النفس والمعرفيين وغيرهم لكي يدلي كل بدلوه في الكشف عن خبايا المعنى، فإذا كان اللساني يقارب المعنى من منطلق فحص وفرز مستويات التحليل الأساسية من صوت ونحو ومعجم، فإن مجال اشتغال الآخرين يتجاوز هذه الحدود المترامية ليجتثوا في المقام والمقال والمقصد والتبليغ والتعبير والغاية... وهي تدايعات متشابكة الأطراف، إلا أن الجامع الذي تلتقي حوله هو المعنى، لكن الجانب الذي جعل شتات التفكير فيه أمرا صعبا هو أن كل واحد حاول أن يناقش المعنى وفق مقاربة تلائم انشغالاته،

(١) إلا أنه يجب أن ننتبه إلى شيء مهم جدا هو أن جل الأمثلة المساقفة في تبريراتهم كانت تخدم بشكل كبير ما يريدون إيصاله وتبريره لدرجة أنهم لا يميلون إلى تعداد الأمثلة واختلاف السياقات التي لا تخرج الكلام عن الضابط أو القاعدة، لذلك تجدهم أحرص الناس على تبيان ذلك على الرغم من أن القاعدة هي من صلب اللغة وليست معيارا خارجا عنها، وكل خارج عن ذلك فهو من الشاذ، والشاذ لا يقاس عليه، وهي القاعدة التي عطلت التفكير في صياغة نحو جديد يتجاوز قولهم هكذا سمعت عن العرب بضرورة البحث عن نسق لغوي يتماشى مع التطور الهائل الذي تعرفه العلوم واللسانيات بكل تخصصاتها في محاولة لتبويب الفكر بصورة تنسجم مع النظام المعرفي للغة اليوم، فلغة اليوم خصبة بما يكفي وناضجة بما يلزم لكي تقدم نفسها في قالب يستوعب كل الضوابط النحوية التي تنسجم مع طبيعة تصوراتنا للغتنا من منطلق دلالي وليس تركيب

فكثرت النظريات والمقاربات، واختلفت المناهج وتشعبت الطرق إلى أن اختلط على المهتمين الحابل بالنابل، فأصبح عوض أن نبحث عن المعنى، سيجد نفسه يبحث عن معنى المعنى في ذلك. (١)

٤ - ٢ المجالات المعرفية الكبرى

ننطلق في تشخيصنا للتنظيم المعرفي للمعنى من محاولة الاستفادة من كل النظريات التي سبقتنا في المجال، وعندما نقول الاستفادة فإننا نؤكد أن ما نقدمه ليس مقارنة بديلة أو مقارنة جديدة تدحض سابقتها، بل هي مقارنة تنخرط في طريق تنمية التطورات التي تعرفها الدراسات اللسانية بشكل عام، والدراسات الدلالية بشكل خاص، مؤطرين ذلك بما قدم في إطار الدلالة المعرفية كما قدمت في لانفاكير (١٩٩١) (٢).
لنتأمل الأمثلة التالية:

٥٠ - طلب المعلم من طلبته فتح الكتاب على المجزوءة الأولى الفصل العاشر الباب الثالث الصفحة الرابعة.

٥١ - ينعقد المؤتمر اللساني يوم الجمعة من شهر ماي من سنة ٢٠١٧

٥٢ - تبعث المراسلات الخاصة عبر السلم الإداري علي يد السيد مدير المؤسسة، علي يد السيد النائب الإقليمي. إلى السيد رئيس الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين،

٥٣ - * افتح الكتاب على الصفحة الرابعة من المجزوءة الأولى الفصل العاشر الباب الثاني...

بداية نؤكد أننا سنستثمر في تحليل هذه البنيات شبكة العلاقات المخزّنة في

(١) لتقويض هذا الشتات والتخبط، أمّلت الضرورة وضع برنامج محوسب نعمل من خلاله على صياغة تنظيم معرفي في دراسة المعنى، وهو التنظيم الذي يترجم حجم النسقية التي يشغل بها ذهن الإنسان.

(٢) Langacher.R . Foundations of cognitive grammar, vol. 2.

الذهن والمنظمة وفق بنيات كبرى وأوضاع نموذجية تعكس طبيعة تمثلات الإنسان لعالمه من تصورات ووضعيات وأشياء.. إذ من الممكن أن نعتبر كل تركيب من الأمثلة أعلاه يحوي العديد من الأطر المنظمة وفق وضعيات جاهزة حيث يستدعي إطار الكتاب في (٥٠) إلى ذهن المتلقي الكثير من الإجراءات المتدخلة في بنائه وتنظيمه، فبمجرد أن تصفح عن مجال الكتاب فإنك تكون أمام مجال يضم منطقيا المجزوءة التي تضم هي الأخرى الكثير من المجالات من قبيل الفصل الذي يضم هو الآخر الباب وهكذا دواليك... و ما ينطبق على الكتاب ينطبق على بقية الأمثلة، على اعتبار أن سيناريوهات الذهن البشري مبرمجة بشكل محوسب وفق خطاطة رياضية معقدة التركيب، تدفعنا إلى مساءلة الخلفية المعرفية التي تقود المتلقي نحو بناء تأويل سليم وصحيح للجمل؛ عبر الربط المنطقي في (٥١) بين اليوم والشهر والسنة كمجالات زمانية وتوافقية تضبط سياق الحياة عبر وتيرة مضبوطة محكمة بدقة، فمجال السنة يضم الشهر واليوم، ومجال الشهر يضم الأسبوع واليوم.... في حين أن المجالات الكبرى التي تنتظم من خلالها الإدارة في (٥٢) تدفع إلى احترام السلم الإداري الذي يقف على رأسه الرئيس الذي يشرف على النائب والمدير، في حين أن النائب يشرف على المدير والحراس العامون والنظار والموظفون...

ما نؤكد وندافع عنه الآن هو أن الذهن البشري منظم بشكل إجرائي يشبه إلى حد كبير البرمجة الإلكترونية والمعلوماتية؛ إذ لا يمكن أن يكون هذا التنظيم المعرفي موضوعا هكذا من فراغ، بل هو تنظيم يستند على قواعد دلالية تجعل تفكيرنا وذهننا منظمين بطريقة محوسبة، فإذا ما حاولنا أن نعيد قراءة الأمثلة أعلاه بطريقة مختلفة سنجد أنفسنا منطقيا أمام العديد من المجالات المحوسبة بشكل دقيق جدا، وهي المجالات التي تختزل في شبكة واسعة المعارف التي تستند على قواعد دلالية ترجمها على الشكل التالي:

المجال الدلالي الفرعي (٣)	المجال الدلالي الفرعي (٢)	المجال الدلالي الفرعي (١)	المجال الدلالي
الصفحة	الفصل	الباب	الكتاب
اليوم	الشهر	السنة	الزمن
المدير	النائب	الرئيس	الإدارة

تعود إجراءات هذا التنظيم إلى الفرضية التي انطلق منها فكونبي في بناء نظرية الفضاءات الذهنية (١٩٨٦)^(١) التي شكلت أرضية مناسبة استفدنا منها أكثر في إثبات أن الذهن البشري مشكل من معجم معقد جدا، ولا أعتقد شخصا أن يكون متطابقا مع تنظيمات المعاجم العربية حتى وإن وصلت إلى أعلى درجات التنظيم، بل أعتبرها «سيمولاكر» عن الذهن البشري الذي يملك قدرة هائلة على تخزين المعلومة اللغوية ومعالجتها وتأويلها واستحضارها في وقت وجيز، بل حتى تنظيمها داخل مجالات دلالية ومعرفية محددة تنسجم مع سماتها التركيبية والنحوية، هو الشيء الذي يفسر التباس (٥٣)، لأنها لم تحترم التنظيم المعرفي بين ما يوجد في اللغة وما يوجد في الذهن، وعليه فالالتباس في ذلك يمكن أن يسقط أيضا على طريقة البحث، فكيف يمكن أن نتصور أننا نطلب من شخص أن يفتح الكتاب على الباب قبل الفصل والصفحة، سيكون الأمر أشبه بمن يضع حواجز أمامك لكي يمنعك من الوصول.

إن استناد توزيع هذه المعطيات الدلالية السابقة على مجالات دلالية كالكتاب

(١) تتأسس هذه النظرية على التأكيد أن حجم البساطة التي تترأى لنا في خرج (output) التركيب لا يتوازى مع حجم التعقيد الذي يكون على مستوى الذهن، بمعنى أن الجمل التي نتلفظ بها لا يتم انتقاؤها بالبساطة التي يمكن أن نتصورها بها، بل إن معالجة تلك البنى على مستوى الذهن يكون بشكل معقد جدا، لأننا ننتقي من التراكمات الجمل الاسمية والفعلية، وفي الحاليتين ننتقي الأفعال والأسماء... و ننتقي ما يوائمها من السمات الضرورية والكافية حتى يكون البناء سليما...

والزمن والإدارة يقوم في نظرنا على ضرورة تحديد الخصائص الدلالية لهذه الوحدات رغم تعقد قاعدتها الدلالية التي تعود كلها إلى منطلق عام نسميه بالمجال الرئيس، وهو المجال الذي يدفعنا إلى اعتبار الكتاب مثلا يدخل ضمن مجال رئيسي كبير هو المكتبات، لكن بمجرد أن نحول هذا الأمر إلى علم اجتماع الظواهر الأدبية الذي يطبق مفاهيم اقتصاد على الكتاب إذ يراهن على إنتاجه وتسويقه واستهلاكه لنكون بذلك قد أخرجناه من مجاله الأول الرئيسي إلى مجال آخر اقتصادي يجعل منه بضاعة قابلة للاستهلاك في سوق المبادلات التجارية بين القارئ (المستهلك) ودار النشر باعتبارها منتجة للسلعة (الكتاب)، وعليه فإن هذا التحويل في المجال الرئيسي للكتاب يعطي الانطباع أن المسؤول عن ذلك هي طريقة اعتبارنا للمجال الذي يتحول وفق حاجياتنا المعرفية منه، وهنا قد يسعفنا علماء اللغة في إنشاء قواعد مؤسسية على التنظيم الإدراكي المستند على المجاز والاستعارة والتأويل كمجالات فوق لغوية تسعف العارف باللغة في تكوين المعنى مهما كان السياق الذي ترد فيه.

٤ - ٣ المجالات الدلالية الصغرى

إن الهدف من وجود الدلالة في الدرس اللغوي هو البحث عن المعنى ومحاولة القبض عليه، لذلك تعددت النظريات والمقاربات بين علم اللغة والفلسفة والمعرفة، إلا أنها لم تستطع أن تجد حلا شاملا وتعريفا وافيا للمعنى، إلا أن ما اتفقت حوله كل المقاربات هو أن المعنى يخضع في كشفه إلى مجالات دلالية عامة تتفرغ هي الأخرى إلى مجالات صغرى غير رئيسية تضم المكونات التالية:

- الحب؛ الهوى؛ الشغف؛ الكلف؛ النجوى؛ الوصب؛ الود؛ الغرام؛ الوجد؛
العشق؛ الشوق؛ الهيام.

- الكتاب؛ الورق؛ الكتابة؛ الهوامش؛ الفهرست؛ المراجع؛ المصادر؛ الفصول؛
الأبواب؛ الصفحات...

- الألوان: الأحمر؛ الأخضر؛ الأصفر؛ الأزرق....

- الإدارة: الموظف؛ المدير؛ رئيس القسم، رئيس مصلحة، الرئيس.....

- الدولة: المواطن، رئيس الجماعة، رئيس العمالة، الوزير الأول، الحكومة،

الملك...

- المؤسسة التربوية: التلميذ؛ الأستاذ؛ الحارس العام؛ الناظر؛ المدير؛ النائب

الإقليمي، المدير الجهوي..

عندما ننظم معارفنا بهذه الطريقة المحوسبة، فإننا نعكس بشكل أو بآخر قدرة الإنسان على تصور المعنى نفسه بطرق مختلفة، بمعنى أدق فالمعاني التي تدخل في تأسيس المجالات المعرفية المشار إليها إنما تمتاز فيما بينها بحسب الأهمية التي يبررها (Focalisation) المتكلم لمعنى معين على حساب الآخر، وهذا سياق يجبرنا على اقتحام البواعث الحقيقية التي يوظفها الإنسان في كل هذه العمليات، أي أن الإنسان عندما يرغب في استعمال معنى معين فإنه يوظف عملية الانتقاء؛ وهي عملية ذهنية دقيقة جدا، فسوء الانتقاء السليم يؤدي إلى سوء الفهم، وسوء الفهم يقدم لنا صورة قاصرة عن اللغة، فإذا كان الأهم هو محاولة بلورة المعنى وإيصاله، فإن أي تعثر في ذلك يهدد العملية التواصلية بأكملها.

إن انتقاء العشق من المجال المعرفي المحيل على الحب يعطينا الحق في الكشف عن المسار الدلالي الذي يقطعه الإنسان في البحث عن المعنى المقصود وإصدار وقعه على سامع من المفترض أن يمايز بين العشق كدرجة من درجات الحب؛ اعتبارا أن الحب يتموقع على رأس قائمة المجال الدلالي الذي يؤسس له، ولتوضيح ذلك نتأمل الأمثلة التالية:

٥٢ - أعترف اليوم أنني أحبك

٥٣ - أعترف اليوم أنني أهواك

٥٤ - أعترف اليوم أنني أعشقتك

ما من شك أن أيّ أحد سيدرك أنه أمام معانٍ مختلفة بينها تمايز عميق، وأي عارف سيدرك أيضا أن ما تحمله لفظة الحب من معانٍ متمايز عمّا يحمله العشق في ذلك، وعليه، فإذا كان الحب عاطفة فطرية تولد مع الإنسان وتكبر معه، فإن الهوى تلميذ يخرج من مدرسة الحب حاملا وحالما بعالم لطيف لصيق بشعور الإنسان المتزايد بحب يفوق الحب الفطري ليصل إلى مستوى ميل النفس إلى الشهوة، أما العشق فهو مسار أبعد قليلا من الهوى لأنه يتحدد وفق مصوغ دلالي آخر يرتبط بفرط الحب وهو عجب المحب بالمحبيب، ليكون بذلك الهوى والعشق درجة من درجات الحب^(١)، لذلك يمكن أن نؤكد أن الحب والعشق قد يشتركان في القاعدة الدلالية نفسها، لكنهما قد يختلفان من حيث البنية الفرعية المحيلة على التدقيق في المعنى المراد استعماله وإيصاله.

من الطبيعي أن يساق أي باحث لغوي في الدلالة العربية نحو البحث في السبل

(١) من مؤكد أن ما ينطبق على الهوى والعشق ينطبق على باقي المكونات الدلالية التي تدخل في صلة مع الحب، فهي تحيل على الحب لكنها لا يمكن أن تكون على الدرجة نفسها، في مجالات دلالية فرعية لها أساسها وسماتها لكنها لا يمكن أن تكون على نفس الدرجة في التعبير على الحب. الحب متباين فيها بحسب قوة الشعور أو ضعفه كما هو مبين في التحديدات التالية:

- الشغف: أولى درجات دخول الحب إلى القلب؛

- الكلف: الولوج بالشيء مع شغل القلب ومشغته؛

- النجوى: الحرقلة أو شدة الوجد من الحب أو الحزن؛

- الوصب: الألم من شدة الحب؛

- الود: خالص الحب وألطفه وأرقه؛

- الغرام: التعلق بالشيء تعلقا لا يستطيع التخلص منه؛

- الوجد: التفكير في المحبوب والحزن الدائم من جراء ذلك؛

- الشوق: نزوع النفس إلى المحبوب مع التعلق به؛

- الهيام: الجنون الخاص من كثرة الحب والعشق.

التي تقود نحو بناء المعنى، وهذا البناء قد يصطدم بالعديد من الإكراهات التي تحول دون تشخيص مستبطن للمعنى في علاقة ذلك بالمعنى المشترك، فلو تأملنا عبارة أحب وعشق سنجدهما يحملان سمات مشتركة عامة:

- أحب: [عاطفة؛ فطري؛ شعور؛ إحساس...]

- الهوى: [حب؛ الميل؛ الشهوة؛ إحساس له علاقة بالنفس]

- العشق: [حب؛ عاطفة؛ الفرط في الحب؛ الإعجاب...]

رغم أنها تحمل الكثير من السمات المشتركة بينهما إلا أن العبارات تكاد تكون متميزة بالقياس إلى طبيعة الاستعمال، فقد نحمل في اعترافنا للزوجة بالحب كل معاني الود والإخلاص والشعور والإحساس، لكن مع توالي الوقت قد ترتقي هذه العاطفة في سلميتها لتنتقل إلى الهوى، ليكون الهوى حاملا للحب بكل معانيه زيادة على ما يحمله الحب من معان إضافية أخرى، والأمر نفسه ينطبق على العشق إذ قد يتحول الهوى إلى عشق له درجة الفرط في الحب تجاه المحبوب، وعليه فقد نطلق في تأسيس المعنى من المشترك (الحب)، لكن سرعان ما نجد أنفسنا أمام معاني جديدة مختلفة بالنظر إلى القاعدة القائلة أنه «لا يوجد في اللغة إلا الاختلاف» دوسوسير (١٩١٦). وهذا أمر لا نجده فقط في اللغة العربية، بل حتى في لغات أخرى قد نصادف الأمر نفسه، فعندما نعبر عن معنى القرب في الفرنسية مثلا نستعمل عبارتي «Proche de» و«Prés de» اللتين تبدوان أنهما تحملان المعنى نفسه، إلا أنهما متميزتان بالنظر إلى طبيعة المجال الموظف والمستعمل في سياق التواصل، لتأمل الأمثلة التالية:

55 - Je suis plus proche de ma maison

56 - Je suis plus près de ma maison

57 *- Les deux couleurs près l'un de l'autre

58 *- Un ami près de moi

رغم أن عبارتي «Proche de» و«Prés de» تحملان المعنى نفسه، إلا أن مجال تطبيق كل واحد منهما قد يكون مختلفا عن الآخر، وهذا ما يفسّر أنه لا يوجد في اللغة فعلا إلا الاختلاف، والاختلاف هنا مؤسس على المجال وليس على المعنى، إذا إنه بمجرد أن نقلنا العبارتين من مجالهما الأصلي نحو مجال الألوان تسقط البنية بشكل تلقائي لكونه لا تتوافق سماته مع السمات العامة المؤسسة لـ «prés de» بسبب أن الألوان لا تقاس درجتها بالقرب بل بالاندماج، وعليه فرغم أن اللفظتين قد تحملان المعنى نفسه في مجال معين للاشتغال والاستعمال، إلا أنهما قد يختلفان إذا تغير مجال الاستعمال بحسب الموضوعات المقترنة بسياق القرب في الفرنسية^(١).

لا يمكن أن يجد أي باحث لغوي صعوبة في فهم أن اللغة تبنى على دواعي مترامية الأطراف، لكن من الممكن جدا أن نقدم حولها العديد من المقترحات التي تبدو في عمقها بحثا في السبل التي تقودنا نحو القبض على المعنى المضطرد، فمن الملاحظات المهمة التي تصادفنا في هذا الباب أن نجد العبارات التالية:

٥٩ - خيط: أراني إياك واقفا على خيط في علاقتك الزوجية.

٦٠ - حبل: حبل الود بيني وبينك متين.

٦١ - جمل: «حتى يلج الجمل في سم الخياط» الأعراف الآية ٤٠.

من أشد الملاحظات التي يمكن أن نؤسسها هنا هي أن الخيط والحبل والجمل تنطلق من قاعدة دلالية واحدة، إلا أنه قد يتفرع إلى مجالات أخرى فرعية تنظر إلى الخيط في علاقته بالحبل باعتباره أقل سمكا وصلابة وحجما، وعندما نستحضر هذه الخصائص نجد أنفسنا أمام سمات جوهرية تمايز بين الخيط والحبل من جهة وبين

(١) اقتطفنا المثاليين ومقاربتهم من كتاب: مدخل إلى النحو العرفاني لعبد الجبار بن غريبة (٢٠١٠)، الصادر عن دار مسكيلياني للنشر، سلسلة لغويات، كلية الآداب، منوبة، تونس.

الحبل والجمال من جهة أخرى، بالنظر أن الجمال هو حبل السفينة الغليظ والضحخم من ليف. وبالتالي، فرغم انطلاق الخيط والحبل والجمال من القاعدة الدلالية نفسها إلا أنها تبدو في عمقها متميزة بالنظر إلى طبيعة الخصائص التي تحملها، وعليه قد نجد في اللغة العربية مقاسات معرفية جوهرية تدفعنا إلى التأكيد أن بناء المعنى الذي ينطلق من القاعدة كوحدة قد يدخل في تمايز مع بقية المعاني الأخرى إلى طبيعة الخصائص التي تحملها.

تدخل اللغة العربية في اشتراك مع اللغة الفرنسية في هذا الباب، لتتأمل السياقات التالية:

62 - Je passe toujours par cette **boulevard**

63 - Je passe toujours par cette **avenue**

64 - Je passe toujours par cette **rue**

65 - **Rue M6 , Avenue KASTOR, Boulevard ENNAHDA**

لا بد أن **Boulevard** و **Avenue** و **Rue** تنطلق من قاعدة دلالية واحدة، إلا أن هذه القاعدة تنكسر مجرياتها العادية مباشرة بعدما ينتقل مجال الاستعمال من اللغة إلى التوظيف التواصلية للكلمات، فعندما نصادف أن الفرنسية تعبر عن مجالاتها بمفردات مختلفة، فالأكيد أن المعاني التي تحملها كل لفظة لا بد وأن يكون مختلفا ومتميزا عن الأخرى، هو التمايز الذي يبني على العديد من السمات والخصائص التي تجعل من **Boulevard** و **Avenue** متميزان من حيث الحجم والطول والمسافة عن بعضهما البعض، ومتميزان عن **Rue** التي لها ارتباط بالتحديد المكاني الذي يضبط التواجد ويحدد موقعه الجغرافي والفضائي بشكل محدد. بمعنى أن المتحكم في بنائها التركيبي هي طبيعة الخصائص المرتبطة بالمسافة والحجم والطول.

إن هذا التحديد الدقيق في الاستعمال يعود بالأساس إلى الوعي الكامن عند الإنسان أن Rue هو ذلك الممر الذي يشق الشارع الذي تصطف على جانبيه البيوت والمباني أو الممتلكات، أما Avenue فهو الطريق العام الذي تحده الأشجار من الجانبين، أما Boulevard فهو المكان الذي يصطف فيه الشارع بشكل أكثر اتساعاً من الطريق، فهو أساساً شرايين المدينة ومنتفستها الذي يتيح لنا المشي والتجول على جانبيه. وبالتالي فإن التمايز بين الحي والشارع والطريق يتحدد بالسماط الطول والحجم والمسافة، وهي سمات تشتغل بشكل نسقي لتجعل بينهم تمايزاً في المعنى والاستعمال؛ قياساً على ما هو موجود في اللغة العربية التي تمايز هي الأخرى بين الشارع والحي والزقاق والطريق... المهم أن هذه الاستعمالات تنطلق في بنائها من قاعدة دلالية واحدة إلا أنها قد تتمايز من حيث الهندسة العامة المتدخلة في بناء وتشكيل المعنى^(١).

إذا كانت كل لغات العالم، ربما، تحمل في طياتها إقامة هذه التوازنات المنطقية والمحوسبة، عندما تمايز في الاستعمال بين المنطلقات الدلالية والقواعد الدلالية والسمات والخصائص التي تميز كل لفظة عن الأخرى من حيث مؤشر المعنى الذي تحيل عليه، فإن ذلك يؤشر بشكل كبير على التنظيم المعرفي الذي يملكه الإنسان الذي يعمل على تنظيم معارفه وفق منطق محوسب ودقيق وعميق، فهو يعي جيداً أن المسار المعرفي الذي يقطعه على مستوى ذهنه يكاد يكون معقداً جداً يفوق مستوى تصورنا للغة بالبساطة التي نرى من خلالها موضوعات العالم، أو لنقل أن التعقيد الذهني لا يتوازى مع حجم البساطة التي ننجز بها اللغة، مما يزيد مرة أخرى من التأكيد أن اللغة

(١) نصادف في اللغة العربية الكثير من العبارات التي تنطلق من قاعدة دلالية واحدة وتختلف في السماط المحيلة على المعنى (همس؛ تكلم؛ صرخ....)، (ضحك؛ ابتسم؛ وقهقهة..)، قياساً على الفرنسية والانجليزية..

تعبير عن عجز الإنسان وليست تعبيراً عن قوة رغم أنه استطاع أن يحول اللغة من مجال الطبيعة إلى مجال الثقافة بالمقارنة مع باقي الحيوانات، إلا أن ذلك يعد أكبر دليل على ضعف الإنسان وليس قوته.

٥ - الوظائف الدلالية: نحو تصور جديد للجملة والمركب.

قبل أن نتطرق إلى مجموع الوظائف الدلالية المتدخلة في بناء المعنى يجب أولاً أن نوضح أمراً مهماً مرتبطاً بأوليات الدلالة التصويرية التي راهنت بشكل كبير على ضرورة الترابط الحاصل بين اللغة والعالم في ذهن البشري؛ لتحديد طبيعة التعالق الذي يجمع بين التمثيل الذهني للجملة والتمثيل الذهني للعالم، لأن كل ما هو معرفي هو في الأصل بحث في المبادئ العامة التي تتدخل في بناء المعارف الدلالية في ذهن وتنظيمها واستعمالها، بمعنى وضع آليات هندسية عامة تراعي كل مناحي اللغة بهدف حساب المعنى بالاعتماد على الشبكة المفاهيمية التي تبلورت في إطار الدلالة التوليدية التي ميزت بين البنية النحوية باعتبارها بنية نفسية وبين النظرية اللغوية باعتبارها نظرية ذهنية^(١)، إلا أن ما يعاب على هذا التمييز كونه تقني لا يراعي الجوانب الطبيعية للغات.

دعا جاكندوف (١٩٨٧) إلى ضرورة الانتباه إلى مسألة مهمة ترتبط بالمسلمة العامة التي انطلق منها في تحديد الدلالة التصويرية كون أن المعنى في اللغة الطبيعية بنية معلوماتية مرمزة (Encoded) في ذهن البشري، اعتباراً أن المعاني اللغوية هي معلومات ذهنية، وبما أنها كذلك وجب أن تنضبط مع المعلومات غير اللغوية، ومن هنا يتجسد الارتباط الجوهرية في الدلالة التصويرية بين طبيعة المعنى وطبيعة الإدراك والمعرفة البشرية، إذ يستلزم هذا الترابط بين الدلالة والتصوير والمعرفة رصد

(١) للمزيد من المعطيات يرجى الاستعانة بمؤلف المعنى والتوافق لأستاذنا محمد غاليم الصادر عن عالم الكتب الحديث (٢٠١٠)، ص ٢٧-٢٨.

العلاقة بين اللغات الطبيعية والأنساق المعرفية والإدراكية الأخرى، على اعتبار أن المعاني محملة عن طريق اللغة بطريقة منسجمة مع طبيعة التجربة؛ مما يدفعنا نحو القول بالمعرفة التصورية كمعرفة ضرورية لمقاربة البنية التصورية غير اللغوية^(١) وهي التجليات التي تقوم على استثمار العديد من الوظائف الدلالية لبناء أوليات ومبادئ تتأسس عليها البنيات التصورية الممكنة.

على هذا الأساس وجدنا أن الوظائف الدلالية في اللسانيات تقوم على ضوابط أساسية ومحددة بحسب روائز الاستعمال التركيبي؛ أي أن محددات التركيب السليم لا تنضبط قوائمها إلا من خلال الوظائف التي يضطلع بها الفعل والفاعل والمفعول في الجملة الفعلية، والاسم والخبر في الجملة الاسمية وهكذا؛ أي أن وظيفة الفعل في الجملة الفعلية هي المحور الذي يقوم بإسناد دور دلالي إلى الفاعل لينفذ الفعل، ودور الفصلة إلى المفعول ليقع عليه فعل الفاعل، وهي وظائف متداولة ومعروفة، إلا أن الشيء الذي نريد أن ندفع به في هذا المحور من البحث هو الجواب عن سؤال جوهرى مفاده: ما موقع الوظائف الدلالية ضمن الدلالة المعرفية؟ وكيف تنتظم داخل التركيب؟

لمحاولة الإجابة عن هذا التساؤل وجب في البداية أن نؤكد أن الفعل وحدة معجمية معزولة، وأن المركب الفعلي هو مجموعة من الوحدات المعجمية، أن الوحدات المصاحبة في التركيب هي مجموعة من العناصر الصرفية والنحوية، والأمر نفسه ينطبق على بقية المركبات الاسمية والوصفية... مستندي في ذلك على منطلقات معرفية تؤكد أن حجم المركب سواء أكان مفرداً أو جملة فإنه لا يعدّ مقياساً جدياً للتمييز بينهما ما دمنا نصادف في اللغة العربية الكثير من المركبات الاسمية المكونة من مفردة واحدة (زيد؛ فاطمة، عمر...)

(١) محمد غاليم (٢٠١٠)، المعنى والتوافق، عالم الكتب الحديث، ص ٣١-٣٢.

بناء على هذه المعطيات يمكن التأكيد أن التوجه المعرفي في الدلالة لا يمكن أن يقف عند حدود الخصائص الصرفية أو التركيبية؛ لأنه ببساطة لا يعترف بها في مستواها المستقل، إذ نعتبر أن كل الخصائص البنيوية تكشف عن وجود تباين دلالي لا تعدو كل المستويات إلا تجليا من تجلياتها، وعليه، فإن الاختلاف بين الأفعال/ الأسماء والمركبات الفعلية/ الاسمية لا يمكنه أن تظهر تماثله في خصائص صرفية أو تركيبية متباينة، وإنما هي ضرورة أملتتها ضرورات دلالية ذهنية ومعرفية، بناء عليه، فإن تحديد الفعل أو الاسم كونهما مشكلين من مجموعة الوحدات التي تنسجم وفق علاقات محددة، لا يمكن أن يقود نحو رصد التمايز بين الأفعال/ الأسماء والمركبات الفعلية/ الاسمية، وإنما يمكننا ذلك من تبيان الخصائص التي تسمح بتحديد المدلولات العلائقية بينها، لذلك نقترح أن المضمون الدلالي لـ«كلب» مثلا لا يتجاوز حدود تخصيصه بسمات الجنس أو النوع، وأن هذا التخصيص هو الذي يتيح لنا إمكانية التعرف عليه بالنظر إلى مجموع الوحدات الممثلة لمقولة من المقولات، إلا أن هذه المدلولات هي التي تدفعنا نحو وضع تدقيق صارم يجعل من الأسماء وحدات دلالية تضطلع بوظائف تحدد طبيعة الاسم المقولية^(١)، فكل تركيب يجب أن ننظر من خلاله إلى مستويات تنظيم المركبات الفعلية/ الاسمية من حيث طبيعة العمليات الدلالية التي يقع عليها الانتقاء المحوري، وبالتالي تكون وظيفة المركب الاسمي هي الإشارة إلى شيء يمكنه أن يثير كل اهتماماتنا، لأن الغرض الرئيسي من ذلك هو بيان مساهمته في علاقة أو حدث معين، وهي العملية ليست بسيطة؛ لأن الملكة اللغوية تتكون من عدد كبير من الوحدات التصورية التي تكون عبارة عن مجموعة من العمليات المعرفية الإضافية، هي العمليات التي تترجم في شكل هندسات عامة لها ارتباط بالفكر البشري

(١) قدم الأستاذ الفاسي الفهري (٢٠٠٣) تصنيفا لطبقات الأسماء والأفعال موازيا لإيهما بناء على مجموعة من المعايير التركيبية والدلالية، محددًا الأفعال في طبقات هي الاتمامات والانجازات والأنشطة والحالات، ومحددًا الأسماء في الكتلة والجماع والفرادة والجنس.

كإشراف رأس المركب الاسمي على خصائص الجنس أو النوع أو الفرادة أو الكتلة^(١). وإشراف رأس المركب الفعلي على السمات المقولية المحيلة على الإتمام والانجاز والنشاط والحالة. باعتبارها نواة مركزية لا تسمح بتسريب أي عنصر خارجي يمكن أن يسقط التركيب كالمحدودية والمعدودية، فتسویر الرأس لمقولاته يدفعه إلى احتوائها ممّا يدفعنا إلى إنتاج تراكيب من قبيل:

٦٦ - أربعة رؤوس نووية

٦٧ * - رؤوس أربعة نووية

إن لحن البنية الثانية يؤكد لنا أمرا مهما في إطار الدلالة المعرفية وهو أن تدخل العمليات الدلالية هي التي تدفع نحو ترسيم قاعدة المدلول والعمل على تسويرها

(١) اقترح أستاذنا عبد القادر الفاسي الفهري تصنيفا لطبقة الأسماء قسمه على أربع طبقات أساسية تتوزع وفق مجموعة من السمات هي:

- الفرد: كلب [+ذري][+فرد]

- النوع: السمك [Ø ذري][+فرد]

- الجُمَاع: الفريق [+ذري][+فرد]

- الكتلة: زيت [Ø ذري][+فرد]

وقد بنى الأستاذ هذا التصنيف على سمتي [+/- ذري][+/- فرد]، وهما سمتان ترتكزان على التجزيء، فسمّة الذري هو ما يملك أو لا يملك خاصية التجزيء إلى وحدات أساسية تشكل الكل، في حين أن الفردي فيبنى على إمكانية العد أو عدم إمكانية العد وفق طبيعة الاسم. وهي تصنيفات تسعى إلى تنظيم معرفنا قبل أفكارنا.

في مقابل هذا التصنيف لطبقات الأسماء نجده يضع تصنيفا موازيا لطبقات الأفعال على النحو التالي:

- الإتمام - الإنجاز - الحالة - النشاطات

وهي الطبقات التي تنسجم مع تصور يجعل من الطبقتين متوازيتين، رغم أننا قد نصادف الكثير من الكلمات قد لا تنسجم مع التصنيفين، إلا أن القاعدة العامة تقول بضرورة البحث عن المضطرد، أما ما لا يتوافق مع القواعد العامة فيجب أن يخضع لمقاس قاعدي جديد يفعل وفق آليات تحليلية عميقة ومحوسبة.

(Quantifier)، ممّا يؤكد أن البنيات الدلالية هي بنيات قاعدية عامة قد نجدتها في أغلب لغات العالم التي نعرفها.

إذا كان من الضروري أن نبحث في هذا الفحص عن الوظائف الدلالية التي تختص بها طبقات الأسماء، فإن الدلالة المعرفية توفر إمكانيات هائلة تجعل من المركب الاسمي مثلاً مركباً يشغل جزءاً محدداً لا تتم مقوماته إلا عبر تطبيق عمليات التسوير والترسيم، الشيء الذي يجعل من الكمية والنوع والجنس مثلاً وحدات لغوية متميزة لا تتدخل في التركيب إلا وهي محملة بكل خصائصها الدلالية التي تتمظهر في شكل وظائف تدفع بكلمة «الرباط» مثلاً محيلة على جنس معين (مدينة) وعدد ووظيفة تواصلية تجعل من الكلمة معرفة مشتركة بين المتكلم والمخاطب.

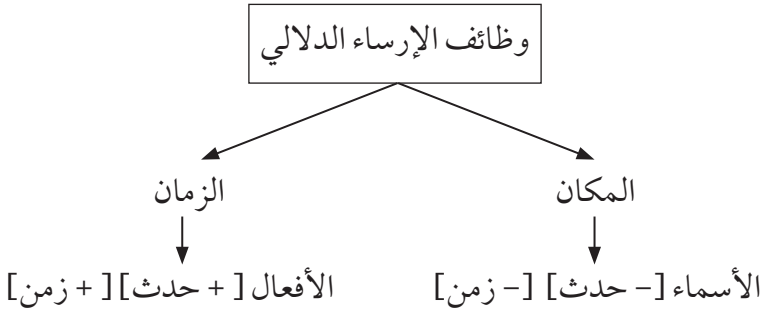
عندما نتحدث الدلالة المعرفية عن الوظائف الدلالية فإنها لا تولي أهمية كبرى إلى ضروب التمييز بين العدد والجنس والنوع والفرد، على الرغم من أن هذه المقارنات تعيدنا إلى المقارنات القديمة التي انبنت عليها المبادئ الأولى للدلالة التصورية عندما كانت تمايز في المعنى بين الصدق والمرجع، بمعنى آخر أن الدلالة المعرفية تركز على الطريقة التي نعتمد عليها في بناء إدراك الأحداث والحالات وتصورها، والعمل على صياغتها تركيبياً. لنحاول أن نقرأ الأمثلة التالية:

٦٨ - يزعجني نباح كلب جاري

٦٩ - يزعجني نباح الكلب جاري

لا تحدد قيمة (الكلب) أو (كلب) في كون الفرد أو المركب الاسمي ينبني على مرجع يكافئ عادة ذاتاً معينة لها تحقق في العالم المادي الخارجي، وليس معادلاً موضوعياً لمجموع الأفراد الموجودين في العالم الخارجي، بل إن الوظائف الدلالية للمركب الاسمي تتحدد بناء على طبيعة التصور الذي يحدد بناء على إرساء خصائص الجنس التي يتضمنها الاسم، وبهذه الكيفية يمكننا أن ننجز مركباً اسمياً نشير من خلاله

إلى تصور الفرد من أفراد الجنس حتى في أقصى الحالات التي لا شيء يخصصه فيها، بل حتى في الحالات التي لا يكون فيها أي مرجع في العالم الخارجي، لا ريب في أن التمييز بين الفرد والجنس يتأسس هنا على الطريقة التي نركز عليها في إدراك الأحداث والحالات وتصورها وصياغتها تركيبيا؛ بمعنى أن سمة الفرد هنا تنزل منزلة كونها وحدات تصويرية لا غير^(١)، وعليه يمكن أن نحدد أن إنجاز فعل المقولة يرتبط بمفهوم الإرساء (L' Instanciation) الذي يحدد وفق مجال فضائي متصور، نتصور فيه أن كل وحدة تنتمي إلى مقولة ما يجب أن توجد فيه، فالمكان هو مجال إرساء الأشياء المادية، والزمان هو مجال إرساء الأحداث والعلاقات المعرفية^(٢). وهو تحديد يقودنا إلى مقولة الأسماء باعتبارها وحدات ترسي في المكان لأنها قابلة للتموقع في فضائه، في حين أن الأفعال ترسي في الزمان لأن كل وحدة تحيل ضمنه يجعلها مقولة متميزة قادرة على رسم حدث محدد في الزمان، فيكون التصنيف المعرفي المبني على الوظائف الدلالية لهما مبين على الشكل التالي:



(١) يتنافى هذا التحليل المقترح في رصد العلاقة بين الجنس والفرد مع الأدبيات التصويرية التي كانت تربط بين المعنى والصدق أو بين المعنى والمرجع، على اعتبار أن الدلالة المعرفية لا يولي أهمية كبرى للواقع المادي مما ينعكس على قيمتي الصدق والكذب اللتان لا مكان لهما في إطار بناء المعنى لارتباطها بالواقع، في حين أن الدلالة المعرفية تتعلق بالإدراك وآليات بناء المعنى كتصورات ذهنية وعمليات حاسوبية ترتبط بمكانزومات اللغة عند الإنسان.

(٢) مدخل إلى النحو العرفاني، ص، ١٠٢

من المؤكد، إذن، أن مفهوم الإرساء من المفاهيم المركزية في الدلالة المعرفية التي تسعى إلى وضع تمايز بين الجنس والفرد بالنظر إلى التطور الذي يمكن أن يخضع له، الشيء الذي يدفع نحو تصور الحدث باعتباره جنسا أو فردا متميا إلى الجنس، وكذلك الأشياء المادية لا يمكن لها أن تتجاهل السمات المتعلقة بالشكل التي لا يمكن أن نجد لها تصورا إلا في فضاء مكاني، فالشكل المميز للكلب مثلا يعد أساسيا في تصور جنس المقولة [كائن حي؛ له وبر؛ له شكل معين، لاهت، يتموقع مكانيا ضمن مجاله عبر سمتي السعة والامتداد....] مما يسمح لنا من ضبطه واحتوائه بالنظر إلى السمات التي تميزه...

إن الدلالة المعرفية عندما تنظر إلى الاسم أو المركب الاسمي فإنها تعمل على تجاوز الأدبيات الدلالية التي كانت تفصل في المعنى بين المرجع والصدق والاستعمال، إذ تحدد ذلك وفق آليات مبنية على طبيعة السمات المحددة للمقولة، بناء على ذلك فهي تعيد النظر في طبيعة التصنيفات التي وضعت للمقولة كما وردت عند جاكندوف أو الفاسي الفهري، منطلقة في ذلك أن الاسم هو جنس أو فرد أو كثلة له إرساء مكاني مبني على الامتداد والسعة، وعلى هذا الأساس تبني طبيعة التصور الذي نبنيه حوله، إلا أن الشيء المثير هنا ربط الأسماء بالمجال الذي يرد فيه مكانيا، فتصوراتنا للأجناس وتصوراتنا للأفراد تشترك في تعيين وحدة محددة في مجال الإرساء. وهذا في نظرنا كاف لكي نخرج الدلالة من التحليل التصورية السابقة (كاتز، فدور) ويدخلها ضمن مجال التصور لكن باعتباره مجالا معرفيا يركز على الغنى المعلوماتي الدقيق المصاغ في إطار المستوى الذهني للبشر، وهذا دليل يرجح أن تكون الدلالة عنصرا مهما وحاسما في بناء التصورات المسقطة على المدلولات الموجودة في العالم الخارجي، أي أن التصورات التي تتمثلها هي التي تدفعنا نحو بناء بنيات لغوية تكون دلالية المحتوى وبنوية التركيب.

على هذا الأساس نسجل أن المركبات الاسمية هي مركبات مستقلة تصوريا وداليا، بالنظر أن الشيء الذي نحيل عليه يمكن تصويره دون أن يكون طرفا من أطراف أي علاقة من العلاقات (الرجل، هند، زيد، المدرسة...) بمعنى أن الإحالة عليه لا تقتضي أبدا الاستعانة بموضوعات أخرى تساعد على بناء الدلالة، بل إن الإحالة على المدرسة أو الرجل تدفع نحو تصورنا إياها ضمن فضاء زمني ومكاني مستقل لذلك فإن حاجتنا إلى إدراك هذا لا بد أن يمرّ عبر ربط الصلة بين التصور والذهن حتى يكون تمثلا لدلالة الفعل / الاسم والمركب الفعلي / الاسمي دلالة معرفية قوية لأن تصورنا لوجود حدث في حيز زمني محدد كاف لتمييزه عن باقي الأحداث الأخرى؛ حتى وإن وجد حدثان في نقطتين مختلفتين، فذلك لا يفسر من زاوية أيهما فردان متميزان ينتميان لنفس الجنس، لكن، في مقابل ذلك، لا يمكن اعتبارهما فردا واحدا. وبالتالي نصل أن بنية المركب أكثر تعقيدا من بنية الجملة.

عندما نتحدث عن الاسم / الفعل والمركب الاسمي / الفعلي، فإننا نفصل ذلك عن مكون الجملة التي تعتبر في نظرنا أكثر تعقيدا بالنظر إلى أن الفعل فيها يكون تابعا من الناحية التصورية لطبيعة العلاقات الدلالية التي تجمعه مع باقي مكونات الجملة، وهو الأمر نفسه الذي ينطبق على الاسم في علاقته بالجملة الاسمية، إذ لا يمكن لأي واحد منا أن يتصور علاقة ما دون استحضار الوحدات المساهمة فيها، بمعنى أن اللسانيين قد تعودوا أن يوزعوا الجملة على مجموعة من المكونات الأساسية التي يكون فيها الفعل محورا عاملا حاملا لمجموعة من السمات الأساسية كالوجه والتطابق والزمن... وتحتل فيها الموضوعات مواقع محددة حسب طبيعة الدور الدلالي المسند لها (فاعل / منفذ أو مفعول / فضلة..، بمعنى أن طبيعة الفعل تجعله فعلا معجميا يحمل سماته تحققة في التركيب كمحور يوزع وظائف دلالية على موضوعاته، أما سماته التي تجعله منخرطا في التركيب فهي سمات دلالية تحيل على مضمون معين أقل تجريدا

من مضمون باقي مكوناته، وهو الأمر الذي عبر عنه النحو التوليدي بالتحكم المكوني (C- command) المبني على الإشراف، أي أن الفعل يتحكم مكونيا في موضوعاته ويشرف عليها لا فقط تركيبيا بل حتى دلاليا.

مما يزيد من تأكيد الفرضيات التي انطلقنا منها في تحليل الفعل والمركب الفعلي أنه يبدو لنا أن هذه المقاربة لا تستند إلى مقاييس تهتم الفعل بما هو فعل رئيسي في التركيب، إذ نقترح، تبعا للانفاكير مقارنة أخرى تقوم على أساس أن الفعل الرئيسي هو ذلك الذي تتجلى فيه سمات ربط العلاقة الزمانية بحدث الخطاب، أي بزمانه وبالأطراف المشاركة فيه، وتنحو هذه الرؤية نحو اعتبار أن الفعل هو العنصر الذي تتوفر فيه كل مقومات الربط بين زمن الحدث والخطاب من منطلق أن الاعتبارات النحوية والتركيبية التي تنظر إلى سمات الزمن والوجه والجهة كسمات مكونة للمركب الفعلي، بمعنى أنه لو أعدنا الحديث عن مكونات المركب الفعلي سنجد أنه مكون من فعل مساعد وفعل رئيسي على أساس أنه رأس المركب الفعلي في الجملة^(١).

٦ - المعرفة الدلالية والمعرفة النحوية.

من المؤكد أن اللسانيات التقليدية غالبا ما كانت تربط الفعل بسماته، وهي السمات التي عبر عنها بالمقولات الوظيفية أو الإسقاطات الوظيفية التي كانت تضم

(١) إذا كانت اللسانيات التقليدية تنظر إلى تحليل الجملة وفق ما قدم سلفا، فإننا نقترح أن يكون ذلك له أساس دلالي أكثر منه تركيب، ودليلنا في ذلك يعود بالأساس إلى أن الزمن والوجه والجهة عناصر تربط بين الحدث كنقطة مرجعية وحدث الخطاب كنقطة إحالية، أما الزمن فإنه يؤثر الحدث باعتبار زمن التلفظ، بينما تقوم الجهة على مسألة موقف المشاركين من عملية الخطاب. المهم أن كل السمات المتدخلة في بناء دلالة الفعل وموضوعاته لها وظائف دلالية خاصة تدفع نحو سلامة التركيب، بينما العناصر التي تشكل المركب أو الجملة فيها محددات ترتبط بطبيعة العلاقة الجامعة بين بنوية الجملة ونسقية التركيب، إلا أن الجمع بينهما لا يستند على عرف مائع واعتباطي، بل إنه يستند على منطلقات دلالية تتمظهر في شكل وظائف مسندة بناء على قواعد التأليف كما وردت في إطار اللسانيات التوليدية.

الزمن والوجه والجهة والتطابق... وهي إسقاطات تنظم عملية النقل وتصوغه، إذ تنتظم وفق علاقات صارمة تضمن سلامة الجملة وتحفظ لها تركيبها السليم، لذلك نُظِر إلى الفعل ومنه إلى المركب الفعلي باعتبارهما مجموعة من العمليات الحاسوبية التي تساهم بشكل كبير في بناء و«كبس» العديد من السمات والإسقاطات لكي يتم إخراج الفعل أو الجملة من مجال الذهن إلى مجال التركيب، وهو ما عبرت عنه اللسانيات بالفعل التركيبي.

لا تضمن لنا هذه المقاربة الحديث بشكل كبير عن دور الدلالة في بناء الفعل والمركب الفعلي، كما أنها لا تضمن لنا الحديث عن الاسم والمركب الاسمي من منظور إحالتهما على الكمية أو العدد أو الجنس... وهي الجوانب الخفية التي لا تظهر مع الاسم كما لا يظهر مع الفعل الزمن والجهة والوجه، مما اقتضت معه الضرورة إلى محاولة استقراء المعطيات السابقة والتأكيد أن ما عبرت عنه اللسانيات العامة بالفعل التركيبي ما هو في الأصل إلا فعل معجمي لأن كل السمات الواردة في بنائه تركيبيا هي في الأصل قواعد لبناء الدلالة العامة، فلو أخذنا مثلا عن ذلك من قبيل رقص أو ضرب باعتبارهما أفعالا أو استحضر أو تضارب باعتبارهما جملا، فكلّ هذه الوحدات المتدخلة في بناء المضمون كلها وحدات تمثل البنية الدلالية من منطلق اعتقادنا أنها عمليات تمثل تسويرا للعناصر المكونة للفعل أو للمركب الفعلي، وهو التسوير الذي يقيّد دلالة الفعل تزامنا مع محاولة إدراجه في تركيب معين، بمعنى أننا قبل أن نعمل على وضع الفعل في تركيب معين يجب أن نسوره بسماته الأساس كالزمن والجهة والتطابق والوجه من جهة، وسمات المحدودية والمعدود من جهة أخرى، لا باعتبارها سمات للتركيب ولكن باعتبارها سمات دلالية تضبط إيقاع الفعل ومستويات توظيفه في التركيب، وهي العمليات الكبرى التي نعتقد أنها عمليات ذهنية ينجزها كل متكلم للغة ما بهدف تحقيق سلامة التركيب، فتصوراتنا منتظمة وفق آليات ذهنية نشغلها

بصورة دقيقة وعالية الحوسبة، حتى دون أن نشعر بذلك، لكي نبني أنساقا دلالية تساهم في سلامة التركيب وفي سلامة ووظيفة الفعل العامة، فكيف، إذن، نمايز بين سمات الفعل تركيبيا ومعجميا؟

إن حدود اشتغال الفعل داخل المعجم هي نفسها الحدود التي يضعها النسق على كل المداخل المعجمية التي تشكله، انحسار الفعل في دلالة معينة ومعنى محدد يعني أن برمجه لا يمكن أن تخرج عن هذا الإطار، فيكفي أن تضرب موعدا مع الفعل 'ضرب' لتتأكد من حجم الدلالة التي يحملها الفعل وحجم المعاني التي يقتضيها، اعتبارا أن كل العمليات المتدخلة في بناء الفعل معجميا هي في الأصل عمليات هندسية فائقة الحوسبة والدقة، فما الذي يدفعنا إلى تصدير المركب بالفعل ضرب في:

٧٠ ضرب زيد عمرا

٧١ *رقص / *كان / *جرى زيد عمرا

إن ما يدفعنا إلى الحديث عن الفعل ضرب مثلا هو أننا نرمي إلى بناء نسيج من السمات في إطار علاقة الفعل بالمركب الفعلي الذي يرد فيه؛ بمعنى أن سمة الحدث كسمة معجمية هي التي جمعت بين عمر وزيد بالنظر إلى معيار التوافق أو التوازي الذي يجمع بين سمات الفعل ضرب وموضوعاته الدلالية التي يجوز الجمع فيها بين منفذ للفعل وضحية له، وهو الأمر الذي يسقط البني الواردة في (٧١) لعدم توافق السمات بين الفعل وموضوعاته، وبالتالي فإننا نخطط لرسم هندسة دلالية لذلك من منطلق السمات المعجمية التي يفرضها الفعل على مكوناته:

ضرب: [+ زمن]، [+ حدث]، [+ جهة]، [+ وجه]، [+ تطابق]، [+ معنى]،

[+ محور]

- [+ زمن]: الفعل ضرب يحمل زمن الماضي

- [+حدث]: يقتضي الفعل حدثا بضرورة إحداث الأثر على الضحية
- [+جهة]: جهة الفعل هي مجموع سمات الحدث^(١) المحيلة على التمام أو اللاتمام / الامتداد أو اللاتمام / الثبوت أو الحدوث...
- [+وجه]: وجه الفعل هي مجموع العناصر الصُرفية التي تلتصق بالفعل^(٢).
- [+تطابق]: يجب أن يفرض الفعل تطابقا مع موضوعاته رفعا للفاعل ونصبا للمفعول

- [+معنى]: يحمل الفعل ضرب معنى معجميا خاصا هو الأثر.
- [+محور]: يوزع الفعل ضرب مجموعة من الأدوار الدلالية على الفاعل ليكون منفذا والمفعول ليكون ضحية أو فضلة^(٣).

إن فرز كل هذه السمات باعتبارها قوائم معجمية تخصص الفعل ضرب وتمايزه هو الذي يدفعنا نحو الرد على كل التصورات التي كانت تنظر إلى المعجم باعتباره قائمة من المعطيات لا حوسبة فيها ولا نسقية، إننا، بهذه اللائحة من السمات، أمام شبكة من السمات المبرمجة بشكل دقيق ومحوسب وفق عمليات رياضية محددة، ونحن إذ نفترض أن كل واحد منا عندما يستعمل الفعل ضرب، فإنه يستحضر كل هذه البرمجة بشكل ثابت سواء عن واعي أو عن غير واعي. فكيف يتحول بناء الفعل من المعجم إلى التركيب؟

(١) عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٨٨)، البناء الموازي، ص: ١٦٨

(٢) عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٨٨)، البناء الموازي، ص: ٨١

(٣) تظل هذه السمات قليلة للزيادة بحسب طبيعة الفعل وخصوصية سماته الداخلية، لكن حضورها في الفعل يفعل بضوابط محوسبة بشكل دقيق على درجة كبيرة من الفعالية والدقة، المهم في العملية كلها أن بناء السمات يتشكل معرفيا من منطلق الخلفية المعرفية التي يبنها كل متكلم نموذجي للغة، ويستحضرها بشكل يجمع فيه بين المعرفة الدلالية والمعرفة النحوية في التركيب والاستعمال.

نصادف في لغتنا العربية الكثير من التراكيب التي تتلاءم مع وضع الفعل ضرب في الاستعمال كما هو واضح من خلال السياقات التالية:

٧٢- ضرب زيد في الأرض

٧٣- ضرب لي الرئيس موعدا

٧٤- ضرب القلب نبضا

٧٥- ضرب الضرس ألما

بمجرد أن نتلقى مثل هذه التراكيب سندرك أن الفعل ضرب الموظف هنا له معنى آخر غير المعنى الذي نصادفه في المعجم، وهذا يؤكد، منطقيا، أننا أمام برمجة جديدة للسّمات تتلاءم مع طبيعة الفعل من جهة وطبيعة المركب الفعلي من جهة أخرى، أو لنقل إن الحمولة الدلالية التي يقتضيها الفعل في التركيب لا تتوازي مع السّمات الدلالية التي برمجت له في المعجم، مما يفرض على الفعل أن يؤمن حضوره في التركيب من منطلق دلالي صرف يتجاوز من خلاله الثوابت المعجمية التي تقيد الفعل بسّمات محددة. ليتأكد لنا مرة أخرى أن التركيب ما هو إلا وجهة من وجائه الدلالة (Semantics Interfaces) فقط وليس مركزا أساسيا من مركزيات اللغة/الخطاب.

إن التحليل الدلالي للأمثلة أعلاه سيقودنا نحو وضع فهم جديد للفعل ضرب يدفع كل متكلم إلى برمجة هندسة لمضمونه أو محتواه القضوي وفق آليات دلالية تجعل من معنى ضرب في (٧٢) يحمل دلالة المشي، لذلك فإن السّمات التي يحتاجها ستسور من هذا المنطلق لتتسجم مع المدلول القضوي (المشي)، أما ضرب الثانية (٧٣) فهي تحمل دلالة أخرى مغايرة هي دلالة التلاقي في زمن ومكان محددين، ومنه يجب أن يسور وفق ذلك أيضا لكي تستجيب سمات التلاقي مع دلالة الفعل ضرب في

التركيب، أما ضرب في (٧٤) فهي تأخذ من سمات النبض ما يجعل القلب يضرب تحركا في دلالة على الحياة مما دفع بالفعل إلى انتقاء سمات مغايرة و متميزة عن الدالتين السابقتين، وهو أمر ينسجم مع حجم التوازي الذي يجمع بين فعل الضرب والنبض باعتبار سمة [+حركة]، في حين أن (٧٥) فهي تحمل دلالة أخرى للفعل ضرب في إشارة واضحة إلى حجم الألم الذي يضربه الضرس، بمعنى أن الحمولة القضية لضرب تختلف جذريا عن أنواع الدلالة السابقة من زاوية أن سمة [+ألم] هي التي دفعت نحو بناء دلالة جديدة تجمع بين فعل الضرب والألم من منطلق الضحية التي يقع عليها الأثر (الضرس)^(١).

إذن، بين المشي واللقاء والنبض والألم هندسات اقتضاها التركيب دلاليا وتصوريا، إلا أن الملاحظات المهمة التي يمكن أن نسجلها هنا هي أنه سواء المتكلم أو المخاطب يلتقيان معا في بناء مشترك دلالي وفق الهندسة المعرفية المشتركة التي يمتلكها الطرفان، وهي الهندسة المسؤولة على تقريب المعنى بينهما، إلا أن أي مشكل يعترض ذلك فإنه سيعترب عنه إنتاج عبارة: ماذا تقصد؟

ماذا تقصد؟ في نظرنا هي ترجمة فورية لخلل في بناء الهندسة الدلالية المتوافق عليها، وخلل فني في محاولة إيصال المعنى المقصود إلى المخاطب، وخلل معرفي يترجم أيضا العوائق التواصلية التي تنكشف عند العجز في بناء المعنى، إنها أيضا ترجمة للعوائق المعرفية التي نصادفها عندما نريد الجمع بين اللغة والدلالة والخطاب، مما يؤكد أن اللسانيات المعرفية تملك، من خلال مفهوم الهندسة الذهنية، جوانب مهمة

(١) من المؤكد أن الفعل ضرب يحمل الكثير من المعاني التي يفرضها سياق التركيب الذي ترد فيه، والعرب إذ تنظر إلى ذلك فإنها أدخلت الظاهرة ضمن ما عرف بالمشارك اللفظي. لكنهم اقتصروا في تحليل ذلك على سياق المعنى ولم ينتبهوا إلى مسألة السمات التي يكسبها المشترك، ونحن لا نضرب في ما أنجزه النحاة القدماء لكن نضيف إليهم ما أغفلوه في تحليلاتهم لظواهر اللغوية.

في فهم اللغة ومحاولة جديدة لوضع حوسبة لمعيارية المعنى، أي مراعاة كل الجوانب المتدخلة في بناء المعنى التي من المفروض ألا تمايز بين المتكلم والمخاطب، فالقدرات التي يوظفها الأول في نسج المعنى هي نفسها التي يوظفها الثاني في إدراكه وفك شفراته، وأي خلل في بناء ذلك يؤدي فوراً إلى إسقاط المعنى المعياري المراد إيصاله، لذلك نعتبر أن أي عملية تواصلية هي في الأصل عملية ذهنية ومعرفية معقدة تستلزم وعياً وحساً وحدساً يفوق ما نتصوره عادة حول الاستعمال البسيط للغة، لذلك نزيد من تأكيدنا أن اللغة تعبير عن عجز أكثر منها تعبير عن قوة.

خاتمة

حاولنا في هذا الفصل أن نجيب عن مجموعة من التساؤلات التي شغلت البحث في الدلالة المعرفية، محاولين وضع العديد من الفرضيات التي دعمناها بالكثير من الحجج والأدلة لنؤكد بموجب ذلك أن التنظيم المعرفي للغة عند الإنسان مشكل وفق آليات تصورية دقيقة وعلى درجة عالية من الدقة، محاولين في الوقت نفسه رصد مختلف التجليات التي تساهم في تنظيم المعنى دلالياً وتصورياً معتمدين في ذلك على فرضية الفضاءات التصورية كما طرحت عند كرانفور (٢٠٠٠) و(٢٠١٤)، مستفدين في الوقت نفسه من المقاربات التي وزعت أنسقتنا المعرفية على مجموعة من المحطات الأساسية، منطلقين من طرق تكوين التصورات وتعلمها، ثم طرق بناء الفضاءات التصورية داخل الذهن البشري، لنؤكد من خلالها أن نظرية الفضاءات التصورية لعبت دوراً كبيراً في تطوير الدلالة المعرفية.

الفصل الثالث

هندسة بناء المعنى

تقديم

تصورتنا مرآيا عاكسات للمشاعر والأحاسيس، معابر وجسور للتجربة، روابط مع التاريخ وإسقاطات للرغبات، فإذا كانت التصورات قد وضعت من أجل فرز حدود التمايز بين الموضوعات كما توجد في العالم وبين تمثيلاتنا على مستوى العقل، فإن ذلك قد ارتبط بمدى قدرتنا على تشكيل محتوى خاص بنا حولها، هو المحتوى الذي قد يحكم بمستوى إضافي متمظهر في البنية التصورية، وهو نفس ما ذهب إليه «كاتز وفدور» (٦٣) (Katz & Fodor) ^(١) و«كاتز» (٧٢) (Katz) ^(٢)، إذ عمدوا على ربط المستوى التصوري بالمستوى اللغوي بواسطة مكون الذريعات، وهو المستوى الذي يخصص العلاقة الموجودة بين المعنى اللغوي والخطاب، في حين قد نصادف تصورات أخرى نجد فيها أن «فدور» و«فدور وكاريت» (٧٥) (Fodor & Garrett) ^(٣) إلى جانب «تشومسكي» (٧٥) ^(٤) قد دافعوا عن فكرة أن البنيات الدلالية تعدّ فرعاً من فروع البنية التصورية، وتحديد البنيات التي يعبر عنها بواسطة اللغة. لذلك ظل الهدف هو محاولة الفصل بين هذين التصورين من خلال تطوير العديد من الظواهر اللغوية التي كثيراً ما ترتبط بمستويات التمثيل للمعنى في علاقة ذلك بالآليات التي تساهم في ذلك وعياً وإدراكاً وتمثلاً ^(٥).

(١) Katz & Fodor (63), **The structure of a semantic theory**, language , 39

(٢) Katz (72), **Semantic theory** , Harper & row publishers

(٣) Fodor & Garrett (75), **The psychological unreliability of semantic representation**. LI 6

(٤) Chomsky(75) ,**Reflection On Language** , Pantheon , New York

(٥) للتوسع في هذه المعطيات يرجى العودة الى فصل التصور الاستعاري للزمن، ضمن كتاب البنيات =

أيقنا اليوم أننا لن نكون الوحيدين الذين يتكلمون عن هندسة المعنى، فهو مجال مشترك تتداخل فيه العديد من الحقول والتخصصات، مثل علماء النفس والفلاسفة وأهل التقانة وعلماء الدين، إلا أن مجال اشتغالنا قد يتقاطع مع بعض هذه التخصصات ليس من باب التكرار؛ لكن من باب بناء نسق معرفي متكامل يتيح لنا مساحة واسعة من المعلومات التي سنحاول استثمارها بشكل دقيق لبناء نظرية معرفية في إطار مشروع الدلالة المعرفية، مما يدفعنا مباشرة نحو البحث في طبيعة العلاقة بين الإدراك وعلم الدلالة.

١ - العلاقة بين الإدراك وعلم الدلالة

تطلعنا كتب النحويين والبلاغيين العرب القدماء على مسألة الإدراك في علاقتها بصلب المعاني، فانشغلوا بهذا النوع من العلائق وفق تصوراتهم الذاتية ومرجعياتهم الفكرية والمعرفية والدينية، فنصادف ابن سينا مثلاً قد صنّف قوى الإدراك عند الإنسان إلى قوى الإحساس وقوى الإدراك العقلي، محدداً أن قوى الإحساس نوعان إحساس الظاهر (الحواس الخمس) وإحساس الباطن التي توزعت عنده إلى الحس المشترك والخيال والتوهم والذاكرة، والأهم أن لهذه الحواس علامة مشتركة بين الإنسان وباقي الكائنات الأخرى، أما الإحساس العقلي فيختص بالإنسان دون سواه. فما نفهمه من مراتب العلاقة أن العقل النظري عنده مجسد في العقل المطلق المتمظهر في الاستعداد البيولوجي للأطفال لاكتساب المعرفة، ثم عقل الملكة المجسد في إدراك أوليات المقولات كالأحكام العقلية البديهية، أما العقل بالفعل فله علاقة بالاستدلال والمبرهنات، وفي الأخير نجد العقل المستفاد وهي الغاية التي ينتهي إليها العقل النظري، لنصل إلى طرح السؤال التالي: كيف يمكن أن نتحدث عمّا نراه بموجب

= الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن لمؤلفه عبد الكبير الحسني، منشورات دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن.

علاقة الواقع بالإدراك؟ هذا سؤال له علاقة بمسألة الترجمة بين نوعين مختلفين من المعلومات: البصرية واللغوية.

تنطلق معالجة الإشارات اللغوية من شبكية العين قبل أن تنتشر عبر المخ، ويتم تحويل الرسالة إلى تمثيل مرئي قائم على برمجة لغوية يستوعبها الإنسان بشكل بيولوجي، إذ تمكن العلماء من وضع اليد على مواطن التحكم اللغوي في الدماغ عبر الكشف عن مجموع مستويات التمثيل في الدماغ، لأننا عندما نسمع قصة معينة، فإننا نشكل فوراً صورة داخلية حية من السرد، ويمكننا، بشيء من التوفيق، تحويل هذه الصورة السردية إلى تمثيل أو رسم تخطيطي عبر رصد المراسلات العميقة بين عمليات الإدراك الحسي وآليات التمثيل الدلالي^(١).

تقوم الفكرة المحورية للسانيات المعرفية على مسألة البحث في معاني التعبيرات اللغوية وغيرها من الأفعال التواصلية باعتبارها كيانات ذهنية. على سبيل المثال، ف«جاكندوف» (Jackendoff 1983) يميّز بين العالم الحقيقية وعالم الإسقاط، إذ يؤكد أنه لدينا كل إمكانيات الوصول إلى درجة الوعي بالعالم المتوقع أو المسقط، وهو

(١) إن تطور الصورة الوظيفية للدماغ Scanner سمح بتسليط الضوء على هذه الأسئلة التي شغلت بال الكثير من علماء النفس العصبي، فقام بعض العلماء (Cohen , Dupoux , Fazio et Mehler ١٩٩٦) بدراسة كمية تصريف الدم في الدماغ باستعمال كاميرا عند تسعة إيطاليين تلقوا الانجليزية بعد سن السبع سنوات لقياس تصريف الدم في حالة صمت، عندما كان هؤلاء الإيطاليون ينصتون إلى قصة باللغة الإيطالية (L١)، ثم باللغة الثانية الانجليزية (L٢)، ثم لغة ثالثة لا يفهمون فيها شيئاً، بيّنت النتائج على أن الأنشطة المرتبطة بسماع اللغة الأم ولغة ثانية اكتسبت مؤخراً متباينة، فمعالجة اللغة الأم يتركز على مناطق واسعة من النصف الأيسر للدماغ، بينما تكون الشبكة المتخصصة للغة الثانية أقل اتساعاً وتهتم النصف الأيمن. ثم إن كمية تصريف الدم في الحالتين جاءت متباينة، فكمية تصريف الدم عند قراءة القصة باللغة الأم تكون أقل مما عليه الأمر عند الذين يتلقونه بلغة ثانية، مما يؤكد عن عملية الفهم مهمة جداً في العمليات المرتبطة بالاكساب والتعلم.

فرق واضح يفصل بين الحقيقة والواقع النظري؛ إذ يمكننا أن نتحدث عن أشياء كثيرة بتوظيف عمليات التمثيل العقلي المنظم. وبالتالي فإن المعلومات التي تنقلها اللغة يجب أن تكون عن العالم المتوقع أو المسقط. والإسقاط هنا هو درجة الوعي التي تربط بين العالم الحسي والعقل الباطن، إذ يأخذ من عالم الحقيقة صورة عن مادتها الواقعية قبل أن يحولها إلى تمثيل أو صورة ذهنية تتموقع في الذاكرة أو الخيال أو الوهم أو النفس، وهي عوالم يصعب فهمها دون فهم ما تحيل عليه، على هذا الأساس تركز مقومات دلالة الترجمة بين الدال والمدلول لا يمكن أن نسلم منطقياً أن كل ما نراه قادرين على ترجمته بشكل يستجيب لإشباع المعنى، بل كثير من الأشياء يعجز الذهن على ترجمتها من منطلق قصور اللغة عن التعبير بشكل يستجيب للمعنى المقصود.

اهتمت معظم التحاليل ضمن اللسانيات المعرفية بطبيعة العلاقة بين الكلمات وطرق تمثيلها كتصور. بالنظر أن التصورات المركزية هي مخططات الصورة (Image Schemas) التي وضعها «لانفاكير» (Langacker 1987)، و«لايكوف» (Lakoff 1987)، و«تالمي» (Talmy 1988)، فالكلمة ذاتها هي «صورة» تشير إلى وجود اتصال بالرؤية مع الواقع أو المحيط، فكل كلمة من المفترض أن تتوافق مع مخطط صورة (أو عدة مخططات إذا كانت الكلمة لها عدة معان). على سبيل المثال، يتم تمثيل الفعل «تسلق» كسيرورة في الزمن موزعة على ثلاث مراحل: الجزء الأول له علاقة بمخطط البداية، الجزء الثاني له علاقة بمخطط الوسط، والجزء الثالث له علاقة بنهاية العملية. لتجمع كل المخططات في ما يمكن نعتة بـ «مخطط الصورة الأساس» لتمثل الفعل «تسلق» مثلاً^(١). لتأمل السياق التالي:

٧٦ - تسلق زيد الجبل.

(١) Langacker, R. W. (1987). Foundations of cognitive grammar (Vol. 1). Stanford, CA: Stanford University Press.p 311.

من الواضح أن تمثلنا للفعل «تسلق» له مخططات دقيقة تدفعنا إلى تمثله بشكل موزع على مراحل محددة، إلا أن تصورنا لهذه المراحل يقودنا نحو اعتبار فعل التسلق فعلا له بداية ووسط ونهاية، وهي المراحل التي تؤثر حقا على طبيعة الفعل ذاته، إذ يحمل في المخطط الأول معنى النشاط، ثم يتحول في مرحلة الوسط إلى درجة من درجات الإنجاز، وفي الأخير، إن تمكن من الوصول إلى الجبل، يتحول الفعل إلى معنى الإنجاز التام، إذ لا يمكن أن يكون الإنجاز محققا إلا بالوصول إلى نقطة محددة (القمة مثلا).

من الواضح أن المخططات صورة لها صلة واضحة بسيرورات الإدراك الحسي المتأصل من بنوية المكان. على سبيل المثال، «لايكوف وجونسون» (١٩٨٧) يتفقان أن مخططات الحاوية مثلا (Container)، لها مصدر ومسار والهدف، بمعنى أنها تعتبر من بين أهم العناصر الأساسية في بناء المعنى الخاص بمفهوم الحاوية، نجد في اللسانيات المعرفية أن التمييز بين المسار ومعالمه الأساسية يكون هو نفسه الفرق بين الشكل والأرضية في علم النفس الجشطالتي^(١). قد يكون هذا التشبيه صالحا لبعض الحالات، ولكن ليس لكل شيء. ففي كثير من الحالات قد لا نصادف الأمر نفسه، فمخطط صورة الفعل تسلق كما في (٧٦) مثلا، نجد أن زيد هو الموضوع الثاني الذي يرتبط بموضوع المسار، وكلاهما يوظف كأرقام خلفية تتحقق وفق معيار المصاحبة بصفة عامة، إذ يصعب أن يتحقق الفعل بدون وجود زيد كرقم من المعادلة العامة للتسلق من جهة، ومن جهة أخرى مسار التسلق الذي يجمع بين نقطتي البداية والنهاية باعتبارهما رقمان أساسيان في بناء المعنى العام للتسلق.

(١) يقوم مبدأ الشكل والأرضية (Figure and browd) في النظرية الجشطالتي على مبدأ أن الشكل هو العنصر الذي يكون محط الانتباه في الإدراك الشخصي، أما الأرضية فهي كل ما يأتي خلف الشكل، فالإنسان يختبر العالم حسب هذا المبدأ

يمكن أن يفسر المسار على أنه محور الاهتمام الموجه إلى «الفضاء الداخلي» للتمثيلات، وليس إلى الفضاء العادي، كما هو الحال في عمليات الانتباه البصري أو السمعي، فهناك افتراض أساس، هو أن هذين النوعين من عمليات الانتباه لهما أساسا الطبيعية نفسها، تعال «لانفاكير» (Langacker)، يمكن تحويل مخطط الفعل «تسلق» إلى «متسلق» باستخدام الأبعاد والأشياء والعلاقات نفسها بإزاحة محور المخطط من البعد الزمني إلى المسار. وهي فكرة جوهرية يمكن استثمارها إذا ما نحن استوعبنا طبيعة التمايز الذي يفصل بين معايير الإدراك البصري والسمعي ومعايير الإدراك التصوري في حوسبة بنية المسار بشكل عام. حيث أن النظر في نفس المشهد يمكن أن يولد عمليات إدراكية مختلفة اعتمادا على الزوايا التي نركز عليها فعل النظر.

لقد عمل «هولمكفيست» (Holmqvist 1993)^(١)، على تطوير شكل مخططات صورة بوضع تطبيقات لها بشكل يناسب الحاسوب، إذ يربطها مباشرة بالإدراك عندما يعرف المخططات الصورة كونها «ذلك الجزء من الصورة الذي يتسخ عندما نعمل على إزالة كل العناصر البنيوية للصورة»^(٢)، وهنا نستثني تلك المخططات التي تنتمي إلى مورفيم واحد، أو جملة أو جزء من النص في الوصف اللغوي للصورة.

يربط ماندلير (Mandler 2004)^(٣)، بين المخططات الصورة بالتمثيلات الطوبوغرافية: فصورة حاوية مثلا .. يجب أن يكون لها شكل معين يتوافق مع شكل

(١) Holmqvist, K. (1993). Implementing cognitive semantics. Lund University Cognitive Studies 17. Lund: Lund University.p 31

(٢) انطلق الرجل من أسئلة جوهرية لفهم طرق بناء الأبعاد الخاصة بالمعرفة: كيف تقوم بتحديث معرفتك ومفاهيمك في ظل المواجهة المعلوماتية الجديدة والرؤى الجديدة؟ معتبرا أن هذه المعالجة تعدّ مسألة معقدة جدا في شكلها المنطقي.

(٣) Mandler, J. M. (2004). The foundations of mind: Origins of conceptual thought. New York: Oxford University Press.p 81-82

الحاوية نفسها، ولكن التمثيل الطبوغرافي لهذه العلاقة يلغي هذه المعلومات بمجرد النظر في طبيعة العلاقة الاعتبارية التي ترسخ بين المادة والشكل، وهي في الأصل علاقة طبولوجية محصورة فضائياً من الداخل والخارج. وبهذا المعنى تكون مخططات الصورة هي تمثيلات الطبوغرافية التي لا تشمل كل المعلومات التي قد تكون في صورة. بمعنى أن حديثنا عن الحاوية يغنينا عن طبيعة محتوياتها الداخلية التي تبقى غير مهمة بالنظر إلى مستوى إدراكنا الطبوغرافي للشكل.

أكثر التحاليل تكتيفاً تلك التي تقدم بها كل من «جيبس» و«كولستون» (Gibbs and Colston 1995)^(١)، اللذين عرفا المخططات الصورة باسم «ديناميكية التمثيلات التناظرية للعلاقات المكانية والحركات في الفضاء». وخلافاً للايكوف ولانفاكير، اللذان يركزان بالأساس على بنية المخططات صورة لتفسير دلالات الأفعال. بمعنى أن تفسير العلاقة التناظرية بين المكان والزمان تتدخل فيها تمثيلات متحولة وفق طبيعة الشكل المدرك. وإدراكنا للشكل يعني الوصول بشكل مباشر إلى نقطة تشكل الصورة، إلا أن «لايكوف» و«لانفاكير» يخالفان هذا التوجه بتركيزهما على البنية الداخلية للصور بهدف الوصول إلى تفاسير لدلالات الأفعال التي تعتمد على السمات الداخلية لها، وبالتالي نسجل أن هدف الوصول بالنسبة للتوجهين تكاد تكون مختلفة بالنظر إلى المحيط المعرفي الذي يؤطر نظريتهما.

ما يهمنا نحن من هذا التراكم التجريبي هو أن عملية الإدراك ترتبط بفضاءات تصويرية تعتمد على الاستنتاج الإدراكي بين المادة والتمثل، مع العلم أن المادة هي من بنية الكون ومن أساسياته، لكن التمثيلات هي من بنيات الذهن التي تشترك فيها بصورة كلية كل الكائنات البشرية، إن هذا التحول في فهمنا للإدراك يتناسب مع

Gibbs, R. W., & Colston, H. L. (1995). The cognitive psychological reality of image (١) schemas and their transformations. *Cognitive Linguistics*, 6, p 349

مقومات الاكتساب ويستلزم ضرورات التعلم التي تقوم على مبدأ التحول في فهمنا للمادة اللغوية، بمعنى أن ما نعرفه اليوم عن الذهن يخالف جذريا الآراء والنظريات الكلاسيكية الكبرى.

٢- التوازي بين فهم اللغة والعمليات البصرية.

بعد تقديم المخططات صورة كأدوات الدلالية، نحاول في هذا الجزء من الكتاب أن نبحت في طبيعة العلاقة بين فهمنا للغة وعملياتنا البصرية، مفترضين أن هذه العلاقة يحكمها أمران اثنان أولهما أنها علاقة متوازية وثانيهما أنها علاقة إسقاطية، بمعنى أننا سنحاول البحث في أوجه التشابه بين علم الدلالة، من جهة، والعمليات البصرية العادية من جهة أخرى، لكي نثبت أن بنية العمليات البصرية تقيد التمثيل الدلالي.

إذا كنا قد رأينا في مخططات صورة ل «تسلق» و«متسلق» أن بناء المعنى يتغير بتغير الزاوية والجوانب التي نركز عليها الانتباه في بناء مخططات أخرى. فإننا نصف هذه التحولات في دلالة المعرفية باسم «إعادة التشكيل» (Reprofiling) كما وردت عند لانفاكير (Langacker ١٩٨٧)؛ (Holmqvist ١٩٩٣)، وأؤكد أن هذه العملية تنطوي أساسا على سيرورة نفسها في الرؤية العادية، والفرق هو أنه في حالة مخططات الصور المستخدمة في فهم اللغة (وكذلك في التصور الداخلي)، يتغير اهتمامنا بصورة داخلية للمادة، بينما في الرؤية العادية يتحرك الاهتمام الذي يقدمه العالم الخارجي من الاهتمام الداخلي إلى الحركة الوهمية، والتي تظهر في العديد من التراكيب اللغوية من قبيل:

٧٧- يمتدّ هذا السّياج من الهضبة إلى الوادي.

٧٨- وضعت الكاميرا في غرفة النوم.

لا تصف هذه التراكيب العمليات التي تحدث في العالم الواقعي، فهي تقدم بدلا

من ذلك تمثلا عن كيفية فهمنا «إدراكنا» لعالمنا الداخلي: فاتباع خط السياج الممتد وفق حجم التحركات التي يمنحها لنا أفق البصر، وتحركات البصر ممتدة على طول المشهد الرابط بين الهضبة والوادي في (٧٧)، وزاوية تثبيت الكاميرا موجهة «الرؤية» منطقة معينة من الغرفة (٧٨)، كلها تجليات متطابقة مع الملاحظة التي نقر من خلالها أننا نعتمد على حركة البصر في إدراك العالم الخارجي، وهي حركة ذات طبيعة وهمية تمت البرهنة عليها من منطلق ما أقرّه «ماتلوك» (٢٠٠٤) (Matlock) حينما أكد أن الحركة الوهمية تتجلى كشكل من أشكال المحاكاة المعرفية، إذ أجريت، من أجل ذلك، سلسلة من التجارب المرتبطة بالموضوع كما هو الحال حينما يقرأ أشخاص قصصا عن السفر، وهو السفر الذي قد يكون سريعا مقابل السفر البطيء؛ على المسافة القصيرة مقابل المسافة الطويلة. وهي الموضوعات التي تتخذ شكل حركة خيالية مستقاة من فعل القراءة ذاته، لذلك نحن نساfer مع ما تقدمه لنا القصص من أحداث ووقائع، بمعنى أن فترات الاستجابة تكون أقصر بعد أن قرؤوا عن السفر السريع وتكون أطول عندما تكون المسافات القصيرة. ويفسّر «ماتلوك» النتيجة كون الموضوعات المستقاة ذهنيا هي عبارة عن محاكاة للمسح البصري، بينما معالجتها في سياق جمل أو تراكيب ينطوي على حركة وهمية. هذا التفسير يناسب جدا الصور الذهنية التي درسها كوسلين (١٩٨٠) وغيره.

هذه الدراسة هي مثال على التقليد الجديد الذي يؤكد على دور المحاكاة العقلية في العمليات المعرفية «برسالو» (١٩٩٩) (Barsalou) ^(١) البرهنة على أن التصورات يجب أن تفهم على أنها رموز حسّية وأنماط حيوية من الخلايا العصبية، إذ تعمل وفق فعل المحاكاة وغيرها من العمليات التي تساهم في خلق المعنى التصوري. ومع ذلك، ومن الناحية النظرية، لا يزال هذا النقل يرتبط ارتباطا وثيقا بعمليات الإدراك الحسّي.

Barsalou, L. (1999). Perceptual symbol systems. Behavioral and Brain Sciences, 22, (١) 577-609.

٧٨- يمتدّ خط الكهرباء على طول الفناء.

نفهم أن خط الطاقة لا يمتدّ حرفياً. ومع ذلك، إذا كان أحد ينظر إلى خط الكهرباء على أنه «مسار»، فيمكن وصف النظر الذهني على أنه «يمتد» على الفناء. وبالتالي يتم تحويل المسار إلى عملية بصرية. بمعنى أن عملية النظر هنا جسر يمتد وفق مسار يحدده عمق النظر الذهني الذي يسعف صاحبه في إدراك المسافة والمساحة. بمعنى أن تصورنا للمسار هنا يجعلنا نحوله إلى تجل بصري مدرك، وهذا أمر ينشأ من طبيعة تجربتنا الحسية مع الواقع، وهذا أمر لا يمكن أن نعتبره فكرة بديهية، بل مستوى تطوري رائع يفتح لنا أفق فهم أن الآليات المعرفية التي تتيح لنا فعل الإدراك والتحرك، هي نفسها التي تخلق أنساقنا التصورية، وصيغ تفكيرنا، ومقومات إدراكنا، بناء عليه، فلكي نفهم المسار، يجب علينا أن نفهم تفاصيل نسقنا البصري ونسقنا الحركي.

نوقش هذا التصور من قبل لانكاكير (Langacker 1987)، الذي يزعم أنه بإمكاننا إجراء المسح الذهني لمختلف أشكال البنى العقلية مستدلاً على ذلك بالجملتين التاليتين اللتان تصفان المشهد نفسه (Langacker ٢٠٠٨) ^(١):

٧٨- تزداد الهضبة ارتفاعاً وريداً نحو ضفة النهر

٧٩- تزداد الهضبة ارتفاعاً على ضفة النهر.

نميز هنا بين نوعين من المسح العقلي، إذ يخترق كل واحد منهما عقلياً الأجسام أو المسارات: الأول يمكن نعتة بالمسح البصري المتتابع، الذي يراهن على وجود عنصر واحد فقط الذي ينشط العملية المسح الضوئي، حيث يتم تجميع العناصر ثم اجتيازها وفق مدى إدراكنا للمسافة، أما المسح الثاني فهو الذي يقوم على عمليتي التكبير والتصغير، وهي العمليات التي لها ما يماثلها أيضاً على مستوى معاني الكلمات،

(١) Langacker, R. W. (2008). Cognitive grammar: A basic introduction. Oxford: Oxford University Press.p82

يمكن، مثلاً، وصف موقع تواجد كيان ما عبر عملية المسح البصري القائم على التكبير (Langacker ٢٠٠٨) ^(١):

٨٠- مذكراتك، في خزانة الدراسية، على الرف العلوي، خلف بعض الكتب.

كما يمكن أيضاً أن يتحقق الأمر نفسه عن طريق تصغير:

٨١- مذكراتك الدراسية وراء بعض الكتب، على الرف العلوي، في خزانة الدراسية.

من الملاحظات التي يمكن أن نسجلها أن عملي التكبير والتصغير لا تعملان إذا ما تم المزج بينهما بشكل غير نسقي في الوقت نفسه، لتأمل المثال التالي:

٨٢-؟ مذكراتك على الرف العلوي، في خزانة الدراسة، وراء بعض الكتب.

وهناك نوع آخر من المسح البصري القائم على أساس تعداد الكتلة كما في المثال التالي:

٨٣- انتشر الجنود في جميع أنحاء البلدة مع العلم أنه لا ينظر للجنود بوصفهم أفراداً ولكن ككتلة قياساً على:

٨٤- امتد الحليب على جميع أنحاء مفرش المائدة.

عندما نقرأ الأمثلة وفق آليات المسح البصري نجد توافقاً لها بين المساحة والمسافة البصرية، ويمكن وصف العملية بأنها التحديق بالعين الداخلية الخاصة بالإنسان، لأن العملية ليست مجرد التصغير فقط، بل إن الأمر ينطوي هنا على إعادة رسم الملامح الخارجية للأشياء بمعيار التكبير أو التصغير، كما أن ذلك يحتاج إلى توافق مع بعض الأسماء المحيطة كالكتلة مثلاً التي ينظر إليها كمادة يمكن أن تنتشر في البلدة، وهي واحدة من القراءات الأكثر فعالية في رسم المسح البصري القائم على الكناية،

Langacker, R. W. (2008). Cognitive grammar: A basic introduction. P. 81

(١)

بمعنى إمكانية البحث في حجم التوافقات التي تجمع بين المساحة والمسح البصري واللغة التي نعبر بها على ذلك، مع التركيز في ذلك على أن مخرجات معاني الكلمات تنسجم مع مكونات الاستعارة في اللسانيات المعرفية (لايكوف وجونسون ١٩٨٠؛ لايكوف ١٩٨٧؛ كروفت ٢٠٠٢). مع أن الكثيرين قد يميلون إلى الاعتقاد كون الأمر مرتبطاً بأحد أنواع الاستعارة؛ إلا أنني أميل إلى اعتبارها كناية لكونها عملية دلالية في المقام الأول، ثم إن الفضاء التصوري الذي تتيحه اللغة العربية واسع ومتعدد يمكن التعبير عنه بطرق مختلفة، كما هو الحال بالنسبة للكناية التي يتم التركيز فيها على جزء من الشيء بدلا من الشيء كله.

٨٥- هناك ثلاثة أشربة على البحيرة.

٨٦- تعلن باريس أن التناير القصيرة هي موضحة هذا الموسم.

الملاحظ من خلال هذه الأمثلة أنه تم التركيز على الشراع (الجزء) بدلا من الحديث عن القوارب، وفي المثال الثاني تم التركيز على المدينة بدلا من مصممي الأزياء، وفي ذلك عمليات تتوافق مع المسح البصري القائم على التكبير (على أشربة) وآخر قائم على التصغير (إلى مدينة باريس) في هذا الانتباه البصري حالة خاصة متوافقة تماما مع ما يسميه اللسانيون المعرفيون بـ «التركيز على نقطة النهاية» (End-point focus)، كما فعل (لايكوف ١٩٨٧) في دراسته حول الاستخدامات المختلفة للفعل «انتهى»^(١).

تشير هذه الأمثلة إلى أن العديد من التحولات في المعنى التي يتم وصفها من قبل اللسانيين المعرفين يملكون لها نظائر في معالجة البصرية، مع التركيز على نقطة هي بؤرة العناية والاهتمام، ومع ذلك فهي معطيات تتطلب قياس الاختبار التجريبي الدقيق لتحديد صلاحيتها. خصوصا مع ظهور أمثلة من قبيل:

Johnson, M. (1987). The body in the mind: The bodily basis of cognition. Chicago: (١) University of Chicago Press

٨٧- انتشرت إشاعة طلاق الفنان داخل المدينة

٨٨- داع خبر تأجيل الامتحان عند الكل

٨٩- تفاقمت نسبة البطالة بين الشباب

٩٠- حقق المنتج حجم مبيعات كبيرة

٩١- فاقت نسبة مشاهدة البرنامج كل التوقعات

ما نؤكد عليه من خلال هذا الرسم التصوري للمسار في علاقته بالبعد البصري هو أننا نستغل الذهن في بناء نسق واع من التوافقات، فالمهم عندنا أن ما ندركه بصريا قد لا يتوافق دائما مع ما نصوره حقيقة؛ لأنه لا يمكن أن نتحدث عن عوالمنا الداخلية من منطلق ما نراه فقط، لأننا نرى ونسمع ونحسّ ونشعر أيضا، ما نتحدث عنه باللغة هو تشخيص للإدراك وتفعيل للتواصل، وهذا أحد الأسس الرئيسية التي تساهم في بناء المعاني، فالمعنى موجود في الفكر وليس في اللغة، ممّا يدفعنا نحو تطوير تحليل الروابط بين دلالة المعرفية والإدراك، ونحن في حاجة إلى نظرية مبدئية تساعدنا بشكل أو بآخر في حل معضلات إدراك المعنى مستثمرين في ذلك المخططات الصورة وتحولاتها^(١)، فهناك طريقة الطبيعية لاستغلال المفاهيم الطبوغرافية والهندسية في بناء المعنى عبر رصد العلاقة بين عوالمنا الخارجية والمسح البصري والإدراك، وهي عمليات لا تحتاج إلى براهين منطقية أو رياضية لإثباتها، فثمار هذا التحليل ليس فقط مفيدا لعلم الدلالة المعجمي، ولكن يمكن أيضا أن نطبقه في بعض النماذج التواصل والممارسات التربوية. كما يمكن لهذا التحليل أن يشرح لنا فعالية المعنى في رسم الاستعارات التي نحيا بها، فهي ليست مجرد الزينة ولكن أدوات قوية في الاتصال والتعليم

(١) للتوسع أكثر في المسألة المرجو العودة إلى مؤلف «كروفت» (١٩٩٠):

- Croft, W. (1990). Typology and universals. Cambridge: Cambridge University Press.

٣- العلاقة بين طبقات الأحداث وعلم الدلالة

لا يمكن أن نقف في هذا الكتاب عند حجم التوافقات الموجودة بين المعلومات اللغوية ونظام الإدراك الحسي، ولكن ينبغي أيضا التركيز على الجهد المبذول من قبل الذات في بناء مداركها، إذ ينبغي أن تكون الذات من بين أهم اللبنة الأساسية في بناء الدلالات المعرفية من خلال رصد الأحداث المنجزة وفق تداخلاتها مع العلاقات المكانية والأوليات الحسية الأخرى كاللغة والحدث والتواصل، ونركز اهتمامنا في هذا المجال على الأحداث التي نعتبرها أمرا أساسيا في بناء معاني الكلمات، تماشيا مع هذه الفكرة، يؤكد جونسون (Johnson ١٩٨٧)^(١)، أن الأحداث تشكل الجشطالات الإدراك الحسي التي تتشكل منها مخططات الصورة^(٢).

على الرغم من الفائدة المرجوة في تجسيد المعرفة، لم يتم تطوير دور الأحداث بشكل جيد في اللسانيات المعرفية. لكن من المهم جدا أن نساير في ذلك التحولات التي وقعت في التصنيف الذي وضع لطبقات الأحداث في اللغة العربية، وهنا نستحضر العمل الكبير الذي قدمه «جاكندوف» في مقاله الدلالة مشروع معرفيا المترجم إلى العربية من قبل محمد غاليم.

قد نجد في اللغة أحداثا تشترك في عدد من الدلالات، إلا أنه لا نجد مانعا من تصنيف الألفاظ التي يحتويها المعجم بحسب طبيعة السمات المشتركة، فيكون التأويل تأويلا عماده السمات الدلالية المشكلة في المكون القاعدي، مما يجعل منها طبقات معزولة عن باقي الألفاظ الأخرى.

لنتأمل السياقات التالية:

(١) Johnson, M. (1987). The body in the mind: The bodily basis of cognition. Chicago: (١) University of Chicago Press.p. 43

(٢) كلمة «صورة» قد تكون ملتبسة هنا، لأنها لا ترتبط بالعمليات البصرية فقط.

٢٩- أ- أكتب قصة قصيرة منذ ساعة.

ب- اجري حوالي ساعة.

ح- أعمل في مجال السياحة منذ سنة.

د- مكث في عمله عشرون سنة.

٩٣- أ- بلغت الثمانين من عمري.

ب- أنجزت عملي في الساعة العاشرة.

ج- أتممت كتابة الرسالة.

د- آمنت بالنسبية منذ طفولتي.

هـ- اكتشفت الحقيقة متأخرا.

٩٤- أ- أحب كتابة الرسائل.

ب- أكره مشاهدة الأفلام الكلاسيكية القديمة.

ج- أحس زيد بالمرض^(١).

مجموعة من الملاحظات يمكن أن تستنبط عن بعد، وهي إذا كان صادقا أن أحدا يكتب الآن (٩١أ)، فإنه وإن انتهى من الأمر في اللحظة الموالية، فإنه سيكون صادقا أنه كتب، ومن جهة أخرى، إنه وإن كان صادقا أن أحدا كتب ساعة حتى الآن، فإنه وإن انتهى من الكتابة في أي لحظة موالية، فإنه قد يكون صادقا أنه قد كتب في ساعة، بمعنى أدق، إذا توقف أحد عن الكتابة في ساعة، فإنه لن يكون قد كتب في ساعة، ولكن من يتوقف عن الكتابة يكون قد كتب، وبالتالي لا معنى للحديث عن إكمال الكتابة. فنصل إلى أنه إذا لم تكن الكتابة نقطة نهاية، فإن الكتابة في ساعة لها

(١) اقتبست هذه الأمثلة من كتاب البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية لعبد الكبير الحسني، ص ٢٤٨،

ذروة / قمة يجب بلوغها، لذلك يكون السؤال عن ذلك بالمدة تحديدا (ما المدة التي استغرقتها في الكتابة؟). نستخلص كذلك من هذه الاعتبارات أنه إذا كان صادقا أن أحدا كان قد كتب لمدة ساعة من الزمن، فإنه يجب أن يكون صادقا أنه كتب خلال كل أطوار هذه الساعة، غير أنه إذا كان صادقا أن من كتب نصف ساعة، فلا يمكن أن يكون صادقا أن الكتابة كانت في ساعة كاملة من كل الأطوار الفعلية لهذه الكتابة، رغم كونه يبقى صادقا أنه كان يكتب ومنخرطا في ذلك خلال كل الأطوار الفرعية التي تتكون منها تلك الساعة، لذلك فإن كل جزء من الكتابة هو من طبيعة الكل نفسه^(١).

وبالطريقة نفسها يمكن أن نجد بعدا استنتاجيا ينطبق على الترايب الأخرى، تحديدا أنه إذا كنت أجري في ساعة (٩١ ب)، فإنني لن أكون قد جريت إلا عندما أقطع كل أطوار الدقائق التي تكوّن الساعة، فإذا كان قد جرى نصف الميل فقط، فلن يكون صادقا أنه جرى الميل كله، رغم كونه يبقى صادقا أنه كان يجري، ومن توقف عن الجري فلن يكون صادقا أنه جرى، فلا معنى للجري إلا من خلال بلوغ كل جزئيات المسافة في ساعة. وإذا كنت أعمل في مجال السياحة منذ سنة (٩١ ج) فإنه لا يمكن أن يكون صادقا أنني قد عملت إلا عندما أعمل في كل الأطوار التي تكوّن السنة، فلن يكون صادقا أنني عملت أربعة أشهر من السنة، رغم أنني كنت أعمل، إلا أن صدق العمل لا يكتمل إلا ببلوغ كل الأيام التي تكون جزئيات السنة، بل والمكوث في كل الأطوار التي تكون مدته وهكذا.

إذا كان الأمر هنا يرتبط بـ«العمل» و«الكتابة» و«الجري»، فإن الأمر يتطلب نوعين من الاعتبارات الزمنية، اعتبار أول يراعي الأحداث التي تمت فيها الكتابة والعمل والجري بأكملها، وجانب لا يراعي ذلك، بمعنى أنه حتى وإن لم أكن قد أتممت فعل

(١) للتعرف أكثر على هذه الجزئيات يرجى الاطلاع على عمل فاندلر (٦٧)، الفاسي الفهري (٢٠٠٥)، سلسلة محاضرات وعروض بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب (٢٠٠٤) (٢٠٠٥)،

الكتابة أو الجري أو العمل، فإنه يكون صادقا أنني قد كتب وعملت وجريت، إذن يمكن أن نصل إلى نتيجة تأويلية نقرأ من خلالها هذه الأفعال وفق سياق أحداثها على النحو التالي: «إذا كان صادقا أنني قد جريت ساعة بأكملها، وكتبت القصة في ساعة، وعملت مدة سنة بأكملها، فإننا يمكن أن ننتع هذه الأفعال بكونها عبارة عن إنجازات» حققنا فيها النشاطات التي كنا نمارسها، في حين أنه إذا لم يتم ذلك في المدة المخصصة لذلك بأكملها، فإنه يكون صادقا أنه كان يكتب ويجري ويعمل، فننتع تلك الأفعال بكونها «نشاطات» لم نستطع أن نحقق كل الانجازات التي كنا نرجو تحقيقه».

يبدو أن الأمر ليس كذلك عندما نتأمل التراكيب الواردة في (٩٢)، إذ إنها أفعال تؤول زمنيا باعتبارها أزمته تفتقر إلى الاستمرارية وإلى السيرورة عبر الزمن، وعليه، فإنها تملك سمة ورودها لمدة أو لحظة محددة بإطار زمني محصور ومقيد، الشيء الذي يجعلها تؤول بحسب الطول والقصر، فإذا كان الإنسان صادقا في بلوغه الثمانين من عمره في (٩٢ أ)، فلن يكون الأمر صادقا إذا لم يبلغها بأكملها، فهو لا يمكن أن يبلغها في العشرين أو الثلاثين... أو أي جزء من الثمانين السنة التي عاشها، فلا يمكن أن يتحقق البلوغ إلا بالوصول التام إلى الثمانين. الأمر نفسه يمكن أن ينطبق على (٩٢ ب) فإذا كان صادقا أنني أنجزت العمل في العاشرة، فلا يمكن أن يكون الأمر صادقا إلا بإنجاز العمل كله بوصوله الساعة العاشرة، كما لا يمكن أن يكون صادقا إلا ببلوغ كل الأجزاء المكونة لمدة الإنجاز. فحتى لو أكد أحد أن إتمام الكتابة أخذ مني نصف ساعة (٩٢ ج)، فليس معنى هذا أن الكتابة قد حصلت خلال هذه المدة، والواضح أن ما استغرق النصف الساعة سيرورة من أجل انجاز فعل الكتابة.

إلا أنه من المفيد جدًا أن نؤشر إلى أن السياقات الواردة في (٩٣) تحيل أنه إذا كنت أحب كتابة الرسائل، فلن يكون صادقا أنني سأظل أحب الأمر طوال حياتي، أو إن صح إنني أكره مشاهدة الأفلام الكلاسيكية، فلا يمكن أن يكون صادقا أنني سأكرهها

دائماً، كما لا يمكن لأحدنا أن يجزم أن مرض زيد لا يمكن أن يكون بشكل دائم ومستمر، إذن أن تحب أحداً أو تكرهه أو تسيطر عليه كلها تجليات زمنية محكومة بالطول أو القصر المحدودين.

بهذا المعنى نجد أنفسنا أمام خطاطة (Schéma) من المعطيات التي تحيلنا مباشرة على قراءة الأحداث وفق خلفيات تجعل من البلوغ والاستكشاف ومعرفة الشيء تراكيب زمنية تحيل على «الإتمامات» التي تقتضي إنجاز فعل في لحظة محددة، في حين أن الحب أو الكره أو المرض والسيطرة تحيل في قراءتها على «الحالات» التي قد تستغرق كمية من الزمن وينتهي أمرها تماماً.

هناك بعض المفارقات التي قد تجعل من هذه السياقات تعرف الكثير من المشاكل على مستوى التأويل، وهي المشاكل التي ترتبط أشد الارتباط بالقدرة على قراءة السياق وفق ما تقتضيه العملية التأويلية بكل تلاوينها، على اعتبار أن هذه المفارقات تدفعنا إلى الخلط بين «الإتمامات» و«الإنجازات»، تحديداً عندما نتأمل البنى التالية:

٩٥ - أ - تطلب مني بلوغ القمة ثلاث ساعات.

ب - يربح السباق الآن.

ج - عثرت على الحل الآن.

د - عثرت على الحل في ساعة.

تطرح الأحداث هنا بعدين مختلفين، بعد يمكن أن يؤول وفق ما ستحدده المعطيات الدلالية الداخلية للبنى، ووفق ما يمنحها إياه التأويل الاستعاري للحدث، فإذا كان الإنسان في (٩٥) يستغرق منه بلوغ القمة ثلاث ساعات (إنجاز) فإن ذلك يمكن أن يؤول اعتباراً أن بلوغ القمة وقع خلال هذه الساعات الثلاث كاملة، أو بمعنى أدق، فإن بلوغ القمة كان في كل الأطوار التي تتجزأ عبرها ثلاث ساعات. وهذا أمر

مخالف (للإتمامات)، فحتى لو قال أحدنا إن بلوغ القمة أخذ منا ثلاث ساعات، فهذا لا يعني أن بلوغ القمة حصل خلال الساعات الثلاث، اعتباراً أن ما تم استغراقه هو التسلق من أجل بلوغ القمة، وبالتالي فإن الرائد الحقيقي الذي يوضح ذلك يمكن أن يأتينا من خلال إمكانية القول «إنني أبلغ القمة في أي لحظة خلال هذه الساعات الثلاث».

من المؤكد أن نفهم كل هذه السياقات على أنها بنى تحمل من الأحداث الشيء الكثير، اعتباراً أن تأويلها الاستعاري يتحقق عن طريق حدث الإنجاز، وحدث الإتمام، وحدث النشاط، وحدث الحالة، ويتغير الحدث بشكل مشترك عندما تلتبس علينا الرؤية الحقيقية، الشيء الذي يقتضي الكثير من الجهد لكي نتمكن من فك شفرته واستنباط الخلفيات الجزئية العميقة التي يؤشر عليها، وبالتالي يمكن أن نجعل من هذه الأحداث أنساقاً معرفية تتجسد هندستها وفق المعطيات التالية:

✓ الحالة Status: تؤشر الحالة إلى حدث ظرفي محددة وغير دائم أو مستمر، يمكن في أي لحظة أن يتغير.

✓ الإتمام Achievement: يؤشر حدث الإتمام على اكتمال الفعل وبلوغه قمة التحقق

✓ النشاط Activity: تبني دلالة حدث النشاط على فعل التواتر وفق مسار محوسب (دائماً، كل يوم..)

✓ الإنجاز Accomplishment: يؤشر حدث الإنجاز على فاصل محدد لا تكتمل معطياته إلا من خلال تمام إنجاز الفعل (أنجزت العمل بين ٨ و ١٠)^(١)

(١) هناك ظاهرة تعرف في اللسانيات المعرفية الحديثة بنظرية الانزلاق الدلالي (Semantic Drift)، وهي نظرية شائعة في طبقات الأفعال، إذ تتحول بموجبها الإتمامات إلى إنجازات أو نشاطات.. الشيء الذي يعكس أن هذه الطبقات لا تشكل جزراً لا تتقاطع فيما بينها، بل بإمكان أن تتحول الانجازات (بلغت القمة في ساعة) إلى إتمامات (بلغت القمة الآن) أو إلى حالات (أحب بلوغ القمة) أو نشاطات (أجري نحو بلوغ القمة).

فمعيار المشروعية لا يمكن أن يأتي إلا من خلال السياق العام الذي تفرضه على مستعمل اللغة، فإذا كان بلوغ القمة والحب والكتابة والجري تؤثر على أحداث خاصة، فإن تأويلها لن يكون ممكنا إلا من خلال إخراجها من زاويتها الضيقة إلى زوايا أكثر انفتاحا واتساعا لكي تشمل الإنجاز والحالة والإتمام والنشاط. إذا كانت هذه النتائج تقترب من الصواب، فإنها ستساعدنا حتما في فهم سيرورة الإبداع اللغوي وفق آليات معرفية، بل إن فهم هذه السيرورة معناه فهم الكيفية التي تفرض من خلالها بعض الأحداث نفسها باعتبارها تساهم في خلق اكتشافات دلالية جديدة، كما لو أنها نتاج فكر غير واع، فمن المهم جدا أن نفهم الفرق بين هذه الأحداث باعتبارها موضوعا لسانيا معرفيا وُضع بيد الباحثين من أجل البحث فيه واستخلاص نتائجه لكي نساهم في منسقة المعجم ومنسقة طرق تفكيرنا من جديد.

عندما نعيد قراءة هذا التحليل سنجد أننا كائنات فضائية نجعل من ذواتنا محور العالم ومقياس كل شيء، واللغة تعكس بجلاء مركزية الذات في تأويل المادة والتأليف بين محتوياتها من منطلق أنه لغته تعكس «التركيب البيولوجي للإنسان»^(١)، أنسجاما مع ما كتبه جونسون (١٩٨٧) عن دور الجسد في بناء المعنى، وربط ذلك بأفق الخيال والعقل من خلال محاولة رصد دقيق للمخططات الحسية والحركية، وهي المخططات التي تم تطويرها في محاولة لنمذجة التطور المعرفي وليس لمعاني الكلمات باعتبارها أنماطا ديناميكية غير ثابتة تتغير وفق مستويات معرفية متداخلة تجمع بين العالم الخارجي وعوالم الإدراك الداخلي التي تشكل فهمنا الأساسي للعالم، فمخططات الإدراك الحسي هي أبنية ديناميكية تحكم السيطرة على الإدراك والأحداث.

هناك من يدعم عصيبا ما قدمناه من تحليل حول طبيعة تركيب الأحداث في

(١) عبد المجيد جحفة (٢٠١١)، أجسادنا في الفضاء تولد الاستعارات، ضمن الاستعارة والمعرفة، منشورات مختبر اللسانيات والتواصل، ص ١٣١.

الذهن البشري، إذ توفر النتائج المقدمة في اللسانيات العصبية بولفيرميلر (٢٠٠٣) Pulvermüller مؤشرات هامة حول طبيعة الاتصالات الممكنة بين المعاني والأحداث. وهو يركز في ذلك على الجوانب الحركية للمعاني موضحاً أنه عندما يدرك الدماغ الفعل، فإنه يستعد للحدث. على سبيل المثال، عند قراءة كلمة «ركلة»، يتم تنشيط جزء من القشرة الحركية للدماغ من أجل تأويل الكلمة كما هي الركلة في الواقع، فالتفسير الممكن لذلك هو أن الدماغ يحاكي الحدث عند قراءة الكلمة، وهذا نموذج من الأحداث التي يتوافق معناها مع التحليل الدلالي للأفعال التي تعتمد إلى حد كبير على القوى المشاركة في عملية الإنجاز.

من المهم جداً أن نفسر أن اللسانيات العصبية أفادتنا بشكل كبير في تأويل أفعالنا وفق مخططات ذهنية يتعلق بعضها بمستوى إدراك الفعل وبعضها بمستوى إنجازها، وهذه في حد ذاتها نتائج مهمة قد تمكننا مستقبلاً في معالجة الكثير من الاختلالات التي تصاحب عمليتي الاكتساب والتعلم^(١).

٤ - آليات تنظيم المعنى

تتقيد معالجة المعنى بطبيعة العلاقة التوافقية بين الوصف الصوري وخصائص اللغات الطبيعية في محاولة لرصد الكيفيات التي تترجم بها اللغة العالم في ذهن البشري، وفي محاولة لرسم الصورة الهندسية التي يتعالق بها التمثيل الذهني للجمل والتمثيل الذهني للعالم، إذ يفترض في أي بحث لساني أن يجيب عن أسئلة مركزية

(١) إن دراسة العلاقة القائمة بين الدماغ واللغة، ولدت، إن صح القول، مع فحص المرضى الذين يعانون من مختلف أنواع الاضطرابات الوظيفية (دماغ، لغة)، والتي جسدتها أعمال كل من Broca و Wernicke التي كانت الأولى التي عملت على إقامة علاقة بين فقدان القدرة اللغوية الخاصة والحصار الثلمي Cartical. وبالرغم من صعوبة التداخلات والتأويلات حول طبيعة هذه العلاقة، فإن هذه الأعمال لها دور حاسم في تأويل دلالة الأحداث وفق مسلمات ذهن البشري ومداركه.

ومهمة هي: كيف نفكر؟ وما هي الطرق التي نتصور من خلالها عوالمنا الخارجية؟ وما هي الهندسة المعرفية التي نبني من خلالها المعنى؟ إذا انطلقنا في هذا البحث من افتراض أن الذهن يلعب دورا مهما في التوحيد بين أجزاء العالم وتصوراتنا لها، فإن السياق العام الذي سنسير عليه سيجعل من الذهن صورة الموحدة بين كل البشر، الشيء الذي سيدفع بدراستنا نحو بناء هندسة معرفية جديدة مغايرة للدراسات اللغوية السابقة^(١)، بل إن افتراضنا هذا سيفتح لنا أبوابا نحو اعتبار اللغة منظومة ذهنية مستقلة بذاتها تُعكس تجلياتها على قوالب دلالية وصرفية وتركيبية محددة.

وجب أن نشير أيضا منذ البداية أن الإطار المعتمد في البحث عن آليات بناء المعنى مبني على طبيعة خلاصات الدلالة المعرفية (Cognitive Sémantic)، اعتبارا أن المعنى الذي نبحث عنه هو بنية صورية من المعلومات قوامها عدد محدود من مبادئ التأليف بين صورة المعلومات الدلالية وبنيات المعلومات اللغوية، وهو المسار الذي أسس على أربع نظريات أساسية شكلت المنطلق النظري لنشأة الدلالة المعرفية^(٢)،

(١) هناك دراسة تفصيلية للأدبيات الدلالية التي ظلت تنادي بأن المعنى له علاقة إما بالإحالة أو المرجع أو التصورات أو العوالم الممكنة أو الفضاءات الذهنية...، وهي فرضيات موجودة في كتاب «مدخل إلى الدلالة الحديثة» لأستاذنا عبد المجيد جحفة، الصادرة عن دار توبقال سنة ٢٠٠٠، كما نجد ذلك عند أستاذنا محمد غاليم في كتابه «المعنى والتوافق» الصادر عن معهد الدراسات والأبحاث للتعريب سنة ١٩٩٩، وهناك أيضا بعض المحاضرات لأستاذنا أبو بكر العزاوي التي ألقاها برحاب كلية الآداب ببني ملال سنوات ٢٠٠٠-٢٠٠٣.

(٢) يمكن أن نحدد تلك النظريات على النحو التالي:

- نظرية المَقُولَة: هي نظرية أنشأت في أحضان علم النفس المعرفي مع إيلانور روش (Rosh)، اعتبارا أن المقولة تتحكم في كل أنشطتنا الذهنية واللغوية، فإدراكنا للعالم مؤسس على حجم انتماء أي عنصر إليها، وتحديدنا للمعنى هنا هو تحديد يخضع لمعيار الدرجة في سلم الانتماء للمقولة بناء على طبيعة الشروط الضرورية والكافية، لذلك تجاوز العرفانيون هذه النظرية وقلبوا بذلك تصوراتنا عن الإنسان والعالم واللغة.

=

مؤكدين أنها ليست نظرية بديلة أو منعطف لساني جديد أو مدرسة لسانية جديدة تحاكم نجاح أو فشل النظريات اللسانية السابقة، بل على العكس من ذلك تماما، نحن نعتقد أننا أمام مقارنة لسانية نعتبرها جديدة لفهم بعض الجزئيات المرتبطة باللغة في علاقة ذلك ببناء المعنى، كما وجب أن نوضح في السياق ذاته أن التوجه الذي نشتغل عليه يميل إلى اعتبار الدلالة مركزية في التحليل اللساني، وأن التركيب، في نظرنا، هو مجموعة من العمليات الذهنية المبرمجة التي يقتصر دورها على معالجة المعلومات اللغوية، وهو التوجه الذي نعتبره مخالفا تماما لم قدّم في إطار النحو التوليدي، على الأقل في صيغته الأولى التي كانت قريبة إلى حدّ ما من مفهوم الذكاء الاصطناعي، على الرغم من ابتعاد التوليديين عن هذه المقاربات في الثمانينات من القرن الماضي، إلا أن انفصال الدالين التوليديين عن نظرية المعيار زاد من حجم الفجوة التي مكنت من ظهور نظريات معرفية جديدة لا تقوم على مركزية التركيب في البحث اللساني الحديث، بل إن العلاقة بين اللفظ والمعنى تتأسس على اعتبار الدلالة عمليات ذهنية مركزية في بناء المستويات الصوتية والتركيبة والمعجمية، لذلك وجب أن نشتغل على تقسيم المستويات وفق ما تمليه الدراسة اللغوية قياسا على التقسيم المنطقي بين العلم وموضوعاته، بين الثقافي والطبيعي وهكذا....

= - نظرية الفهم: هي نظرية نمت في أحضان التفسير الموضوعي للعالم الذي كان ينظر إلى المعنى بمعزل عن أي إدراك للعالم الخارجي، لذلك نجدهم قد رفضوا كل مقارنة للمعنى خارج إطار مسلمتهم التي أكدوا من خلالها أن المعنى موجود سلفا قبل وعينا به.

- نظرية الخيال: يشكل الخيال أحد أهم المركبات التي انبنت عليها الدلالة العرفانية، اعتبارا أنه يبين لجزء كبير من نظامنا التصوري، فهو المشترك الذي نحاول من خلاله أن نفهم العالم وندرکه عن طريق التواصل والتخاطب، هنا نشأت الاستعارة باعتبارها الكيان الذي نحيا به (لايكوف وجونسون) (Lakoff and Johnson)

- نظرية المعنى: هي النظرية الكبرى التي انبنت على طبيعة تصورنا الذاتي في الزمان والمكان، إذ أن إدراك المعنى يبنى على منطلقات هي مكان الإدراك ومسافة الإدراك، وطريقة الإدراك، وزاوية الإدراك، فالمتكلم هو محور العالم ومركز المعنى.

٤ - ١ آليات إدراك المعنى

تخبرنا نظريات الاكتساب والتعلم أن الأطفال يتعلمون لغتهم بناء على معرفتهم المحدودة لبعض الكلمات («المعجم الذهني») ويدؤون في وضع هذه الكلمات داخل تراكيب معينة ومحددة ومضبوطة، والأهم أنهم بتركيبيهم للكلمات يحاولون أن يوصلونا معهم إلى بناء معنى معين يبحثون عنه، أما إذا لم يتوقفوا في معرفة الكلمات فإنهم لن يتوقفوا في بناء أي نوع من التواصل في جميع النقط التي تقود نحو بناء الجملة أو التركيب، وعليه يمكن أن نؤكد أن المعرفة الدلالية تبقى مهمة جدا من المعرفة النحوية في تعليم الأطفال للغة، إذ يمكن أن نساير في هذا أن اكتساب السمات الدلالية يكون كونيا بفضل الأنشطة الإدراكية (Cognitive activities) التي يمتلكها الأطفال جميعا، ذلك أن السمات التي تحدد وفق الإدراك الحسي هي التي تدفعنا نحو الخوض في منطق التطابق بين السمات الإدراكية والسمات الدلالية اللغوية، قبل أن يخضع ذلك إلى منطق التوسع الدلالي (الإبداعية) Creativity، ف «قطُّ» مثلا يختزل في البداية في شكل صوت، وهي سمة إدراكية سمعية ثم يضاف إليها سمات أخرى مميزة [+صوت][+ذيل][+ألف][+لاحم][+كائن حي]... مما يحيلنا مباشرة نحو تقريب صورة اكتساب السمات الدلالية إلى اعتبار مفهوم الكلمة هو خرج (Output) يجمع بين التطابق المنطقي بين السمات الإدراكية والسمات الدلالية^(١). وعلى هذا الأساس سنجد أنفسنا أمام محك لغوي دقيق يستفز معارفنا ويزيد من حجم القلق اللغوي والإزعاج الفكري الذي ظل لعقود يمجّد التركيب ويعتبره أهم حلقة في البحث اللغوي واللساني بشكل عام.

ما يزيد من التأكيد على أهمية المعرفة الدلالية في خلق التواصل اللغوي هو أنه

(١) للمزيد من التوضيح يرجى الاستعانة بمقال «المعنى في الاكتساب اللغوي» لمحمد صالح بن عمر، ضمن كتاب المعنى وتشكله ج١، الصادر عن جامعة منوبة، ٢٠٠٣ ص، ١٨١.

يمكن لمتعلم لغة ما أن يتواصل مع المحيط اللغوي حتى وإن لم يكن على دراية كافية باللغة، فمعرفته ببعض الكلمات تكفي لخلق نوع من التواصل دون معرفته لطبيعتها ولا خصائصها التركيبية والمعجمية... بل إن أول ما يبحث عنه هو ماذا تعني كلمة ما لكي تستثمر في ذلك من أجل بلوغ الكفاية التواصلية المنشودة، لكن عندما يعجز تماما عن معرفة أي كلمة من كلمات لغة أخرى فإنه بإمكانه أن يتواصل بالإشارات والإيماءات للبحث عن المقصود ومنه البحث عن المعنى، وعليه يمكن أن يحصل التواصل دون وجود لغة مشتركة، فأنظمة التواصل تظل فعالة بشكل كبير حتى عندما تنقطع جميع السبل اللغوية المشتركة، إلا أن الحلقة الوحيدة، في نظرنا، التي تجمع بين جميع لغات العالم هي المعنى باعتباره خامة كلية لا تعترف بالحدود اللغوية المترامية هنا وهناك، فالمعنى مؤسسة شرعية لكل المداخل المؤسسة للغة، بل إنه الوسيلة الوحيدة التي توحد بين كل لغات العالم من منطلق أن القضية العامة التي شغلت الدالين عبر تاريخ اللغة هي علاقة اللفظ بالمعنى بقطع النظر عن طبيعة الدوال والمدلولات، مع ذلك يمكن أن نزيد على ذلك هو تجاوزنا في بناء المعنى لهذه العلاقة بالوقوف عند الإشارات والإيماءات والرموز باعتبارها معاني لا تتمظهر صورها في شكل ألفاظ أو دوال. ليغدو المعنى الضامن الوحيد للاستمرارية بين أنظمة التواصل اللفظية وغير اللفظية، مما فرض على النظرية الدلالية أن ترفع من وثيرة المعطيات المعرفية لكي تستبين الآليات الذهنية التي تساعد في بناء الأنساق اللغوية بشكل كلي^(١). لو تأملنا التركيب اللغوي التالي:

٩٦ - أنت طالق.

(١) لقد سبق لدي سوسير أن ميّز بين اللسان والعلامة وأكد أن اللسان عبارة عن لغة مكونة من نظام اجتماعي للعلامات، في حين أن العلامة ما هي إلا خطاب فردي يتجسد في علامات لغوية أو منتجات جماعية تتمظهر قوتها في التفاعل الذي ينتج عنه علاقة تواصلية بين البشر، وهي إشارات قوية تؤكد أن البحث في دلالة العلامة يبقى مهما جدا في نسج علاقة تواصلية ناجحة.

إذا استثمرنا نظرية أفعال الكلام كما وردت عند «سورل وأوستين» (١٩٦٩) سنجد أن هذه العبارة تظل مستقلة لغويا بشكل كلي، فهي تحمل في ذاتها كل مقومات الإنجاز قولاً وفعلاً، لكن عندما نبحث في جوهر الإنجاز نفسه سنكتشف أن القوة الإنجازية لا تكمن في القول بل في قوة المعنى الذي تحمله، اعتباراً أن المعنى اللغوي عبارة عن معلومات ذهنية يجري عليها ما يجري على المعلومات غير اللغوية، وهو الأمر الذي يساهم في بلورة الدلالة التصورية كدلالة تجمع بين قوة الفعل وقوة مقتضيات الإنجاز القائمة على سلطة المعنى، وهذا بخلاف ما أكدته نظرية أفعال الكلام، على اعتبار أن القوة الإنجازية لا تظهر، في نظرنا، في الفعل، بل في السلطة القوية التي يفرضها المعنى الذي تخلقه العبارة، فهي قول من ناحية التركيب وإنجاز من حيث المعنى، وبما أن الإنجاز هنا هو أكثر أهمية من القول، فإن معنى التطبيق يصبح ساري المفعول فور إدراك الطرف الثاني للمقصود، فالمعاني اللغوية هي التي تسمح للإنسان بالتكلم عمّا يدركه ويفعله، بمعنى أنه بمجرد حصول الإفهام يصبح الفعل ساري الحدث. الشيء الذي سيدفع بنا نحو إعادة تبويب المرتكزات التصورية بمنطق يمكن أن يضمن لنا تجديداً في بنية المعنى في اللغة العربية.

من المؤكد أن هذا التطور سيجعل الدرس اللساني يفصل جزئياً بين المقولات الدلالية والمقولات البرغماتية (Pragmatic cathegoris)^(١)، بمعنى أن الدلالة لا يجب أن تقف عند حدود ما اتفق عليه، بل يجب أن يظل البحث جارياً عن تطور الدلالات وخروجها من جلباب النظريات الكلاسيكية، هو التطور أيضاً الذي يجب

(١) نقصد بالمقولات البرغماتية تلك المقولات التي تراهن بشكل كبير على تحقيق فعل التواصل بقطع النظر على طبيعة اللغة الموظفة في ذلك، وهي المقولات التي تتجاوز العلاقة الاعباطية التي تطابق بين الدال والمدلول. إذ من الممكن جداً أن يتحقق فعل التواصل دونما حاجة إلى مشترك لغوي يؤسس للعلاقة، بل ما يهم هنا هو الوصول إلى المعنى ومنه تحقيق فعل التواصل.

أن ينظر في المعنى باعتباره عمليات ترتبط بالإدراك والانتباه والذاكرة كونها عمليات معرفية متداخلة تساهم في بلورة المعنى المعياري لفعل التطبيق. فحديثنا عن القوة الإنجازية للمعنى يرتبط من زاوية بنظم التحليل الذاتي التي تسمح للطرف الثاني في العملية التواصلية أن يبرمج المعنى في ذهنه على أنه فرض لسلطة التنفيذ، ومن زاوية الثانية اعتبار المعنى معطى من معطيات التجربة اليومية التي تتعايش مع ملكتنا اللغوية، فالتجربة مع اللغة تحصيل حاصل ما دام هناك مؤشرات قوية تدفعنا إلى امتلاك كل مقومات التواصل مع المحيط (العشيرة اللغوية) الذي نحى داخله؛ أي أن التجربة هي الأساس الضمني الذي يزود مداركنا بكل مقومات النجاح في العملية التواصلية من خلال الربط بين السمات الإدراكية والسمات الدلالية، لتأمل الأمثلة التالية:

٩٧- يداوي الزمن كل الجراح

٩٨- الزمن وحش كاسر

٩٩- وصلت قمة عطائي

١٠٠- أقف حالياً عند مفترق طرق الحياة

تساعدنا التراكيب الواردة أعلاه في بناء المعنى على سلمية الإدراك والقدرة على الإنجاز، فمستلزمات العملية التواصلية تفرض ترجمة دقيقة للمحتويات اللغوية التي تستهدف المتلقي، فالقدرة على فك شفرة اللغة هي في الأصل قدرة على فك شفرة المعنى. لا شك أن ما يدفعنا إلى إدراك المعنى في (٩٧) ليس القالب النحوي الذي وردت عليه الجملة، بل نحن على دراية أن الزمن لا يملك أي سلطة لكي يداوي جراحاتنا، بل إنه لا تتوفر فيه الشروط الضرورية والكافية لكي ينزل منزلة المداوي أو الطبيب، إلا أن مؤشر قوة المعنى يكمن في أن المعنى المقصود والمبحوث عنه في السياق يتجلى في عملية استعارية تُنزل الزمن منزلة الطبيب المداوي، وهذا الإسقاط

الاستعاري هو نتيجة حتمية لتجربتنا مع الطيب من جهة، ومع الزمن من جهة أخرى، فعندما نصل بالمعنى إلى مستوى الإسقاط بين السمات الإدراكية والسمات الدلالية^(١)، فإننا نسلّم ضمناً أن المعنى الخفي في الجملة هو الأهم وليس المعنى الحرفي، من هنا قد نستنتج أن الوصول بالمعنى إلى مستوى من المستويات كالانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى المدرك وصولاً إلى المعنى الاستعاري... دليل قاطع بالنسبة لنا أن المعنى قابل لكي يخضع في بنائه إلى سلمية بحسب القوة الإنجازية والقدرة على ترجمة شفراته الغامضة.

ما ينطبق على (٩٧) ينطبق أيضاً على (٩٨)، فتمثلنا للزمن كوحش كاسر هو نتيجة لطبيعة احتكاكنا مع الزمن والوحش، فهي علاقة منطقية تتجلى أثر خيوط معانيها الكبرى في حجم الإسقاط الاستعاري الذي ندرك من خلاله أن قوة المعنى هي في تمثالاتنا للزمن كوحش كاسر جبار لا يرحم أحداً، ليكون لذلك نتيجة أخرى ترتبط بمسويات بناء المعنى، إذ نجد أن التمثلات هي جزء من هذا البناء وعنصر من العناصر الفاعلة في رسم ملامح المستوى المتحكم في تكوينه على مستوى الذهن.

لكن عندما تتأمل (٩٩) فإن الوصول إلى قمة العطاء يُدرك من المعنى الذي تحيل عليه لفظة «قمة»، فالقمة أوج الشيء عطاءً ووصولاً وإنتاجاً...، والقمة منتهى الانحدار ومنتهى العلو، وقممنا مستويات متباينة من الطموح والرغبة، إلا أن القمة هنا لا ترتبط بكل هذه المعاني، بل هي إسقاط يتوج العطاء بمعنى المردودية، ويتوج المردودية بحجم العطاء، وهو فهم عصي على الإدراك إن نحن سلمنا بمقتضيات الجملة تركيبياً أو نحوياً، فلو افترضنا سياقاً تواصلياً كالذي في (١٠٠) مثلاً، فإنه بمجرد أن يصل التركيب إلى متلق معين فإنه سيسأل ماذا تعني بذلك؟ إن هو لم يركن إلى المعنى الحرفي للجملة،

(١) للتوسع أكثر في ذلك يرجى العودة إلى الفصل الرابع من مؤلف «البنات الدلالية للزمن في اللغة العربية من اللغة إلى الذهن» لمؤلفه عبد الكبير الحسني، الصادر عن دار كنوز المعرفة ٢٠١٥.

فإن البحث عن المعنى في هذا السياق هو البحث عن الجزء المفقود في التواصل، فكلما كانت الإحالة واضحة كلما نجحت العملية التواصلية، فالمعنى هنا يستلزم قيوداً على السياق والاستعمال والإدراك، يجب استخدام المداخل الممكنة لتحقيق الغايات الكبرى المتمثلة في المعنى، وهذا يزيدنا يقيناً أن الإدراك بالنسبة لنا هو قمة المعنى الذي يبحث عنه الجميع، إنه المستوى النموذجي (prototype) الذي تتوافر فيه كل شروط النجاح التواصلية، بمعنى أن بالإدراك نقتل عبارة «ماذا تقصد أو تعني؟».

بناء على المعطيات المقدمة أعلاه، يمكن أن نؤكد أن بناء المعنى يخضع لآليات لها درجات ومستويات معينة، فالمعنى ليس معطى جاهزاً يمكن الوصول إليه بسهولة تامة، بل هو عملية معقدة جداً تتداخل فيها العديد من المكونات اللغوية والنفسية والاجتماعية والثقافية، إنه المحصلة التي تلتقي فيها كل تلك المكونات لترجم في شكل مستويات يمكن إدراجها على الشكل التالي:

- المعنى الحرفي: باعتباره المستوى الأول الذي تتفق حوله العشيرة اللغوية وتتواضع عليه.

- المعنى السياقي: هو المعنى الذي يفرضه سياق تواصلية معين كحالات الحب أو الغضب أو الضيق.

- المعنى التصوري: هو المعنى الذي يبنى من منطلق التصورات التي نكونها على دوال عالمنا اللغوي

- المعنى التمثلي: هو المعنى الذي يتجسد عبر تدخل معطيات الذهن في ترجمة الرسالة اللغوية بشكل يربط بين اللغة وتمثالاتنا لمكوناتها.

- المعنى الاستعاري: أظن هنا أنه المعنى فوق-لغوي الذي يقفز على كل المكونات السابقة ليصل إلى مستوى الربط بين مفهوم الترجمة اللغوية والإدراك اللغوي.

- المعنى الإدراكي: إنه المنتهى الذي يجعل من العلاقة التواصلية علاقة ناجحة كلما استطعنا أن ندرك بصورة أو بأخرى المعنى النموذجي (المقصود).

من منطلق هذه المعطيات نحن نرفض كل المقاربات التي ظلت تفصل بين مستويات التحليل اللغوي المتدخلة في بناء المعنى، نرفض التصورات التي كرس ذلك الفصل بين بنية الكلمة وبنية الجملة، الفصل بين المعجم والدلالة، نرفض أن يتم الفصل بين مستويات التحليل اللغوي والفرد كمعارف ومعتقدات وثقافة وعالم خارجي، وعليه فنحن نرفض الفصل بين المعنى اللغوي والمعنى غير اللغوي، فلا يمكن أن نصل إلى اكتشاف المعنى الجوهرى ونحن ننشد فصلا إجرائيا بين مستويات التحليل اللغوي، بل على العكس تماما، فإن نحن أردنا أن ندرك المعنى الحقيقي المقصود لجملة معينة لا بد أن نستثمر في ذلك ما تقوله نظريات بناء الكلمة في علاقتها بالجملة^(١)، أن نستثمر العلاقة القائمة بين المعجم والدلالة، أن نستثمر في ذلك الفرد كمعارف وتقاليد وعادات، فالفرد في تصورنا لا يمكن أن يكون خارج المعادلة اللسانية، بل هو محور العالم ومركز المعنى، لأن غاية التحليل اللساني هي رصد العمليات الذهنية التي تقود من الفرد وإليه، فليس هذا تحليلا نبتغي من ورائه البحث في الأمراض التي تعيق وصولنا إلى المعنى، ولكن تحليلا يمزج بين المعنى اللغوي والمعنى غير اللغوي لنصل به إلى المعنى النموذجي الذي يحقق لنا العملية التواصلية بناء على المسلمة التي تؤكد وجود مستوى واحد للتمثيل الذهني هو البنية التصورية، حيث تتلاءم المعلومات اللغوية والحسية والحركية وتتداخل في تشكيل صورة عن المعنى^(٢).

(١) هناك العديد من المقاربات التي تحدث عن العلاقة بين الكلمة وبناء الجملة كما هو مثبت في كتاب البناء الموازي للدكتور عبد القادر الفاسي الفهري وكتاب تركيب اللغة العربية للدكتور محمد الرّحالي وغيرهم ...

(٢) محمد غاليم، المعنى والتوافق، ص ٣٢

٤ - ٢ العمليات الذهنية في إدراك المعنى

قد يتفاجأ الكثيرون عندما نؤكد أن أي دراسة للمعنى هي دراسة يجب أن تنظر إليه باعتباره قائمة من العمليات الذهنية التصورية وليس باعتباره قائمة أو لائحة تبحث في مطابقة الشيء للحقيقة أو العالم الخارجي، بمعنى آخر أنه يجب أن ندرس المعاني باعتبارها عمليات ذهنية تصورية لا باعتبارها محيلة على إسقاطات للمدلولات على دوال العالم الخارجي، وهي العمليات التي ستسعدنا في فهم جديد للمعنى ينطلق بناؤه من الذهن نحو اللغة وليس العكس كما كان يتصور الداليون في الأدبيات اللسانية الأولى، ومخالف أيضاً للتصور الذي قدمه «إميل بنفيست» في كتابه «مقولات الفكر ومقولات اللغة» (١٩٦٦)، الذي حاول فيه أن يدافع على فكرة أن المقولات الذهنية وقوانين الفكر ليست، في قدر كبير منها، سوى انعكاس لنظام المقولات اللسانية وتوزيعها، فلو أمكننا عكس ذلك لقلنا مع الدلالة المعرفية أن جميع العمليات اللغوية تنطلق من الذهن إلى اللغة بالنظر إلى حجم العمليات الذهنية / المعرفية التي يقوم بها المتكلم لإنجاز جملة أو خطاب معينين، إلى جانب العمليات التأويلية التي يلجأ إليها السامع لتحليل المعنى وإدراكه.

فلو أردنا أن نشتغل على بعض الأساسيات التي تجبر البحث اللساني على كشف حقيقة انشغالاته لأوجب الأمر علينا أن نطرح السؤال: هل المعنى تفكير باللغة أم داخل اللغة؟ للإجابة عن ذلك نتأمل التراكيب التالية:

- ١٠١ تقوم اللغة على احترام قواعد النحو الأساسية.
- ١٠٢ تعد قاعدة «فيتاغوراس» من المعادلات الرياضية الناجحة.
- ١٠٣ أقامت أمريكا قاعدة عسكرية في شبه جزيرة العرب.
- ١٠٤ يعترم التحالف الدولي القضاء على تنظيم القاعدة في العالم.
- ١٠٥ تقوم قوة أي حزب على حجم القاعدة الجماهيرية التي تمثله.

إن المشترك اللفظي^(١) الذي يجمع بين كل هذه الأمثلة يتأسس على كلمة «قاعدة»^(٢) وهي هنا تضمن استعمالات كثيرة بحسب ورودها في الجملة، حقيقة ليس سهلاً أن تجمع محصلة لغوية في كلمة واحدة بمعان مختلفة ومتباينة، بمعنى أنها تضطلع بمعان متباينة بحسب شروط السياق الذي ترد فيه، وهو السياق الذي أنتج معان لغوية متميزة تلتبس في عملية الإدراك، وهو اللبس الذي انفتح على سؤال إشكالي: هل ندرك معنى «القاعدة»، كونها مفهوماً، بتفكيرنا فيها كنسق لغوي، أم أننا نتسلح بمكانزمات أخرى لإدراكه من داخل اللغة نفسها؟

بناء على التحاليل السابقة نؤكد أن أي إدراك لمعنى كلمة قاعدة لا يجب أن ينبني إلا من منطلق فرضية المعنى الموسوعي الذي دعت إليه الدلالة المعرفية، وهو المعنى الذي يؤكد أن أي مدخل معجمي يجب أن تتناسل عنه مجموعة من المعاني الأخرى بحسب ورودها في السياق، بمعنى آخر أن كلمة قاعدة تأخذ معناها بحسب طبيعة السياق الذي ترد فيه، إلا أنها تتقاطع بشكل كبير مع معان أخرى يفرضها السامع من منطلق خلفياته المعرفية والإدراكية التي تحكم تكوينه، وبالتالي لا يمكن لسامع لا يعرف الهندسة أو الرياضيات أن يتواصل مع مفهوم قاعدة المثلث أو قاعدة فيتاغوراس إذا لم تكن له خلفية معرفية تضمن سلاسة في توصيل المعنى المقصود كما وردت في (١٠٢) و(١٠٣)، لكن عندما ننتقل إلى (١٠١) فإن مفهوم القاعدة يتخذ معنا مغايراً تماماً ارتبط بالضوابط التي تدفع نحو منسقة اللغة معيارياً، وكأننا بصدد الحديث عن

(١) لقد فصل النحاة القدماء بين المشترك اللفظي والترادف بالضد، على اعتبار أن المشترك اجتماع على لفظ واحد بمعان متعددة، أما المترادف فهو عكس ذلك تماماً إذ أنه يبنى على معنى واحد بأسماء متعددة، وهم إذ يقيمون حدوداً بينهما فهم يؤكدون أيضاً تمايزاً بين المشترك اللفظي والجناس التام الاستعارة والمجاز والاقتراض.

(٢) اقتبسنا مفهوم «القاعدة» من عبد الجبار بن غريبة (٢٠١٠)، مدخل إلى النحو العرفاني، سلسلة لغويات، مسيكياني للنشر، كلية الآداب، منوبة

النحو باعتباره قواعد تجعل من اللغة العربية لغة خاضعة لثوابت إعرابية صارمة، فتكون القواعد هنا ضوابط على دوال وعلى كتابة اللغة. في حين أنه بمجرد ما تنتقل إلى (١٠٤) نجد أنفسنا أمام مفهوم جديد ينسجم مع سياق الدفاع العسكري، فالقاعدة هنا هي تثبيت للسيطرة العسكرية التي تنطلق منها العتاد العسكري في إطار مهمة حربية أو استطلاعية أو دفاعية، وفي الأمور كلها نجد أن القاعدة هنا تبني على فكرة تثبيت الوجود والسيطرة العسكريتين، إلا أن (١٠٤) تدفنا نحو بناء معطى جديد حول مفهوم القاعدة من منطلق اعتبارها جماعة متطرفة خارجة عن نظام القانون الدولي مسجلة في أروقة الأمم المتحدة كمنظمة إرهابية متطرفة تشكل خطراً على الأمن والسلم العالميين. مما يجعلنا أمام معنى آخر مختلف جذرياً عن المعنى الأخرى التي سبق الوقوف عندها، لكن بمجرد الانتقال إلى (١٠٥) سنصدم بمعنى جديد للقاعدة يستمد معناه من عدد المنخرطين في حزب معين، وهو العدد الذي يدفع الحزب إلى امتلاك قاعدة ناخبة كبيرة تضمن له الوجود الحزبي ضمن خارطة سياسية تؤمن بالتعدد والاختلاف، بمعنى أن معنى القاعدة هنا مستمد من حجم المنخرطين الذي يضمنون حضور الحزب في المشهد السياسي ويدفعون به نحو البقاء على قيد الحياة السياسية^(١).

إذا كانت قاعدة التفكير المنطقي تستوجب إزعاجاً للفكر المتحجر الذي ظل يؤمن بفكرة أنه بمجرد أن تقول قال القدماء يتعطل بموجبها العقل عن الاجتهاد، فإن سياق البحث في المعنى تطور بتطور الوسائل الواسطة اللغوية، اعتباراً أن البحث في المعنى نحا منحاً آخر يقرّ أن البحث عن المعنى كامن في العمليات الذهنية المعرفية التي تُحوسب على مستوى ذهن المتكلم، ثم يقوم بإنجازها وفق خرج لغوي يستهدف من

(١) ما ينطبق على كلمة قاعدة ينطبق على الكثير من الألفاظ الأخرى المشكلة للغة، وهي عملية نسقية ومستحبة لأنها تساهم بشكل أو بآخر في تطوير اللغة وتنميتها، فالانتقال من المصطلح إلى المفهوم إجراء تلمية الضرورة العلمية، أما الانتقال المفهوم من معنى إلى معنى آخر فتلمية الضرورة اللغوية التي تؤمن بالتفاعل اللغوي بين كل الحقول المعرفية التي تساهم في تشكيل النسق العام للغة العربية.

خلاله متلقي يُفترض فيه القدرة على فك شفرات المعنى الكامنة وراء التحقق اللغوي، وهي عمليات لا تتم أبداً ببساطة، بل تتطلب جهداً كبيراً لا يتوازي مع حجم التعقيدات التي تكون لدى المتكلم والسّامع على حدّ سواء، هو التعقيد الذي يدفع نحو اعتبار لفظة قاعدة تفرض صورة خاصة في تركيبها من منطلق أن المعنى النموذجي الذي تدور حوله باقي المعاني الأخرى يتأرجح بين الضابط والمعياري في تثبيت أمر ما. لذلك فكل المعاني المستقاة من ذلك تدور حول هذا الفلك رغم الاختلاف الواضح في التراكيب والمجالات التي وردت فيها اللفظة، ممّا يدفعنا إلى التأكيد مرة أخرى أن مستويات التحقق اللغوي من تركيب وصوت وصوارة ومعجم ودلالة ما هي إلا وجائه للتجسيد وليست محطات انطلاق في بناء المعنى، بل هي صورة عن تجليات المعنى، و بالتالي فإن نظرية المعنى الموسوعي هي الكفيلة بأن تضمن استعمالات كلمة «قاعدة» بمعان مختلفة.

عندما نتأمل كلمة قاعدة من زاوية تفكيرنا باللغة، فإننا ندرك أن الإنسان ميّال دوماً إلى ترشيد طريق المعنى باحترام ضروري وكاف لكل العناصر التي تشكل تصوره، كلما كانت تصوراتنا منفتحة على محيطنا وتجربتنا، كلما أمكننا التفكير ملياً في الجوانب التي تجعل القاعدة حاملة لكل المعاني المذكورة أعلاه، فهي محيلة من حيث المبدأ على الأساس الجوهرية الذي يشكل المعنى الذي نجده نووياً في كل السياقات الواردة أعلاه، إلا أن احترام هذا الجزء من المعنى يتفاوت بحسب السياق أولاً، وبحسب طبيعة الحمولة المعرفية المراد إيصالها إلى المتلقي، فلا أحد يمكن أن يتجاهل أن كل الوحدات التي تُتسلح بها لغات العالم في إدراك المعنى، هي في الأصل عملية إسقاطية بين صور البنية الدلالية كما في العالم الخارجي وبين تجلياتها اللغوية، إلا أن هذا الإسقاط غالباً ما يصطدم بعائق تعيين المعنى، لذلك فإن اللسانيين الذين ظلوا يشتغلون بالدلالة أكدوا أن أي معنى منبثق عن كلمة مثل «قاعدة» لا بد أن يرتبط

بطبيعة الاستعمال أو السياق الذي ترد فيه، وأكدوا أيضا أن كلمة «قاعدة» مثلا لها معنى نووي يفرض نفسه داخل جميع الاستعمالات الواردة أعلاه مثلا.

تستند المقاربة التحليلية التي نتبناها في طريقنا نحو بناء المعنى على اعتبار المعنى بناء نسقي متباين بحسب طبيعة المستوى الذي يقربه من المعنى النموذجي (prototype sens)^(١)، ونحن إذ نستعمل المعنى النموذجي فإننا نبتغي من وراء ذلك التأكيد أن جميع المعاني المنبثقة من كلمة قاعدة تعود بأدراجها إلى أصل وجودها الدلالي، وهو أصل معرفي ارتبط بالأساس بالمعنى الذي تستنبط منه باقي المسائل الأخرى المشتقة منه.

لذلك فإننا سنجد أنفسنا مجبرين على استدعاء جميع مستويات التحليل اللساني لكي نفرز جميع خصائصها التركيبية والدلالية المساهمة في بوثقتها كمصطلح أو مفهوم، على اعتبار أن المساحة اللغوية للتحليل تمتد على مسافة تاريخية طويلة وتموقع على محيط دراسي شاسع يتسع لكلّ المناحي والمستويات^(٢).

(١) نستعمل هنا مفهوما «المعنى النموذجي» الذي وجدناه أكثر تعبيراً عن المعنى الذي تتفرع عنه باقي المعاني الأخرى المشكلة لمدخل معجمي معين، ونحن إذ نستعمل ذلك فإننا نستعيب ذلك في مقابل المعنى النووي الذي يبقى في نظرنا مرتبط بالنسق المعجمي للكلمة، في حين أن الحديث عن المعنى النموذجي فهو الذي تعود إليه كل المعاني المشكلة للفظ. فالعشق والصبابة والهيام.... تعود بأدراجها إلى معنى نموذجي يتحقق فيه الحب بدرجات متفاوتة، في حين أن النسق المعجمي لها يؤكد أن كل تلك المرادفات تعود بأصلها لكلمة الحب، من هنا نستطيع أن نمايز بين المعنى النووي والمعنى النموذجي.

(٢) إن النظريات اللسانية قاربت المعنى من منطلق أنه يتولد في الصورة المنطقية باعتبارها مركز التؤولب الدلالي، وهو المركز الذي يمنح قوة للمعنى قبل أن يصل إلى المستوى الصوتي أو مستوى الخرج (output)، وأكدت اللسانيات الدلالية أن الكلمة تخرج وهي تامة التصريف تم تتقل عبر مجموعة من التحويلات والنقول لفحص السمات. هي نظرية تنسجم مع تطور الدلالة التوليدية في مرحلة البرنامج الأدنوي كما قدم في تشومسكي (٩٥)، بمعنى أن مستويات التحليل هي من تفرض على =

٤ - ٣ دور التصورات في بناء المعنى

لما قدّم لانفاكير (langacker) (١٩٩١) نظريته في الدلالة المعرفية ظل دائما مصرا على ضرورة إيلاء التصورات (Concepts) أهمية كبرى باعتبارها العملية الوحيدة الكفيلة بتمثل المعنى بصورة مختلفة، ولعل ما يميز هذه المقاربة هي الأمثلة التي تتمظهر قوة تجلي المعنى فيها من زاوية أن المتكلم يميز في القاعدة بين العلمي والسياسي والإرهابي، أما أساس المعنى في ذلك هي مجموع المجالات المعرفية التي تختص بلفظة «قاعدة»، أما الجانب المهم في هذا كله أن ما يتم إظهاره فهي تراكيب صغيرة تحيل عليها اللفظة، ممّا يدفع المعنى نحو الانفتاح على التأويل الذي يبنى في نظرنا على عنصرين أساسيين هما: القواعد التصورية التي تشمل المعارف التي يستدعيها معنى اللفظة، إذ تتجمع في شبكة من المجالات المعرفية / التصورية. أما العنصر الثاني فيختص بالعمليات الذهنية التصورية التي تشكل تلك المعاني وتعمل على تنظيمها^(١).

= الكلمة قاعدة المعنى المحدد المقيد بضوابط صارمة لا تؤمن بالساق ولا بالمقام التواصلي، وهذا أمر طبيعي إذا ما نظرنا إلى منطلقات النحو التوليدي الذي ظل ينادي بأن وظيفة اللغة ليست كاملة في التواصل، بل هي كاملة في الكشف عن العمليات الذهنية التي تتدخل في عمليات حوسبة اللغة مند الاكتساب إلى التعلم.

هذا الجرد النظري يسعفنا مليا في الكشف أن إدراك المعنى من داخل اللغة يبقى غير قادر على تخطي الحواجز التي يضعها التركيب في وجه المعنى، على الأقل في مستويات التأويل الدلالي، وهذا جانب لا يمكن إلا أن يزيد الدرس اللساني غموضا وقصورا في إدراك المعنى.

(١) من المبادئ الأساسية التي انبنت عليها الدلالة التصورية هي تلك العناصر المجسدة في الأوليات التصورية التي تساهم في بناء المقولات الأنطولوجية الكبرى عبر التسليم بفرضية الذهن، أما الجوانب التصورية الخارجية فهي التي سبق وأن تحدثنا عنها باعتبارها تصورات لها علاقة بالعوام الممكنة والصدق والنمط النموذجي والنحو المقولي والدلالة المفهومية والأوضاع... وكلها تصورات نجد لها تحليلا مفصلا في الفصل الثاني من كتاب المعنى والتوافق: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي، الصادر في طبعته الثانية عن عالم الكتب الحديث ٢٠١٠.

بين هذا وذاك هناك جانب التصور باعتباره المجال المشترك بين المعرفة والذهن؛ بحيث أنه يتدخل في تكوينهما وبنائهما وفق ضوابط تجعل مما هو معرفي مستقل على ما هو ذهني، أو لنقل إن الجوانب الذهنية الداخلية في بناء المعنى تتصور وفق المعارف الخارجية التي تمدّها بها التجارب اللغوية، فتكون المعرفة إسقاطاً لتصورات ذهنية. وهذا ما وقع مع لفظة قاعدة التي تشكلت معانيها وفق البناء التصوري الذي استقى اللفظة من التجربة اللغوية قبل أن يتبلور في شكل قوالب ذهنية مكتته من التوغل في مجالات مختلفة وفق مصوغات المعنى المقصود. فتكون بذلك النظرية الذهنية للبنية التصورية مستوى من المستويات الكبرى التي تتمثل فيه مبادئ التأليف بين النظرية الذهنية للتركيب والصّواتة وبين قواعد التأليف التصورية الممكنة التي تختص لدى الإنسان بكونها مجموعة محدودة من قواعد السلامة التصورية الكلية والفطرية^(١)

على هذا الأساس نؤكد أن معنى كلمة لا يتجسد في إمكانية إصدار حكم بصدقها أو كذبها، بسبب أنه لا توجد، في نظرنا، أية علاقة لما نُعبّر عنه في العالم الخارجي، وإنما العملية كلها رهينة بمضمون التصوري لللفظة من جهة، ومن جهة أخرى بالطريقة التي تم التركيز عليها في تشكيل المعنى وصياغته، بمعنى أدق فالواقع اللغوي قاصر على ترجمة الواقع الموضوعي كما نحن نتصوره، وبالتالي لا يمكن له أن يقدم لنا صورة فوتوغرافية عن المعنى بالمستوى الذي نريده عن اللفظة، لأنه لو كان الأمر كذلك لتحولت اللفظة إلى مجرد صورة لواقع لا نحتاج إلى إعادة تشكيله مادام هو في الأصل مشكل، بل ما يسعى إليه كل مستعمل للغة ما، ومنها العربية، هو البحث في تشكيل المعنى وفق ما يتصوره هو، وليس كما هو مشكل في العالم الخارجي، فالمعنى المرتبط بالعالم الخارجي ما هو إلا «سيمولاكر»^(٢) مشوه عن المعنى الذي

(١) محمد غاليم، المعنى والتوافق، ص ٣٢.

(٢) لقد سمعت هذا المفهوم في إحدى المحاضرات التي ألقاها أستاذنا محمد رقيد برحاب كلية الآداب =

يريد الإنسان أن يوصله إلى متلق نموذجي قادر على فك المعنى وفق تصوراته ومعارفه وتجاربه، وعليه فإن بناء المعنى الحقيقي هو الذي تتداخل فيه كل مقومات النجاح الضرورية والكافية من لغة وتصورات ومعارف وتجارب، وبالتالي أصبح حديثنا عن المعنى الموسوعي أمراً ضرورياً أمام التحديات الجديدة التي تفرضها علينا التطورات المتلاحقة للدراسات والأبحاث اللسانية الحديثة المتجسدة في مشروع الدلالة المعرفية ومنطلقاتها التي تعتبر أن المعنى غير كامن في اللغة فقط، بل يتجاوزها الأمر حدود ذلك نحو الذهن.

خاتمة

حاولنا من خلال هذا البحث أن نغوص في عمق التحليل الدلالي المعرفي لنكشف عن الآليات المتدخلة في بناء المعنى، منطلقين في ذلك من النظريات اللسانية الأولى التي مهدت لنا الطريق نحو البحث في الدعائم التي تؤسس للمشروع الدلالي في الدراسات اللسانية الحديثة، مفترضين في ذلك أن بناء المعنى ليس معهوداً إلى طبيعة التصورات التي تربط بين المعنى والمرجع أو الإحالة والماصدق... بل أكدنا أن المعنى هو فعالية إجرائية تساهم فيها أنظمتنا التواصلية التي تظل فعالة بشكل كبير حتى عندما تنقطع جميع السبل اللغوية المشتركة، مستثمرين في ذلك مسلمتنا التي أكدنا من خلالها أن المعنى خامة كلبية لا تعترف بالحدود اللغوية المترامية هنا وهناك، فالمعنى مؤسسة شرعية لكل المداخل المؤسسة للغة.

= بن مسيك، الدار البيضاء، في إطار الأنشطة الثقافية التي كانت تنظم هناك، سنة ٢٠٠٩. وهو يعني فيما يعنيه تقديم صورة مشوهة عن الصورة الأصل رغم المحاولة الدائمة للبحث عن التتابع، إلا أن تحققه يكون غاية لا تدرك. فظل يستعمل دلالة عن ذلك.

الفصل الرابع آليات بناء السمات

تقديم

من أهم الفتوحات التي قدمتها اللسانيات للدرس اللغوي بشكل العام هي السمات، فهي اليوم من المفاهيم التي تأسست عليها النظرية اللسانية الحديثة، ليس فقط لكونها تكشف عن عوالم مقولية مكبوسة، بل تكمن قوتها في قدرتها على وصف العناصر اللغوية وتفسيرها في محاولة لرصد حدود التأليف بينها من منطلق أن إحالتها على مجموعة محددة من العناصر المجردة القابلة للتأليف، وهي العناصر التي تعمل على تخصيص الموضوعات اللغوية صواتيا وتركيبيا ودلاليا. لذلك سيكون من المنطقي أن نعتبر أن دراسة السمات هي في الأصل دراسة تختص بالهندسة العامة للنحو من قواعد وعمليات التي يتأسس عليها، وعندما نتحدث عن هندسة نحوية فإننا نستهدف بالدرجة الأولى الذهن من خلال البحث عن الطرق التي تكتسب من خلالها السمات وتعلم، وإذا كان الأمر كذلك فمن المهم أن نحدد أن دراستنا للسمات لا يمكن أن تخرج عن البحث في طبيعتها وهندستها وتفاعلاتها^(١).

تختص السمات بطبيعة متفردة جدا كونها تعمل على فحص مستويات التمثيل النحوي وحصر ذلك في لائحة أو طبقات متميزة بين ما هو كلي فيها وبين ما هو جزئي، على اعتبار أن الكثير من المستويات اللغوية قد ترتبط بسمات كلية وشاملة في الوقت الذي نجد فيه البعض الآخر مختلفا ومتمائزا. وهي تداعيات مقولية تؤسس من

(١) محمد غاليم (٢٠١٠): لماذا السمات؟، مقدمة كتاب السمات في التحليل اللغوي، منشورات مختبر

اللسانيات والتواصل، ص ٩،

جهة للمقولات المعجمية الكبرى (اسم؛ فعل؛ حرف؛ صفة) ومن جهة أخرى تؤسس للمقولات الوظيفية (الزمن؛ التطابق؛ الجنس؛ العدد؛ الشخص؛ الإعراب)، على اعتبار أن صياغة هذه السمات يتم عبر مراحل منسجمة ومتدرجة تنطلق من التكوين الصّوتي ومنه العلاقات الدلالية عبر الكشف عن سماتها الدلالية (الأشياء؛ الأحداث؛ الحالات؛ الفضاءات؛ الأزمنة؛ النشاطات؛ الإنجازات...) وسمات الحقول الدلالية التي يحددها فعل المقولة، وسمات جيئية لها علاقة بالمحدودية واللامحدودية، والبنية الداخلية والاتجاه...^(١)

لكن في مقابل ذلك، عندما نتحدث عن هندسة السمات فإننا نروم من وراء ذلك البحث في الكيفية التي تصنف بها صور هذا التصنيف، بمعنى أن دور الهندسة هنا هو العمل على تقييد مختلف العمليات التي تختص بالضم والنقل والتعديل، على اعتبار أن نقل المقولة في أي مستوى من مستويات التمثيل النحوي يكون لضرورة صرفية، ومفهوم الضرورة ينسجم هو الآخر مع مفهوم الضم، فلا يمكن أن نضم أي سمة إلى مقولة ما إلا إذا كانت تطابقها، وبالتالي نكون بحاجة إلى رصد الهندسة العامة التي تتحكم في توزيع السمات على المقولات العامة.

أما الجانب الأخير من العملية فيرتبط بحدود التفاعل المفترض بين مكونات النسق اللغوية، بمعنى البحث في أفق الاتصال المفترضة بين الأنساق اللغوية والأنساق الإدراكية، على اعتبار أن كل كيان لغوي سواء أكانت سماته مستقلة أو مشتركة، فإنه في نهاية المطاف يرتبط بنسق آخر مبرمج على مستوى الذهن البشري، فكل كيان لغوي يتوازي بمعنى من المعاني مع تصور ندرك معالمه من خلال القدرة على تمثله بالصورة المرجوة. وهو الرصد الذي نفهم من خلاله الملكة اللغوية القائمة على تمثيلية مستقلة

(١) محمد غاليم (٢٠١٠): لماذا السمات؟، مقدمة كتاب السمات في التحليل اللغوي، منشورات

بسماتها ومبادئ تأليفها^(١). إن ما يجعل نسق سماتنا مبين بشكل هندسي هي تلك القدرة على تجاوز الطابع اللغوي للسمات إلى الطابع غير اللغوي، فنسق إدراكنا هو نسق غير لغوي لكنه في مقابل ذلك لا يستقيم إلا بالربط بالعناصر اللغوية التي تترجمه إلى لغة حاملة لكل شروط الفهم والقصدية، وهي المقتضيات التي تساهم بشكل كبير في رسم أن الكثير من السمات قد لا يخرج عن نسق التفرد خصوصا السمات الصوتية التي يتفرد بها كل واحد منا عن الآخر، فهي سمات بطابع فردي تحلل خارج نسقها. والأمر نفسه بالنسبة للنسق السمعي، بمعنى أكثر دقة نفترض أن رصد السمات بمختلف مكوناتها لا يمكن أن يتحقق إلا عبر هندسة من توافقات بين مظاهر بنيات مختلفة تجمع بين المكونات الدلالية والفضاء، عبر وسيط البصر الذي يقتصر دوره في محاولة الربط بين المعلومات الدلالة اللغوية والمعلومات البصرية الفضائية التي تعتبر نسقا إدراكيا غير لغوي يتأسس دوره على توفير صورة للتمثيل البصري فقط عبر خصائص هندسية لها علاقة بالطول والحجم والمسافة... لكن بقليل من الجهد نجد أنفسنا أمام عملية ذهنية معقدة تعمل على تحقيق توافق يربط بين عناصر إدراكية بعناصر لغوية^(٢).

١ - الهندسة العامة للسمات

عندما نستهدف بالدراسة النسق العام الذي يتدخل في بناء التصورات، فإن ذلك يقتدي العودة إلى الآليات المتدخلة في بناء الهندسة العامة للذهن البشري، على اعتبار أن اللسانيات المعرفية اليوم اتجهت نحو تشكيل العديد من التصورات والمقاربات من أجل تقريب صورة اشتغال اللغة داخل المنظومة العامة للذهن البشري، بالنظر إلى أن بناء التصورات يرتبط بطبيعة المعلومات اللغوية التي تقدم للدماغ، فإذا كانت المعطيات

(١) المرجع نفسه، ص ١٠

(٢) محمد غاليم (٢٠١٠): لماذا السمات؟، مقدمة كتاب السمات في التحليل اللغوي، منشورات

مختبر اللسانيات والتواصل، ص ١١

المقدمة للذهن صحيحة فإن تصورنا لها يكون صحيحا والعكس صحيح، بمعنى أن تشكيل النسق التصوري يرتبط بالمعلومات المقدمة من المحيط اللغوي الخاص. وما نحاول أن ندافع عنه هنا هو أن بناء التصورات يتحدد وفق الطبيعة المقولية لها سواء أكانت سمات أو تمثلات أو تراكيب....

إذا كان من الطبيعي أن يفهم الإنسان طبيعة التعقيد الذي يتحكم في مستوى لغته، فإن ذلك يتطلب البحث في السمات التي تتحكم في بنيات تراكيبها اللغوية، وهي السمات التي تشتغل داخل نظام محوسب ومنهجي يضمن للتركيب سلامة لغوية أكثر قوة وأقل هامشا للخطأ، لكن مع ضرورة التركيز على الآليات التي تتولد وفق عمليات داخلية نتصور من خلالها اللغة نظاما نسقيا من السمات التي تتوزع بطريقة فعّالة ومنهجية داخل النظام الحاسوبي لبني البشر.

نفترض، بناء على هذه المعطيات، أن اللغة لا يمكن أن تُفصل عن باقي المكونات المقولية التي يحركها الإدراك (Perception)، فهي ليست نشاطا مستقلا بذاته، بل تدخل في بناء خطاطات وصيغ (Schemes) تتولد من منطلق أنماط أولية وأصلية (Types primitive)، وعوامل (Operators)، فتعدّ السمات، بهذا المعنى، شبكة مبنية من الدلالات التي تربط بينها علاقات متنوعة^(١)، إذ تستمد المعاني المرتبطة بها من خلال اشتقاق تفاعلاتها الموجودة بين المعنى النووي وتشكيل المعاني، بالإضافة إلى عامل مهم يتمثل في طبيعة المستعمل ومستوى معارفه، ومن ثم فإن التمثيل الدلالي إلى جانب الآليات المعرفية، إضافة إلى موقعة اللغة، كلّها تستنجد بتعدد السمات لبناء سمات دلالية على المستوى المعرفي في اللغات الطبيعية، اعتبارا أنها لا تملك خصائص دلالية ثابتة تتكرر في جميع الاستعمالات والسياقات انطلاقا من

(١) ديكلي وفلاكول (٩٨)، الدلالة المعرفية للعمل، ترجمة أحمد برسول، ضمن أبحاث لسانية، المجلد ٥، العدد ١: ٢٠٠٠، ص ٦٨.

مبدأ التوافق الذي يربط بين المقولات وشروط دلالتها السياقي، لذلك يكون التمثيل الدلالي للسمات شرطا ضروريا لتزويد الشبكة اللغوية بخصائصها، وهو التمثيل الذي بنيناه على فرضية أن خط السمات من حيث تسلسله ومصنوفته واحد، فكل متكلم يتتقى من سيرورة تلفظه ما يناسب سياقه الاستعمالي^(١).

١ - ١ الطبيعة الدلالية للسمات.

ما يحسب للسانين اليوم أنهم استطاعوا أن يكشفوا الكثير من الظواهر اللغوية القديمة ويعيدوا تفسيرها من جديد تعميقا وتحليلا ومعالجة، بل إنهم غيروا من نظرتنا للنحو القديم بتجديدهم المتواصل لنظرتهم لتراثنا اللغوي القديم، وحتى لا نتحامل على الكثير من الباحثين المتعصبين، فإن الدرس اللساني الحديث كشف كنوزا جديدة كانت مخبأة داخل قواعد سطحية، وظواهر لغوية بسيطة، وقواعد نحوية مستهلكة، وذلك من خلال الكشف عن عناصر جديدة فسرت الموجود بطريقة محوسبة وممنهجة^(٢).

من أشد الأمور حساسية ودقة في الدرس اللساني الحديث دراسة السمات، وهي الدراسة التي تشتغل على مسألة جوهرية ترتبط بظواهر الإصهار (Fusion)

(١) محمد الملاح (٢٠٠٩)، الزمن في اللغة العربية، ص، ٤٨٢.

(٢) فإذا زعم بعضنا أن يقف عند النحو العربي القديم، فإن للأمر تفسيران أساسيان: أولهما يمكن أن يعود إلى طبيعة المادة اللغوية المعالجة، فهي قواعد ميتة لا يمكن أن يسلم العقل بتجديدها ومساسها أو حتى مناقشتها، وهو ما ذهب وراءه الكثير من النحويين السلفيين الذين وقفوا عند حدود «أن الأوائل لم يتركوا للمتأخرين شيئا إلا ودرسه» وهذا أمر يدخل ضمن التفسير الثاني، أي أن الوقوف عند مستوى ما قدم في النحو العربي يقدم نفسه بأمرين، إما مادة ميتة أو باحث حيث (تشومسكي). إذ أصبح مما لا شك فيه أتم معالجة النحو العربي القديم بطريقة معاصرة، وهي المعالجة التي يجب أن تنصب على ضبط المناهج والظواهر اللغوية التي اشتغل النحو العربي على دراستها وتحليلها، ولا يوجد شك واحد في أن هناك جيلا من الباحثين المعاصرين أكدوا بالملمس والحجة والدليل أن الدرس النحوي العربي فيه الكثير من نقط الضعف التي لم تفرز فيها دراسات وتحليل كافية فسرها وفق متطلبات اللغة والنحو والدلالة.

والكبس (compression) والشطر (fussion) التي تحدث عنها عبد القادر الفاسي الفهري ١٩٩٧. وهي مجموعة من العمليات التي ترتبط تحديداً بكون جميع المقولات اللغوية الفعلية مثلاً تكبس ضمنها الكثير من السمات التي تحدد طبيعتها المقولية والمعجمية والدلالية، بل إنها تعمل على تحديد المجالات التي يجب أن ترد فيها توأصلياً. ومن الأمثلة على ذلك أن تقول: [ضرب] فتحدد سماته المكبوسة داخله في كونها [+ف][+أثر][+متعدي][+ضحية]... وهي السمات التي يصعب على اللغة أن تكشفها في كليتها، بل نكتفي في المعجم بالوقوف عند مستوى الصورة المعجمية دون حتى الإشارة إلى مكونات الفعل الحقيقية.

فإذا كان المعجم لا يقدم تفاصيل حول السمات التي تحملها مدخله معجمية، فإن الأمر انعكس سلباً على باقي المستويات الأخرى المشاركة في عملية التحليل اللغوي، الشيء الذي دفعنا نحو البحث في السبل التي تجعل من السمات أقوى عملية تركيبية تشهدها لغات العالم، لأنها تؤثر بشكل كبير على المسار الدلالي للمفردة. وبما أن مشروع مركزية السمات الدلالية كما يتصوره الداليون المعرفيون الجدد (لانكاشير، إيفانس)، حاول أن يقدم نفسه في صورة شمولية تكتفي بالتحليل الدلالي في مركزيته، ودون إسقاط لباقي مكونات داخل العمليات التركيبية، فإن مشروع البحث في السمات الدلالية ودورها في تنظيم وحوسبة العمليات الذهنية للتراكيب اللغوية له أبعاد ترتبط بقوة اللغة وغناها المعرفي والدلالي، كما يساعدنا هذا المشروع في فهم وإدراك أن اللغة العربية من أقوى اللغات السامية التي استطاعت أن تجد لنفسها نظاماً حاسوبياً غنياً استوعب بشكل كبير الكم الهائل من الأمواج المعلوماتية لدرجة أن الكثير من المشككين في قدرة صمودها تنبؤوا بقرب كتابة شهادة وافتها، وعليه فإن مشروع البحث الذي نقترحه هنا ينطلق من افتراض أن دلالة السمات هي المسؤولة عن توزيع المفردات داخل بنية المعجم في اللغة العربية بناءً على ما هو مقدم داخل مشروع

مركزية السمات في الدلالة المعرفية، الشيء الذي يتحكم في توزيع الشبكة الدلالية للسمات وفق مقتضيات الاستعمال والانتقاء على الشكل التالي:

المدخل المعجمي: [+محور] [+منفذ] [+ضحية] ← بالنسبة لسياق الرتبة [ف + فا + مف]
 ↓ ↓ ↓
 [+ اسم] [+ اسم] [+ ف]

[فعل] ← [+محور] [زم] [+حدث] [-متعدي] [-لازم] [-حالة / نشاط / إنجاز / إتمام] ...

[اسم] ← [+فا] [-جامد] [-عافل] [-حدث] [-زمن] [-حد] [-عدد] [-جنس] [-منفذ] ...

[اسم] ← [+مف] [-جامد] [-عافل] [-حدث] [-زمن] [-حد] [-عدد] [-جنس] [+فضلة] ...

وعليه سيكون من السهل جدا أن ندافع على فكرة أن مكونات السمات الدلالية في اللغة العربية قابلة لكي تبرمج معلوماتها باعتبارها مداخل معجمية يتم برمجتها ذهنيا لكي تستجيب للتطور الهائل الذي تعرفه اللغة، وتعمل على تنظيم اللغة وحوسبتها وفق برامج آلية دقيقة تشبه إلى حد كبير البرمجة الذهنية للغة، كل هذه المعطيات لها ما يبررها لانسجامها مع العديد من الشروط الضرورية والكافية القادرة على رصد تحركات السمات اللغوية ضمن هندسة دلالية منظمة.

من الواضح أن البحث في السمات أضحى مهما للغاية، ليس فقط على مستوى التحليل اللغوي، بل إن أهميتها تتجاوز ذلك لتصل إلى مستوى الفصل في الدلالة العربية بين الدلالة في صورتها المعجمية والدلالة في صورتها المنطقية، فكل واحدة منهما اتخذت منهجا تحليليا خاصا بالنظر إلى أن الدلالة المنطقية تركز الاهتمام على الخصائص التأليفية للتأويلات القضائية، فصار البحث في الدلالة المعجمية ينطلق من الفعل نحو الجملة، في الوقت الذي تختص فيه الدلالة المنطقية بدراسة الجملة نحو الفعل، كل هذا في محاولة لرصد سلوك السمات ورصد دورها في التمثيل الدلالي للمقولة بمختلف مستوياتها، هكذا تمثل التركيبيون حقيقة التفاعل الممكن بين دلالة

الحدث والبنيات التركيبية، فصار بذلك هذا الاكتشاف أهم انجاز تحقق في الدرس اللساني^(١).

١ - ٢ - الطبيعة المقولية للسمات.

أشارت كتب النحو العربي في مجملها أن مكونات الفعل العامة تتلخص في [+زمن + حدث] وهي المكونات التي يمكن أن نعتبرها تلخص أكثر الجانب التركيبي للفعل، مما يعطي الانطباع أن القواعد العامة المتحكمة في مقولة الفعل لا تخرج عن باب الزمن والحدث.

إضافة إلى الجانب المنهجي المرتبط بالجانب التركيبية للفعل. هناك سبب آخر يدفعنا إلى السعي وراء إثبات أن هذا الجانب قد أصبح من علوم تراثنا النحوي القديم والمتمثل تحديدا في كون الفعل خزّان معجمي من السمات التي تنصهر داخله بصورة منهجية ومحسوبة. فإذا كانت الدلالة المعجمية تنطلق في البحث من الفعل نحو الجملة، فإن الدلالة المنطقية تنطلق من الجملة نحو الفعل لتمثيل الوقائع الدلالية التي ترتبط بالخصائص المتعلقة بالحدث في الفعل^(٢). لذلك فإن الدلالة التي نحتاجها اليوم يجب أن تفسّر لنا حضور هذا الكم الهائل من السمات داخل البنيات المعجمية، بل ويجب على النظرية الدلالية أن تعمل على فحص (cheking) كلّ السمات من أجل بناء نظام لغوي متماسك ومفسّر بطريقة هندسية تحترم خصوصيات البناء الذهني، فلا يعقل أن يترك المجال إلى الصدفة، كما لا يعقل أن تنحصر محددات البحث في دلالة الفعل مثلا على المحور وموضوعاته، أو على المحور والمنفذ والضحية. بل يجب على النظرية الدلالية أن تكون أكثر جرأة في الكشف عن السمات المعجمية المسؤولة

(١) عبد المجيد جحفة (٢٠١٠)، في سمات الحدث، ضمن كتاب السمات في التحليل اللغوي،

منشورات المختبرات التابع لجامعة الحسن الثاني، ص، ١٤

(٢) عبد المجيد جحفة (٢٠١٠)، المرجع نفسه، ص، ١٤.

على سلامة الفعل تركيباً، وبالتالي فإننا نعتقد أن مركزية التفسير الدلالي هي الأكثر حضوراً وقوة من مركزية التركيب اللساني في هذه النقطة^(١).

لقد تحدثت اللسانيات التوليدية عن وجود العديد من الأفعال التي تشتق منها سمات تحدد مقولة الفعل، وسمات أخرى تشتق منها مقولة الاسم، وهي السمات التي ترتبط تحديداً بهندسة السمات الإعرابية (Feature geometry) كالوجه والموجه والزمن والتطابق...، وهي السمات التي تمت ترجمتها دلالياً وتركيبياً بالمقولات الوظيفية (Functional categories)، وهي المقولات التي تأتي دائماً مصاحبة للمقولات المعجمية التي تكوّن التركيب، وبالتالي تم الحديث عن الدور الذي تلعبه السمات في تحديد نوع الإسقاط المعجمي أو الوظيفي المناسب داخل مجال التركيب، إلا أن النظرية المؤطرة لطبيعة العلاقة بينهما تساق بناءً على نظرية محددة ومحوسبة بدقة متمثلة في «نظرية فحص السمات» كما وردت عند تشومسكي في البرنامج الأدنوي^(٢).

إذا كان شيوع الشيء يقدم دليلاً على صحته، فإننا نريد أن نفند هذه المزاعم لمحاولة زعزعة النظام المعرفي للنظرية التركيبية ومحاولة إيقاظ أشباح النظرية الدلالية لكي نعيد مرة أخرى طرح بعض الأسئلة الجوهرية ضمن اللسانيات بشكل عام، فما تم اعتباره سمات للفعل (الزمن، الوجه، الموجه، التطابق، المصدر...) في النظرية

(١) عندما نتحدث عن مركزية الدلالة فإننا نقصد بذلك المشروع الطموح الذي رفعه العديد من اللسانيين الحدائين، إذ اعتبروا هذا المشروع نقطة مركزية وأساسية لتفسير الظواهر اللغوية، إلا أنه في الوقت نفسه لا يقصي باقي المكونات الأخرى، بل يدخل معها في تكامل وانسجام لإعطاء صورة واضحة وشاملة عن اللغة، مع العلم أن لكل واحد ضوابطه التي تقيّد تحركاته داخل فضاء اللغة العام

(٢) تعد نظرية فحص السمات في إطار البرنامج الأدنوي من ركائز النظرية، إذ تعتبر أن الكلمة تخرج تامة التصريف من المعجم، فتقوم هذه النظرية بفحص المقولات، فما تطابق معها كان سليماً، وما لم يتطابق معها تسقط البنية مباشرة. وفي ذلك قواعد كثيرة للتعرف عليها أكثر يرجى العود إلى. تشومسكي (٩٥)، (الفاسي الفهري ٢٠٠٠)، محمد الرّحالي (٢٠٠٣)...

التركيبية نعتبره نحن سمات دلالية تساهم في إحاطة الفعل دلاليا، من جهة بالعوامل المتدخلة في تباته، ومن جهة أخرى، فإن كل تلك السمات ما هي إلا مقولات وظيفية تعمل على صياغة الفعل دلاليا لتمنحه سلطة الخروج إلى التركيب، وعندما نتحدث عن مسألة الخروج فإننا نؤكد من وراء ذلك أن التركيب واجه من وجائه (Interfaces) الدلالة سواء أكانت منطقية أو معجمية، على اعتبار أن منطلق التفكير اللغوي يكون دلاليا قبل أن يتبلور تركيبيا، وبالتالي فإن مركزية الدلالة التي تمنح للفعل أو الاسم هي المساهم في نقله إلى التركيب، ومن تم إلى الاستعمال^(١).

إذا كان الهدف من التحليل اللغوي هو معرفة خبايا الكلمة، فإن التفكير في البحث عن السمات شكل نقطة انطلاق مهمة لتبيان أن الكلمة ما هي إلا وجه بسيط جدا من المعلومات والمعاني، على اعتبار أن البحث في دواخلها ينم عن وجود عالم لغوي آخر له غناه ومسوغاته التي تدفع به إلى الاستعمال السليم داخل مجال اللغة، أما وأن نبرمج ذلك وفق آليات معلوماتية حديثة، فإن ذلك يستجيب لضرورات حتمية فرضها التطور، لذلك فإن إي برمجة معلوماتية لأي مفردة يجب أن يؤسس له من منطلق هندسة لغوية عامة التي أفرزها البحث اللساني حول السمات، فمثلا إذا أخذنا مدخلا معجميا من قبيل: كتب أو جرى أو بلغ أو أتم أو أحب أو مرض أو رقص، فإننا نكون أمام عالم من السمات التي تدفع بنا إلى التأكيد أن بينها بون شاسع من الاختلاف.

وما يدعونا إلى التساؤل هو أن طبيعة السمات الواردة في (كتب) مثلا قابليتها

(١) نجد تبريرا لهذه الصيغة عند الكثير من اللسانيين الذين ظلوا ينادون بمركزية الدلالية في المشروع اللساني الحديث من قبيل: (لانكفير)، (جاكندوف)، وبالتالي ندافع هنا عن افتراض أن السمات التي تتطابق مع الفعل في اللغة العربية هي سمات دلالية أكثر منها تركيبية، مؤكدين في السياق نفسه أن تركيبية فحص السمات ما هي إلا نظرية دلالية تساهم في بلورة مشروعية الاستعمال اللغوي والتركيبية لأي مقولة كيفما كان نوعها.

أن تؤول على الاستمرارية، إلا أن مجموعة من الملاحظات يمكن أن تستنبط عن بعد، وهي أنه إذا كان صادقا أن أحدا يكتب الآن، فإنه وإن انتهى من الأمر في اللحظة الموالية، فإنه سيكون صادقا أنه كتب، ومن جهة أخرى، إنه وإن كان صادقا أن أحدا كتب ساعة حتى الآن، فإنه وإن انتهى من الكتابة في أي لحظة موالية، فإنه قد يكون صادقا أنه قد كتب في ساعة، بمعنى أدق، إذا توقف أحد عن الكتابة في ساعة، فإنه لن يكون قد كتب في ساعة، ولكن من يتوقف عن الكتابة يكون قد كتب، وبالتالي لا معنى للحديث عن إكمال الكتابة. فنصل إلى أنه إذا لم تكن الكتابة نقطة نهاية، فإن الكتابة في ساعة لها ذروة / قمة يجب بلوغها، لذلك يكون السؤال عن ذلك بالمدة تحديدا (ما المدة التي استغرقتها في الكتابة؟). نستخلص كذلك من هذه الاعتبارات أنه إذا كان صادقا أن أحدا كان قد كتب لمدة ساعة من الزمن، فإنه يجب أن يكون صادقا أنه كتب خلال كل أطوار هذه الساعة، غير أنه إذا كان صادقا أن من كتب نصف ساعة، فلا يمكن أن يكون صادقا أن الكتابة كانت في ساعة كاملة من كل الأطوار الفعلية لهذه الكتابة، رغم كونه يبقى صادقا أنه كان يكتب ومنخرطا في ذلك خلال كل الأطوار الفرعية التي تتكون منها تلك الساعة، لذلك فإن كل جزء من الكتابة هو من طبيعة الكل نفسه^(١).

إن ما ينطبق على الفعل كتب قد ينطبق على باقي الأفعال الأخرى، فنحن لا يهمنا جرد حصيلة كل الأفعال التي تشكل اللغة العربية، بل هدفنا أن ننبه أن بينها فوارق كبيرة في المعنى، وهي الفوارق التي تعزى إلى السمات التي يحملها الفعل داخل المعجم، كما ننبه إلى أن المعجم اللغوي لا يراعي كل تلك التمايزات الموجودة في الفعل كتب مثلا، فما بالك بباقي الأفعال الأخرى، لذلك يجب أن نبني معجما بديلا منظما يحترم الخصوصيات الداخلية التي تكبس داخل مداخله، وهو المعجم الذي يجب أن يبنى على معلومات تحترم خصوصيات السمات التي يحملها كل مدخل معجمي، بمعنى

(١) عبد الكبير الحسني (٢٠١٥)، البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن، ص ٢٤٩

أدق يجب أن نبي معجما استراتيجيا تظهر فيه الكلمة مع باقي سماتها التي ترافقه بالنظر إلى طبيعة الفعل كما هو مبين في المثال التالي:

✓ أحب: [+ فعل] يؤشر على الحالة **Status**: تؤشر الحالة إلى ظرفية زمنية محددة لكونها تعمل على تأطير الزمن.

✓ بلغ: [+ فعل] يؤشر على الإتمام **Achievement**: يؤشر الإتمام على خلفية زمنية نعبر عنها بالمدة (ثلاث ساعات)

✓ جرى: [+ فعل] يؤشر على النشاط **Activity**: يؤشر النشاط على خلفية زمنية مبنية على التواتر (دائما، كل يوم..)

✓ كتب: [+ فعل] يؤشر على الإنجاز **Accomplishment**: يؤشر الإنجاز على فاصل زمني محدد (أنجزت العمل بين ٨ و ١٠)^(١)

إن ربط اللغة بالسمات يعود بالأساس إلى النسق الذي يفرض علينا أحيانا أن نقرأ المداخل المعجمية من زوايا مختلفة، إذ يفرض علينا أيضا أن نجعل من الكتابة والبلوغ والجري والحب... طبقات فعلية لا يمكن أن تقوم إلا بالنظر إلى طبيعة السمات التي تقع داخلها، بل إنها أفعال تُفحص (Cheking) وفق هندسة ذهنية قوية من قبيل: التواتر، السيرورة، اللاسيرورة، المحدودية، اللامحدودية، المدة، الفترة... الخ، إننا نجعل من السمات رموزا إيحائية تساعدنا على فهم تصوراتنا للمقولة، وتساهم أيضا في رسم خطاطة تقنية عن طبيعة الحمولة الدلالية التي نبي من خلالها نسقنا اللغوي^(٢).

(١) هناك ظاهرة تعرف في اللسانيات الحديثة بنظرية الانزلاق الدلالي (Semantic Drift)، وهي نظرية شائعة في طبقات الأفعال، إذ تتحول بموجبه الإتمامات إلى إنجازات أو نشاطات.. الشيء الذي يعكس أن هذه الطبقات لا تشكل جزرا لا تتقاطع فيما بينها، بل بإمكان أن تتحول الإنجازات (بلغت القمة في ساعة) إلى إتمامات (بلغت القمة الآن) أو إلى حالات (أحب بلوغ القمة) أو نشاطات (أجري نحو بلوغ القمة).

(٢) عبد الكبير الحسني (٢٠١٥)، البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن، ص ٢٤٣

لذلك فنحن نقترح أن بمجرد أن يدون الباحث المدخل المعجمي المطلوب، تظهر له خانة جانبية تبين له كل السمات التي تتدخل في بناء معناه، وهذا باب لا يقتصر على الجوانب التركيبية والدلالية، بل حتى طبيعة الأصوات التي تشكل البناء العام للكلمة، ليبقى على النظرية اللسانية أن تكشف عن السمات الكبرى التي تساعدنا بشكل أو بآخر على عملية الفحص.

نصل إلى خلاصة مفادها أننا لا يمكن أن نقيّد الأفعال ضمن طبقة محددة من السمات، بل يجب أن نراعي في ذلك مجموعة من الاعتبارات التي تُمنح من الهندسة العامة لبنياتها الداخلية، الشيء الذي يؤكد الطرح الذي انطلقنا منه، وهو ضرورة التركيز على كلّ السمات الداخلية قبل الحسم في الواجهة المدخل المقصودة، بل إن هذه الخلاصة تقودنا، حقا، إلى اعتبار أن الشبكة العامة للسمات تعيش سيرورة تفاعلية قد تنقل النشاط إلى إنجاز، والإنجاز إلى إتمام، وهكذا، بل إنها أيضا سيرورة قابلة للتأويل والقراءة من جوانب مختلفة تجعلنا نعتبر الإنجاز كمية محدودة، ونعتبر النشاط كمية غير محدودة، وهكذا...

إذن، نحن بصدد معالجة مهمة لمسألة معجمية معقدة جدًا، وهي المسألة التي تفترض وجود مجموعة من البنات الداخلية من قبيل: [±محدود]، [±سيرورة]، [±إنجاز]، [±إتمام]، وهي بنات لا تؤشر عليها الأفعال في المعجم، بقدر ما يتم استحضارها عبر سمات تبنى فقط في التراكيب بواسطة حوسبة تأليفية^(١).

وبهذا يكون نسق سمتي [±محدودية] في علاقته بالسمات الداخلية موزع على الشكل التالي:

[+ مح] ————— حدث مغلق (بلغت القمة في ساعة)

[+ مح] ————— حدث تكراري محدود (أكتب رواية)

(١) محمد الملاح (٢٠٠٩)، الزمن في اللغة العربية، ص: ٣٤٤.

[- مع] _____ سيرورة غير محدودة (أنام)

[- مع] _____ سيرورة تكرارية غير محدودة (أصلي باستمرار)^(١).

بناء على هذا التوزيع المعقد للسمات في اللغة العربية، فإن من أشد الأمور وضوحاً في تفسيرها أن يجد الباحث نفسه أمام عالم ميسر من المعلومات، وهي المعلومات المشخصة في شكل سمات مكبوسة يحتاجها المتكلم لتبيان النسق الداخلي للمدخل المعجمي المراد البحث عنه، لذلك نحتاج إلى ضرورة بناء برمجة معجمية للسمات لتسهيل عملية البحث وتيسيرها؛ لتربح بذلك الجانب المنهجي في توزيع مفردات اللغة، ومن زاوية أخرى نبين أن اللغة العربية من اللغات التي تعرف غنى اشتقاقياً على مستوى التصريف وعلى مستوى السمات.

١ - ٣ - مستويات التمثيل الدلالي للسمات

من المؤكد أن فحص السمات في المقاربة التوليدية الأدنوية تعتبر من المقاربات التي أولت اهتماماً كبيراً للمقولات الوظيفية باعتبارها انعكاساً للبنية الصرفية في اللغات الطبيعية، وبالتالي فهي إسقاط لسمات الصرفية داخل مجال التركيب، وبالتالي فإن أهم عمل أسس لهذه المسألة يعود إلى (89) (Pollok)^(٢) الذي افترض فيه أن المقولات الوظيفية ما هي إلا تفكيك للصرفية التي تتضمن مجموعة من السمات على الشكل التالي:

- الفعل (م معجمية) ← (م وظيفية) ← [التطابق] [الزمن] [الوجه] [المصدر]

(١) عبد الكبير الحسني (٢٠١٥) البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية، ص ٢٦١
(٢) من المفارقات التي نجم عنها هذا التسلسل في السمات هو الاختلاف الحاصل بين العديد من اللسانيين حول أسبقية سمة عن أخرى، فمثلاً: إذا كان Pollok يجعل الزمن فوق التطابق، فإن أوحلا يعتبر في لغات) فا. ف.مف) (أن التطابق فوق الزمن، في حين إذا كانت اللغات من طينة) ف. فا.مف) (فإن الزمن يكون فوق التطابق، وبالتأليف فإن رتبة المقولات الوظيفية لم تستقر على حال واحدة، بل تعدت المقاربات في الأمر اعتباراً أن كل اللسانيين يملكون مقاربة خاصة في توزيعها.

فإذا كانت اللغة العربية من طينة اللغات التي تخضع تراكييها لبنية ترايبية تعمل على تصدير الفعل، فإن اشتقاق الرتبة فيها يكون [ف+فا+مف] مما يحتم على النظرية التركيبية أن تبحث في الدوافع والملابسات التي تساهم في اشتقاق هذه الرتبة دون غيرها^(١). فمحاولة الفاسي الفهري أن يجد مبررات لهذه الرتبة من خلال حديثه أن اللغة العربية لما تصدر الفعل فإن ذلك يكون للعناية والاهتمام، وهي المقاربة نفسها التي نجدتها في أعمال سيبويه الذي يعتبر رتبة [فا+ف+مف] رتبة شادة في اللغة العربية إن لم نقل لاحنة.

هناك مقاربة لأستاذنا محمد الرّحالي تبني فيها أن الفعل في رتبة [ف+فا+مف] يصعد في البنية التركيبية إلى التطابق فيفحص السمة بدقة، ثم يصعد بعد ذلك إلى الزمن فيفحص السمة، فإذا كان الفعل في بنية تركيبية معينة تصحبه موضوعاته من قبيل [قرأ الولد الرسالة] فإن الفعل (قرأ) يخلق بنية ملحقة ويفحص سماته، وتصعد الرسالة إلى مكان مخصص، ويفحص سمات النصب، بعد ذلك يصعد الفعل ويخلق لنفسه البنية نفسها، والفاعل يصعد إلى مخصص الزمن، وبعد ذلك يصعد الفعل إلى التطابق فنحصل في النهاية على رتبة [ف+فا+مف].

من أهم الخلاصات التي يمكن استنباطها من هذه المقاربات أن سمات المقولات الوظيفية محددة لنوعين من السمات المقولية: [ف+] [+ اسم]، وهي السمات التي تحرك الحوسبة (Computation)، إذ يفترض في البرنامج الأدنى التوليدي (Generative Minimalist Program) أن كلّ المقولات المعجمية تدخل إلى النظام الحاسوبي وهي تامة التصريف، فيضطلع النظام التركيبي بالبحث عما إذا

(١) من الملاحظات المهمة في الصيغة الأولى للمقاربة الأنوية للسمات أنها كانت مقاربة اشتقاقية أكثر منها تمثيلية التي تنظر إلى النحو باعتباره نسق معجمي وحاسوبي يعمل على مسألة التأليف بين الوحدات المعجمية ويصلها بالنسق التصوري، وهي عملية تساعدنا على تحويل مسألة التأليف من النسق الحاسوبي للإنسان إلى النسق المعلوماتي الآلي بصورة أكثر دقة.

وافقت السمات الموجودة في التعداد أم لا؛ أي أن السمات التي يتم فحصها في بنية تركيبية من قبيل [قرأ الولد الرسالة] تنطلق من أن كل مكونات هذه البنية تخرج من المعجم وهي تامة التصريف، أي أنها تدخل إلى التركيب بسماوات صرفية، فنطبق عليها عمليات تركيبية للكشف عن مدى موافقة السمات الوظيفية للسمات المخصصة بها لهذه الكلمات، فالسمات الفعلية يتم فحصها من قبل المركب الفعلي، والسمات الاسمية يفحصها المركب الاسمي في مجال المخصص. فيكون المبرر لوجود المخصص هي السمة الاسمية التي يملكها الرأس (المركب الفعلي)^(١).

عموماً فإن اللغة ينبغي أن تتضمن في تركيبها ما هو ضروري فقط، أي كل ما يحتاجه النظام اللغوي لكي يؤول في الأنساق الخارجية أو الوظيفية، بمعنى أن النظام النحوي ينبغي أن يتضمن فقط ما يؤول في الصوت وما يؤول في المعنى، لكن ما يهمنا هنا هي المسوغات التي تحتاجها اللغة لكي تؤول مفرداتها وراكيبها في المعنى، وهي مركز التأويل الدلالي الذي تمتلكه كلمات اللغة الطبيعية، فإذا كانت النظرية التركيبية في كل صيغها القوية قد حوسبت النظام التركيبي للكلمات وفق السمات التي تتحقق منها في التركيب، فكيف يمكن أن تفسر لنا مسوغات التأويل الدلالي في: «قرأ الولد الرسالة» فهل يجوز أن نقف عند حدود مجال التركيب لكي نفهم سياق الجملة؟ أم أن الدور الذي تلعبه الدلالة هنا يكاد يكون أقوى من الناحية النظرية من مسوغات التركيب، ثم ما هي السمات التي مكّنت الجملة من تحقيق سلامتها التركيبية؟

إذا كان السياق الوارد في «قرأ الولد الرسالة» قد عولج وفق سماته التي دفعت به إلى وجهتي الصوت والمعنى، فإن الدافع الكبير الذي كان وراء ذلك هي الاعتبارات الدلالية التي يحملها الفعل (قرأ) وموضوعاته [الولد + الرسالة] فلو تصورنا هذا

(١) يفترض تشومسكي وجود نوعين من السمات: السمات الملازمة التي تكون معطاة ضمن الوحدات المعجمية، والسمات الاختيارية التي يفرضها سياق الاستعمال لكونها تضاف حين تدخل الوحدات المعجمية إلى التعداد Numeration.

التركيب بصورة مختلفة تماما من قبيل [قرأ الحائط الرسالة] لتغير سمات النظرية المعرفية وتكونت سمات أخرى بقوالب غير مقبولة نسقيا. وبالتالي فإننا نحتاج ضمنا إلى سمات دلالية مركزية تستهدف التراكيب لتؤوله مباشرة إلى صوت، ثم تنتقل إلى مقبولة الاستعمال. وهي نتيجة تعود بالأساس إلى أن التركيب ما هو إلا تأويل وخرج (output) لما هو دلالي في الأصل، وليس العكس كما تدّعي الكثير من النظريات التركيبية المعاصرة. لتأمل التراكيب التالية:

١٠٦ - قرأ زيد الرسالة

١٠٧ - *قرأ الحائط الرسالة

١٠٨ - أكل الولد التفاحة.

١٠٩ - *أكل الحائط التفاحة.

إن المتأمل لهذه التراكيب يدرك نظريا أن الكثير منها شاد نحويا وداليا، ولكي تجد النظرية التركيبية حلا لطبيعة هذه الجمل اقترحت نوعين من الإعراب: إعراب بنيوي وهو في نظرنا إعراب مواقع فقط، قد تحول الجمل في (١٠٦) و(١٠٨) إلى جمل سليمة بحكم أن المواقع التي تشغلها تتوفر فيها سمات الرفع (الفاعل) ونصب (المفعول)، أما الإعراب الثاني هو الإعراب الدلالي وهو الذي يسقط البنى الواردة في (١٠٧) و(١٠٩)، وهذا أكبر دليل على أن الاعتبارات الدلالية التي نحتاجها في تأويل التراكيب الواردة أعلاه مركزية وأساسية، لا غنى عنها لكي تسوغ بنياتها بطريقة سليمة، بل إن السمات الدلالية التي يجب أن تتوافر في الفعل (قرأ) و(أكل) يجب أن تنسجم مع طبيعة الموضوعات المرافقة له (الولد، الحائط)، فإذا لم تنسجم تسقط البنية مباشرة. لتوضيح ذلك أكثر نفترض أن السمات الدلالية الموجودة في الفعل أكل وقرأ يمكن تفسيرها على الشكل التالي:

- أكل: [+ فعل] [+ حدث] [+ زمن]

- قرأ: [+ فعل] [+ حدث] [+ زمن]

في حين أن السمات الدلالية التي تتطابق مع الأفعال تتكرر حول:

- الولد: [+اسم] [-حدث] [+] [- فعل] [+ حي] [+عاقل] [- فهم] [

- الحائط: [+اسم] [+] [- حي] [+ جماد] [-عاقل] [- فهم] [

إن سمة [- عاقل] بمقارنتها مع سمة [+ عاقل] هي المسؤولة دلالياً على إسقاط السياق الوارد في (١٠٧) و (١٠٩)؛ أي أن التقاطع الحاصل بين السمات [+حدث] [-حدث] في المستوى الدلالي للاسم / الفعل هو الذي جعل من عدم تطابقهما أمراً مستبعداً أو شاداً بحكم أن الفعل ينتقي سماته بناءً على طبيعة السمات التي ينبغي - بالضرورة - أن تتطابق معه في التركيب، لذلك لا يمكن - كما لا يعقل - أن تربط بين السمات الدلالية للفعل «قرأ» أو «أكل» وبين سمات الموضوعات التي رافقتها في التركيب (الحائط...)

إن القيود الصارمة التي يفرضها مبدأ إسقاط السمات على الأفعال والموضوعات هي من الأمور المهمة التي حفزت مشروع الدلالة المعرفية على اختزال الكثير من المقاربات من أجل فك شفرة التراكيب اللغوية داخل اللغة العربية، بل إن مشروع مركزية الدلالة في البحث اللساني الحديث قاد بالتأكيد إلى خلق فضاء معرفي جديد تبنى من خلاله منطلقات لسانية أخرى - مركزية التركيب - مركزية الصرف، مركزية المعجم... لكي تحاط النظريات المعرفية كلّها بأهمية العودة إلى الدلالة باعتبارها مركز التأويل الدلالي ومركز خرج السياق في ارتباطه بالمعنى^(١).

(١) يمكن أن نؤكد أن الفعل يرتبط أشد الارتباط بطبيعة الموضوعات التي تساوقه، على اعتبار أن كل موضوع يمثل تصورياً امتداداً للمعنى أو لجزء منه، والجزء هنا يحيل على سمة من السمات التي تبنى أساس المعنى الكلي، إلا أننا نؤكد أن كل المعاني الجزئية هي في نظرنا سمات لمعنى نووي عام يضبط سيرورة تحرك المفردة في اللغة، وخير مثال على ذلك أن تعرف أن العشق والصبابة والولع والغرام.....تحمل كلها سمات لمعنى الحب لكن بدرجات مختلفة.

قد يعدو هذا الكلام قريبا من الوصف منه إلى التحليل، لكن كل الحجج المقدمة في اللغة تثبت فعلا أن نظرية فحص السمات هي نظرية دلالية أكثر منها تركيبية رغم أنها ولدت في أحضان النظرية التركيبية للنحو التوليدي في صيغته المتأخرة، اعتبارا أنها تشتغل في البحث عن التوافق الحاصل بين السمات المقولات المعجمية والعناصر الممثلة لها في المقولات الوظيفية، وبذلك فهناك علاقة وطيدة بين المكون الدلالي والمقولات الوظيفية التي تعتبر مجالا تمثل السمات الصرفية للمقولات، أو لنقل المجال المقولي لتمثيل السمات الصرفية، اعتبارا أن الفحص يكون في المستوى الوظيفي، ومادام أنه يكون في ذلك فإن المتحكم الأساس في ذلك هي الدلالة وليس التركيب، لأن التركيب ما هو إلا واجهة بسيطة للدلالة، أو لنقل إن الأبنية التي تساق على المستوى الدلالي تتم ترجمتها على مستوى التركيب والاستعمال.

٢ - صور انتظام السمات في الذهن

من الحسنات التي يقدمها هذا المشروع أن أساس بنية الذهن مبني ومؤسس على عمليات حاسوبية دقيقة ومعقدة تؤمن أنه كلما كانت العمليات الحاسوبية أكثر دقة تكون المعالجة الدلالية أسرع في إخراج البنى السليمة أو الصحيحة، لذلك قد نتصور الذهن البشري عبارة عن آلة حاسبة تعمل على رصد العمليات الحسابية بصورة دقيقة وسريعة، كما يساعدنا هذا الطرح على إمكانية إخراج معجم معلوماتي مبني على تشخيص دقيق لسمات المدخل المعجمية، هي الصورة التي تعكس بقوة أن ما هو معالج على المستوى الدلالي من انتقاء وفرز، هي في الأصل إلا عمليات حسابية تتسم بقوة الحضور وسلامة التركيب، التركيب بهذا المعنى نتيجة لما هو مؤول ومحوسب داخل مجال الدلالة، ولا يمكن أن نعتبره سببا في كشف ملاسبات البنى الدلالية.

٢- ١ - علاقة اللغة بالذهن

يملك ذهن الإنسان الكثير من الطاقات والقدرات التي تدفع إلى القيام بالعديد من العمليات الحسابية للغة، وبالمعالجة الفورية للمعلومات اللغوية التي يخزنها (المعجم الذهني) أو الوافدة عليه من المحيط اللغوي الذي يعيش فيه (العشيرة اللغوية)، فإن الهندسة العامة للذهن البشري توافق بين دلالة وتركيبها، وهو التوافق الذي نفترض أنه يتجسد من خلال قدرة الذهن البشري على قبول المقولات الأنطولوجية وفق الترابط الذي تسمح به علاقة اللغة بالفكر، وهي العلاقة التي تسمح لنا برصد خلاصات مفادها:

أ- إن للفكر وظيفة ذهنية منفصلة تماما عن اللغة ويمكن لها أن تعمل في غيابها.

ب- إن اللغة بناء يمكن من إيجاد أنواع من التفكير أعقد من التي في تناول الذوات غير اللغوية^(١).

بناء على هذين الاستنتاجين طرح السؤال صحبة أستاذنا محمد غاليم (٢٠٠٧) عن مقدار هذا الجزء من قدراتنا على التفكير الذي يرتبط فقط بأدمغتنا الذكية، وما مقدار الجزء الذي يرتبط بشكل خاص بوجود ملكة لغوية ولماذا. وقدّم أستاذنا مثالا على ذلك، كون أن قالب اللغة (المختص بترميز البنات النحوية بمستوياتها التركيبية والصوتية والدلالية) ليتفاعل مع قالب البنية التصورية (المختص بترميز الأفراد والمقولات والتأليف في ورودات وأنماط وحالات وأحداث في المجالات المحسوسة والمجردة على السواء) والذي يتفاعل بدوره مع قالب المعرفة الفضائية^(٢).

يمكن أن نلخص ما قيل في فكرتين جوهرتين: أولهما أن قالب اللغة مرتبط أشد الارتباط بكمية التصورات التي يشكلها الأفراد داخل مجتمعهم اللغوي، بمعنى

(١) محمد غاليم (٢٠٠٧)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، دار توبقال، ص ٨٢.

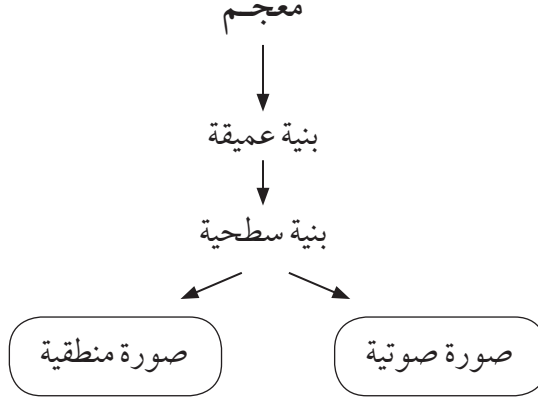
(٢) محمد غاليم (٢٠٠٧) المرجع نفسه، ص ٨٢.

أن العشيرة اللغوية^(١) هي التي تمنح للفرد كمية عن طبيعة تصوراته وحجمها ودالتها، وهو التفسير الذي يمكن أن يساهم بشكل كبير في فك ذلك التحالف الذي ظل صامدا بين التركيب والدلالة، فلو سلّمنا جدلا أن اللغة تشتغل بعيدا عن الفكر، وأن الفكر له ارتباط بالوظيفة الذهنية للدماغ، فإن ما يمكن أن نسميه تفكير لغوي، أو لغة الفكر أو المفكر فيه لغويا ما هي إلا عوالم لها قوائمها الذاتية ومحيطها الذي تشتغل فيه. فالمملكة اللغوية في كلّ جزئياتها تسمح للدلالة أن تشتغل بعيدا عن التركيب وليس العكس، لأن المحيط الذي يفسح المجال للتركيب اللغوي يجب أن يستند في بداية مشواره الداخلي على مسلمات دلالية مركزية وليس العكس، بمعنى لا يمكن أن نستنتج التركيب ثم نبحت عن دلالاته، فلو كان هذا الكلام صحيحا لما أمكن لنا أن نتحدث بالطريقة المعتمدة حاليا، بل إن ما يزكي ذلك هي النظرية التي تقدم بها فكونيني (85) (Gilles Fauconnier) حول الفضاءات الذهنية عند الإنسان ملخصا إياها في كون العمليات الذهنية التي تكون على مستوى الدماغ البشري فيما يتعلق بإنتاج اللغة لا توازيها البساطة في طرح مفرداتها، أي أن الدماغ سيفعل الكثير من المكانزمات الداخلية المعقدة قبل أن يسمح لعبارة ما للخروج على المستوى الصوتي. وهذا دليل آخر ينضاف إلى الأدلة التي تبين مركزية التحليل الدلالي للسمات في إنتاج الخطاب اللغوي وسلطته القوية على تراكيب اللغة العربية^(٢).

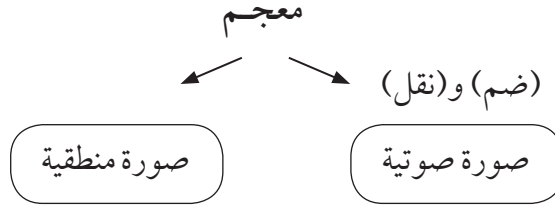
فإذا كانت بنية النحو عند التوليديين في نماذجها المتأخرة (نظرية المبادئ والوسائط (Principles and Parametres)، والبرنامج الأدنوي قد شكلت وفق منظور حسابي يمكن تلخيصه على الشكل التالي:

(١) نقصد بالعشيرة اللغوية المجتمع اللغوي الذي ينمو فيه الإنسان، والذي يساهم بشكل كبير في بناء أنساقه اللغوية والمعرفية والاجتماعية
(٢) أبو بكر العزاوي (٢٠٠٢)، سلسلة محاضرات جامعية برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية - بني ملال - المغرب

أ- نظرية المبادئ والوسائط:



ت- نظرية البرنامج الأدنوي:



إذا ما حاولنا أن نعيد قراءة الطريقة التي انبنى بها النحو في النظرية التوليدية سنقف عند خاصيتين أساسيتين رسمت الخطوط العريضة للنحو بشكل عام، وهي أن الافتراض الذي انطلقت منه نظرية المبادئ والوسائط يميز بين نوعين من النحو: كلي وآخر خاص، وهما نحوان يرتكزان على مرحلتين أساسيتين في اكتساب وتعلم اللغة، من منطلق أن ما يعرف بالنحو الكلي هو عبارة عن مبادئ وقواعد ثابتة ومستقلة عن اللغات، في حين يتم التأليف بين وحدات اللغة هنا بتدخل العديد من الوسائط التي تعمل على تجسيد ما تم تعلمه من قواعد خاصة (النحو الخاص)، إلا أن المهم في هذا هو أن كل وسيط من وسائط اللغة يرتبط بسمات صرفية محددة، تعمل على الربط بين

العلامات التصريفية الموجودة في المقولات المعجمية وبين باقي المقولات الوظيفية (الزمن+الجهة.+ الموجه+التطابق...)، وبالتالي يمكن أن نفهم الطريقة التي تم تصور النحو بها في نظرية المبادئ والوسائط، وهي طريقة تعتمد تحديدا على أن الكلمة عندما تخرج من المعجم لا تخرج وهي تامة التصريف، بل تخضع إلى مراحل دقيقة تتحكم في بنيتين أساسيتين: البنية العميقة والبنية السطحية باعتبارهما مجالين مختلفين من حيث المكونات والبناءات، إذ يتم الانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية عبر عملية النقل (move)، أي ضرورة أن يتم إخراج المفردة أو الكلمة من المعجم ثم بعد ذلك نقلها إلى البنية السطحية باعتبارها المختبر الذي تخضع فيه السمات الصرفية إلى الفحص والانتقاء، لتحط الكلمة رحالها في الصورة الصوتية عبر وسيط التهجية (spell- out) ثم تمنح لها معنى في الصورة المنطقية باعتبارها صورة للتأويل الدلالي (Interprétation Semantic).

أما في البرنامج الأدنوي فتم تقليص هذا الكم الهائل من العمليات عبر تغطية أكبر عدد من الوقائع عبر عدد قليل من الاستنتاجات، وبالتالي تمت إعادة النظر في طرق بناء النظرية النحوية من خلال الافتراض أن كل الكلمات تخرج من المعجم وهي تامة التصريف، بل تكتفي الحوسبة النحوية بفحص السمات الواردة والتأكد منها، فإذا توافقت السمات كانت البنية سليمة، وإذا لم تتوافق السمات سقطت (Crashes) البنية فورا، بمعنى طرح إشكال التوافق بين مكونات المقولات المعجمية وبين السمات التي تحملها، ومشكل المستوى الذي يجب أن يكون فيه الفحص. وعليه فإن بنية النحو العام أصبحت تتحدث عن البساطة (Simplicity) والتقليص (Reduction) في عدد من العمليات التي يستهدفها النحو بشكل عام^(١).

(١) هناك صيغة متأخرة للبرنامج الأدنوي الذي اقترحه تسومسكي بإضافة بعض التعديلات التقنية المرتبطة بالاستغناء عن الفحص وتعويضه بما أسماه ب طابق، وهي عملية تهدف إلى ضرورة الربط بين المجس probe بالهدف goal

من المهم جدا أن نعرف أيضا أن المعجم في هذا التصور أصبح ينبني على ثلاث سمات أساسية ترتبط بمدخله: سمات دلالية، وسمات صرفية، وسمات تركيبية، مع العلم أن مجال تأويل السمات الدلالية هو المجال التصوري - القصدي، ومجال تأويل السمات الصرفية هو المجال النطقي الإدراكي، في حين أن مجال تأويل السمات التركيبية فيجمع بين السمات المقولية (فعل، اسم، حرف)، والسمات الإحالية (الشخص، العدد، الجنس...). وبالتالي فإن هذا الجمع هو الذي يؤثر في وضع الكلمات التركيبية^(١).

إلا أن هذه الخطة التركيبية لا بد لها من تمثيل مشروع (Legitimate objects) ترتبط وجيهاً (Interfaces) بالمكونات النحو التركيبية الداخلية وبين أحد المكونين الإنجازيين الخارجيين (الصورة الصوتية+الصورة المنطقية)، وعليه فإننا نتصور أن سمات الصوت والمعنى هما قوتان إنجازيتان تغذيان النسق التركيبي بتعليمات تأويلية.

٢-٢- فرضية مركزية السمات الدلالية.

إذا كنا نفهم المعجم باعتباره نسقا حاسوبيا، نسلم أن مكوناته تركز على ثلاث سمات أساسية: دلالية، صوتية، تركيبية، فإن الملاحظ أن كل مستوى من هذه المستويات يشتغل على المادة المعجمية نفسها رغم أن لكل واحد آليات انشغاله الخاصة، فإذا افترضنا أن كل مستويات التحليل اللغوي عبارة عن مركزيات خاصة، فإن كل مكون يشمل على سمات يصعب على النظرية النحوية عموما أن تستغني عن أحدهما، ولو سلمنا جدلا أن المركزية الصوتية تهتم بمحيط التهجية والنطق والإدراك، وأن المركزية الدلالية تشتغل على تأويل المعنى + التصور + القصدية + وأن المركزية التركيبية تهتم بالمقولات (الفعل، واسم والحرف والحوسبة والنحو...) فإننا نجد أن التحليل اللساني سيقف عاجزا أمام إسقاط أحد المركزيات عن المعجم تحديدا، إلا أن هذا التصور، على الرغم من قوته الإجرائية، لا يعدو أن يكون إلا من مسلمات الفكر

(١) عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٩٨) المقارنة والتخطيط، دار توبقال، ص: ١٩، ٢٠.

الجهاز، فالنظام العام الذي يتحكم في بناء الأنساق اللغوية يحدد لكل مجال مادته ومنهجيته الخاصة في الاشتغال، فلا يمكن أن نتحدث عن تحالف التركيب والدلالة في ظل مستلزمات كل واحد منهما ومعطياته، كما لا يمكن أن نجمع بين الفعل وأدواره المحورية إلا من خلال ما تستدعيه الضرورة التركيبية، لتأمل المثال التالي:

١١٠ - قذف اللاعب الكرة

ما يجعل البنية لاحنة (Agrammaticale Structure) أنها لا تملك أي تأويل زمني، وبما أنها كذلك فإن السياق التركيبي الذي نؤشر عليه لا يجعلها تدخل ضمن مصاف الجمل، إلا أن أهم تفسير يمكن أن يدفعا إلى القول إن هذه البنية هي بنية لاحنة هو أن الفعل يجب أن يوزع أدوارا محورية على بقية موضوعاته، وهي الأدوار التي تم إسنادها وفق اعتبارات دلالية صرفة، لأنها عبارة عن عناصر محيلة لذلك ينبغي أن يكون لها دور دلالي.

تأكيدا على أن كل العناصر المكونة للتركيب، تحتاج بشكل قوي إلى أن تؤول دلاليا، وبالتالي فإذا كانت النظرية تأخذ بالمفاهيم المنطقية في معالجة مشاكلها التركيبية، فإن النظر إلى اللغة باعتبارها موضوعا طبيعيا يتنافى مع ذلك جملة وتفصيلا، أي أن اللغة بكل مكوناتها لا بد وأن تخضع إلى معالجة دقيقة لسماتها تفصل التركيب عن الدلالة، وفي الآن نفسه تعتبرهما معا أساس بناء النظرية اللسانية بشكل عام. فمركزية سمات التركيب يجب أن تشتغل على المقولات المعجمية، في حين أن مركزية سمات التحليل الدلالي يجب أن تنظر إلى الأدوار المحورية بناء على طبيعة السمات التي تحملها.

إن هذه الخلاصة تجعلنا نؤكد أن طبيعة السمات التي تحملها كلمات اللغة العربية هي التي تدفعا إلى القول بعدم توافق التركيب مع الدلالة في التحليل اللساني الحديث، فالدلالة تشتغل بمكونات وسمات خاصة، في حين أن التركيب يشتغل على مكونات أخرى مختلفة، فرغم أن المدخل المعجمي يمكن أن يكون واحدا إلا أن مستويات

التحليل فيه تختلف من مجال لأخر، فما نُؤشّر عليه في التركيب من طبيعة مقولية اسمية أو فعلية أو حرفية يبقى محصوراً ضمن ما تقدمه المقولات المعجمية من معلومات تخص التركيب فقط، إلا أن الدلالة تتحرك من زاوية البحث عن معلومات أخرى تخص القصدية والسمات الجهة، الوجه، الزمن، المحور، المنفذ... لكي نجعل منها أساس بناء الكلمة وسلامتها. مع العلم أن سلامة التركيب ينطلق في البداية من الإسناد المحوري للمقولات قبل تشخيص ذلك في صورة بنية تركيبية سليمة كما هو مبين في البنية التالية:

١١١ - ضرب الولد الكرة

يمكن أن نفسّر سلامة الجملة تركيبياً بناء على طبيعة الأدوار المحورية التي يوزعها الفعل على موضوعاته، وهي الأدوار التي تنبني تحديداً على طبيعة السمات التي توزع أو تُسقط على موضوعات الفعل الأساسية، فإذا كان الفعل (ضرب) عبارة عن مقولة معجمية تتضمن العديد من السمات المكبوسة داخله من قبيل:

ضرب: [+ف][+حدث][+زمن][+محور][+زمن]

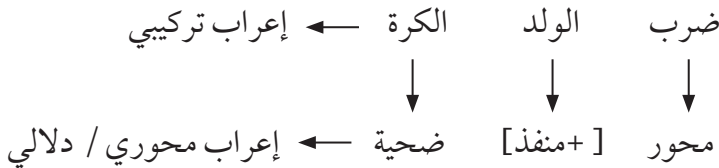
فإن الموضوعات التي ترافقه يجب أن تشخص هذه السمات وتتعرف عليها ثم تنسجم معها في التركيب من قبيل:

الولد: [+فا][+منفذ][+حي][+عاقل][جماد]

الكرة: [+مف][+ضحية][+فضلة][+جامد][حي]

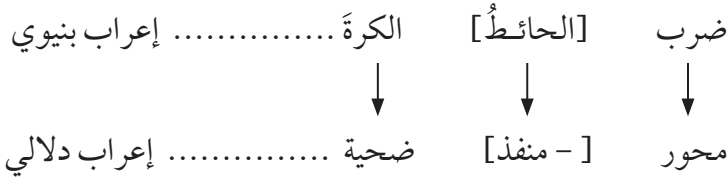
بمعنى آخر فإن التفسير العام الذي يمكن أن يُمَقول التركيب السابق يمكن أن

يبسط على الشكل التالي:

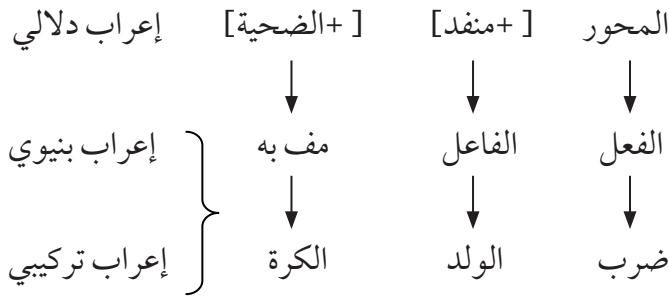


فمن غير المعقول أبداً أن نطلق من الإعراب التركيبي (البنوي) كي نصل إلى سلامة التركيب، وإلا فكيف يمكن أن نفسّر لحن جملة من قبيل:

١١٢ - ضرب الحائطُ الكرةَ.



إن لحن الجملة مرتبط بدواع انتقائية خاصة، فلو أمكننا أن نغيّر من المركب المعجمي (الحائط) لكي يتلاءم مع السمة الدلالية (+منفذ) لتغيرت وجهة الجملة إلى تركيب سليم، لذلك فإن الانطلاق من وضع السمات الدلالية يحفّز على إيجاد الملازمات التركيبية المناسبة لكي يتم إخراج الجملة في سياق مقبول. وبالتالي نعيد قراءة النحو بناء على مركزية السمات في التحليل الدلالي وفق النموذج المقترح التالي:



يصعب أن نفسّر كل هذا الكم الهائل من السمات بناء على توافق التركيب والدلالة، فمجال الاشتغال داخل اللغة يجب أن يحترم خصوصيات التحليل اللغوي لكلّ مكون على حدة، أو لنقل يجب أن تبحث في الدلالة عن الخطوط العريضة التي يمكن بها أن نفيد البحث اللساني ونطوره، ومشروع مركزية السمات الدلالية هو مشروع طموح يحاول أن يزج النظرية اللسانية بالعديد من الأسئلة المحرّجة والمقلقة أحياناً، على اعتبار أن السعي وراء هذا المشروع سيزيد من أفق البحث العلمي من جهة، ومن

جهة سيصحح المسار العام الذي ظلت اللسانيات العربية تشتغل عليه. لذلك فإن البحث في السمات هو بحث في أنواع العلاقات الدلالية الخفي التي تبرمج بطريقة محوسبة، وبكيفية سريعة ومذهلة من أجل فرز آليات تحفظ للبناء اللغوي سلامته المطلوبة في التركيب، فكان لزاما كذلك على النظرية الدلالية العامة أن تجدد من طرق بحثها، وأن لا تظل حبيسة نظريات تأكلت وأصبحت من أدبيات البحث العلمي واللغوي.

لقد تحدث محمد غاليم^(١) عن بعض الثغرات التي توجد في اللغة ملخصا إياها في أن أصغر وحدة للفكر يمكن التعبير عنها باعتبارها مدركا مستقلا هي الكلمة، ولأن الكلمة مدرك ثابت في تجربتنا، فإننا نعامل الفكرة التي تعبر عنها باعتبارها فكرة ثابتة، قبل أن يحدد موقفه من ذلك بكون النظر في استعمالات الكلمة الواحدة يثير الإشكال المتعلق بها إذا كانت تعبر عن تصور واحد مرن أو عن أسرة من التصورات المتحجرة المتعاقبة، ولكي يثبت ذلك، فإن أستاذنا قدم مثالين نعتبرها محور الإشكال المطروح «الشاي في الكأس» و«الشق في الكأس»، لكي يبين أن الحرف «في» في المثالين يحمل دلالات مختلفة، ويبين فعلا أن الأفكار ليست ككلمات.

فإذا كان أستاذنا هنا يوضح ويبين أن ما نعتبره فكرة لا يمكن أن نترجمها في كل مرة باللغة نفسها، فإن الإسقاط العام الذي يستوقفنا هنا يمكن أن يفسر لنا إجمالا أن اللغة شيء والفكرة شيء آخر، كما يمكن أن يقودنا هذا الاعتقاد إلى صياغة خلاصة مفادها أن محمولات اللغة غالبا ما تقول أشياء غير الموضوعات التي تأتي مرافقة لها، بمعنى أدق إن تركيب اللغة يحمل وهم التوافق بينها وبين سمات الدلالة العامة، فالسمات هنا يمكن أن تقاس على الأفكار التي يصعب أن تتطابق مع الكلمات تصوريا، وبالتالي فالحكم المطلق في توافق سمات التركيب مع سمات الدلالة يدخل ضمن الغريزة اللغوية التي تحتاج إلى الكثير من القلق المعرفي والتحليلي.

(١) محمد غاليم (٢٠٠٧) النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، ص: ٩٠.

٣- إشكال الفصل بين اللفظ والمعنى

نستثمر في هذه المقاربة ما طرح في نظرية الصّرف الموزع^(١) التي قدمت العديد من القضايا المهمة المرتبطة بعلاقة اللفظ بالمعنى، ونحن نعلم أن هذه النظرية طرحت في البداية في إطار إشكال بناء الكلمة في جانبها الصرف تركيبي (Morphosyntax) في علاقة ذلك بالمعجمة، وهي الفكرة المحورية التي طرحت في كثير من الأعمال «هالي» و«مارتز» التي شخّصت العلاقة بين اللفظ والمعنى، بمعنى كيف يمكن تدبير العلاقة بينهما داخل إطار الهندسة العامة للنحو.

٣- ١ بناء الكلمة في الأدبيات اللسانية

إن دراسة السمات وفق آليات حسابية يستدعي منا استحضار أهم المقاربات التي حاولت أن تناقش مسألة بناء الكلمة، وهي مواقف معروفة لخصها عبد القادر الفاسي الفهري في:

الموقف المعجمي: وهو الموقف الذي ظل ينادي بفرضية أن الكلمة هي أساس متوالية بين بياضين بناء على الحدود النبرية التي تفصل بين الكلمات صوتياً، أما عندما نتحقق على مستوى الكتابة فإنها تأتي ملازمة للكثير من اللواصق أو اللواحق التي تدخل ضمناً على الجذر، وهي اللواصق التي تتعدد بين ما هو اشتقاقي وبين ما هو صرفي، على الرغم من أن اللواصق لا يمكن أن نعتبرها هنا ذات وظيفة اشتقاقية، بل ذات وظيفة صرفية، بمعنى أدق أنها لا تغيير من الطبيعة المقولية للكلمة بخلاف اللواصق الاشتقاقية، وهي الأمور التي يمكن أن نتأملها من خلال البنية التالية:

(١) أخذت هذه المعطيات من محاضرة للأستاذ عبد القادر الفاسي الفهري بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب سنة ٢٠٠٤، وهي محاولة لتقريب وجهة نظر الأستاذ حول مسألة الصرف الموزع ودورها في بناء الهندسة العامة للنحو، وللمزيد من المعطيات حول هذه النظرية يرجى العودة إلى كتاب: المقارنة والتخطيط، لعبد القادر الفاسي الفهري، الصادر عن دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

من المؤكد جدا أن الملفوظ يحمل كلمة واحدة، وهي في الأصل جملة تامة في اللغة العربية، لكن إذا ما حاولنا أن نجد لها مقابلا في الفرنسية مثلا، فسندادف مجموعة من الكلمات: (Tu Le Frappe)، وهذا أمر يعود بالأساس إلى طبيعة اللغتين، فاللغة الفرنسية لغة تركيبية بالأساس، في حين أن اللغة العربية لغة اشتقاقية تمنح إمكانات هائلة لمستعملها، فالسين يمكن فصلها لأنها تحيل على الوجه أو المستقبل، و الهاء التي يمكن فصلها هي الأخرى باعتبارها تحيل على الفضة، وهناك أيضا الفاعل المعبر عنه بالحركة، كما يمكن فصل التاء عند الجدر، وهي لاصقة تحيل على الشخص.

قد نصادف في المعجم كلمات من قبيل: تقتل وهي في الأصل من جدع قتل الذي يختلف عن جدع آخر مثل: قُتِلَ؛ قَتَلَ، ونحن نعرف أن الجدع في الأصل يتضمن في طبيعته البناء والجهة، إذ يمكن فصل الحركات لنحصل على الجدر، لكن يكاد يكون الأمر مختلفا عندما نقارن هذا الكم الهائل من المداخل مع الفرنسية مثلا، التي نصادف فيها الفعل tue والذي هو في الأصل tu بحركة معجمية محددة، إلا أن هذه اللغات تجعل من الجدع هو الجدر، والجدع مكون من الصوامت والصوائت/ الحركات، كما نجد في الفرنسية أن tue لا تمايز في زمنها بين الماضي أو الحاضر أو المستقبل أو حتى عندما تكون في بناء آخر كالبناء للمجهول مثلا. بينما في اللغة العربية فالأكيد أنك عندما تنتقل من قَتَلَ إلى قُتِلَ إلى قَتَلَ، فإنك أمام معان مختلفة ومتباينة تماما، إذن هناك تقلبات في الجدع بحسب الاستعمال في البناء، وبحسب الجهة وبحسب المقولة (Catégorisation)، وعليه قد نصل أن اللغة العربية هي لغة اشتقاقية في حين أن الفرنسية هي لغة سلسلية تركيبية بطبيعتها.

يدفعنا هذا الافتراض إلى التسليم بأن الكلمات توجد كما هي في المعجم، مما يطرح لنا إشكالات أخرى بصدد عملية تنظيم المعجم الذي من المفروض أن يضم

عمليات ترتبط بالصرف والتصريف والاشتقاق، وبالتالي فإنه افتراض سيوازي بين المدخل المعجمي والكلمة كيفما كان بناؤها، لتدخل المعجم بناء على افتراضين:

الافتراض الصرفي: وهو افتراض بني على أن المكون الصرفي ليس مركزا في مكان واحد من النحو، بل إنه موزع على مكونات كثيرة داخله (النحو)، ومن ثمة فإن الصياغة الصرفية للكلمة لا يمكن أن تبقى ثابتة، بل تتغير كلما تغيرت الكلمة بالمكونات النحوية الأخرى [النقل؛ الإلحاق؛ الضم..^(١)]، بمعنى أدق قد نقول إن هذا الافتراض يجعل من أجزاء الكلمة صرفيات تدخل في معجمة الكلمة ليتم إدخالها إلى المعجم بكل لواصقها.

الافتراض الاشتقاقي: هو افتراض يبني على الجذوع؛ أي أن المعجم الذي سيتولد عنه سيكون أقل حجما من الافتراض الأول، لأنه سيعطي إمكانات محدودة في القوالب التي يتيحها نسق اللغة العربية في تحديد المداخل المعجمية المناسبة بطريقة تحترم مراحل الاشتقاق وخصوصياته.

الموقف المبني على الجذر: لعل هذا الموقف هو الذي يهمننا بشكل كبير في مسار البحث عن مركزية واستقلالية اللفظ عن الدلالة، بمعنى هناك جذور هي الأصل في المعجم والأصل في اشتقاق الكلمة، وهو افتراض يطرح أن المداخل المعجمية يتم تقليصها، لكن في مقابل ذلك يطرح الأمر العديد من المشاكل على مستوى الفصل بين بنية الجذر وبنية الكلمة، ومن ثمة ماذا يجب علينا أن نضع في النظام الحاسوبي / المعجمي / القاعدي.

نحن نعلم أن القدماء عندما تناولوا مسألة الجذور فإنهم صنفوا ذلك إلى جذور مجردة وجذور مزيدة، والمزيد عندهم يطرح مشاكل عدة مثلا إذا قلنا خروج واستخراج، فكيف يمكن أن نحسم في طبيعة الجذر، فهل يمكن أن تمثل خروج

(١) الصوتاة والصرف (٢٠١٤): ترجمة محمد بلبول وعبد الرزاق التورابين توبقال، ص ٣٧.

واستخراج جذورا مستقلة، هذا الجدل أفرز لنا نقاشا كبيرا مفاده هل ندخل في المعجم الجذور البسيطة أم الجذور المركبة التي دخلت عليها الزيادة.

في ظل هذا النقاش برز لنا إشكال آخر في الدرس اللسان يرتبط بإشكالية قرن اللفظ بالمعنى على اعتبار أن المدخل المعجمي يزاوج بين صورة شكلية خطية أو صوتية وصورة دلالية، نفترض تبعا للفاسي الفهري (٢٠٠٣) أن هناك صورة صوتية وصورة دلالية، فكيف يمكن الجمع بينهما؟

طرح «دو سوسير» اقتراحا حول مسألة الربط بين الصورتين من خلال القرن بين اللفظ والدلالة، إذ اعتبر أن العلاقة بينهما هي علاقة ازدواجية أو كما سماها بالقرن الاعتباري، لذلك اختلفت اللغات في الدلالة على المعنى نفسه بألفاظ أو أصوات أو عبارات مختلفة (كلب؛ dog؛ chien)، فمن حيث المبدأ يمكن أن نفصل الصوت أو الصورة الصوتية عن الصورة الدلالية، فحينما نقول مثلا dog في منطقة ما فإننا نحيل على الشيء نفسه كلب في منطقة لغوية أخرى، وبالتالي فإن هذه المنطلقات قد تساهم في بلورة انطلاقة مثالية للبحث في استقلالية الدلالة عن باقي المكونات اللسانية الأخرى، ونحن إذ نقول ذلك نقصد أن المكون الدلالي يمكن أن يشكل مركزية مهمة في التحليل اللسانيات الحديث، فعملية الفصل بين اللفظ والدلالة نعتبرها عملية معقدة جدا لأنها تدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: ما هي الإمكانيات المتاحة أمام النظام الحاسوبي لإدراج مدخل معجمي ما ضمن لائحته؟ هل ندخله من منطلق القرن بين اللفظ والدلالة، أم يمكن أن نتصور أننا ندخل السمات الدلالية - التركيبية في مرحلة أولى، ثم بعد ذلك نلحق بها السمات الصوتية كوحدات معبرة لها استقلالها الذاتي، أو بعبارة أخرى يمكن أن نطرح السؤال أكثر عمقا: متى يتم الملء المعجمي؟ وهل يتم بالسمات أم يتم عبر قرن اللفظ بالدلالة؟

هناك العديد من المقاربات التي حاولت أن تجيب عن السؤال، كما أن هناك العديد من المقاربات التي قربت لنا صورة الملء المعجمي بصورة فهمنا للتداعيات

التي يقوم عليها الملاء، ففي نموذج تشومسكي (٥٧) الذي تخلى عنه فيما بعد، حاول أن يفسر الملاء بناء على الرموز المتولدة في التشجير الحاسوبي للكلمة، وهو الملاء الذي يراعي الطبيعة المقولية للكلمة بين الفعل أو الاسم، على اعتبار وجود فرق بين البنية العميقة والبنى الأخرى المتولدة عنها في البنية السطحية التي تحول إلى لفظ، إذن نحن نتكلم عن مستويات للمعالجة تربط بين الدلالة والصوت، فإذا كانت الكلمة صوتية فإنها تحتاج إلى تحويل، وهي العملية التي أطلق عليها بالتأسييمات (Nominalisation)، أي تحويل الفعل إلى اسم، وهو تحويل مقولي.

وهناك افتراض يقول إن الملاء المعجمي لا يتم في مستوى البنية العميقة، وإنما يتم حينما تتم كل العمليات التركيبية، وبالتالي ما يدخل هنا ليس الكلمة كما هي موجودة، بل الذي يدخل هي سمات دلالية وتركيبية، وبعد ذلك يتم إلحاق السمات الصوتية الأخرى في نهاية المطاف.

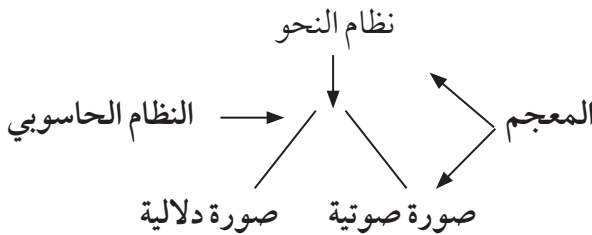
في مقابل ذلك، نجد أن اللغة الفرنسية تعرف العديد من المشاكل في عملية الإدخال المرتبطة بالوحدات المعجمية، وهي إشكالات أساسية فرضتها طبيعة اللغة من جهة، ومن جهة أخرى طبيعة الضوابط المفروضة على قواعد الملاء المعجمي، إذ نجد مثلا (tu le Vera) المشتقة من الفعل (voire)، فما هي المادة التي ينبغي أن ندخلها المعجم (vere) أم (voire)، وإذا اعتمدنا على فرضية الملاء المعجمي المبكر قد نجد (mer) والصفة هي (marin)، فماذا ندخل المعجم الأولى ام الثانية، أما إذا اعتمدنا على فرضية الملاء المعجمي المتأخر، فإننا لا نحتاج إلى تحويلات لأن الصرف لا يكون منظورا في المستوى الدلالي، بل ما يكون هو المستوى صرف - صوتي فقط، كما هو الحال بالنسبة ل (sal) و (salin).

من المفيد جدا أن ننظر في هذين الافتراضين: الملاء المعجمي المبكر والملاء المعجمي المتأخر، ففي المبكر نفترض، تبعا للفاسي الفهري، أنه تتم المزوجة بين

السّمات الدلالية والتركيبية وبين السّمات الصوتية، بالنظر إلى أن ما طرحه نظرية الصرف الموزع كما تصورها هالي ومارتز يتمظهر في كون الملاء المعجمي فيه ضرب من المجزئية، على اعتبار التراتبية في ذلك، فالبدائية تكون مع التركيب ثم الدلالة فيما بعد، أما ما يرتبط بالصوت والصرافة فإنهما يدخلان في وقت لاحق، وبعد ذلك، وفي الطريق إلى الصورة الصوتية تدخل العناصر الصوتية.

يجب أن نمايز في هذا الباب بين المدخل المعجمي والمفردة، فالمفردة هي مجموعة من سمات النطق، أما الدخلة المعجمية هي عبارة عن مصفوفة من السمات الواردة داخل النظام الحاسوبي، إلا أن هذا الافتراض قد أزعج بافتراض آخر يقول بوجود أن ندخل المصفوفة الدلالية والصرافة في الوقت نفسه.

ففي نظرية الصرف الموزع نجد أن الجوانب الصوتية هي الكلمة والجوانب الصرفية تعالج في إطار بناء المفردة، وبالتالي يمكن أن نجد في هذا التصور تشابها أو تقاربا في القوانين داخل المستوى الحاسوبي، إذن فمبدأ المجزئية يتم اتخاذه أساسا جوهريا لمعالجة النظام التركيبي الذي يعمل على تأويل البنية التركيبية إلى أجزاء دلالية ثم صوتية أو خطية، وبالتالي يتم الفصل بين الصوت والدلالة، وهو الفصل الذي يتيح لنا الحديث عن إمكانية البحث في المؤشرات التي قد تجعل من المكون الدلالي مكونا مستقلا ومركزيا في التحليل اللساني، إلا أن أي نظام مركزي يجب أن يشتغل وفق ما تنتجه أنساقه من وحدات قابلة للمعالجة والتحليل، بل إن فصل الصوت عن الدلالة في النظام الحاسوبي يعطينا صورة جديدة للنحو يمكن أن تتخذ الخطاطة التالية:



نفترض أننا نحتاج في النظام الحاسوبي إلى كل مكونات الصورة الصوتية والصورة الدلالية، ثم يقع الافتراق فيما بعد. فإذا نظرنا إلى بعض الأسماء من قبيل sal وsalin نجد بعض السمات الصوتية التي لا نحتاج إليها في الصورة الدلالية والتي تذهب مباشرة إلى التأويل الدلالي، والتأويل الدلالي هنا يفسر وفق ما تحيله الصورة المنطقية في النحو.

إذن هناك نظام حاسوبي يضم جميع المكونات الصرفية والدلالية والتركيبية. وهناك المعجم الذي يضم المداخل المعجمية بكل تفاصيلها الصرفية والصوتية والدلالية، إلا أن نظام النحو العام يحاول أن يفحص كل المداخل وفق طبيعة السمات العامة المتوافقة مع سلامة التأويل الدلالي من جهة، ومن جهة أخرى متوافقة مع طبيعة البناء التركيبي المحتمل، لذلك فإن فرز الصورة الصوتية عن الصورة الدلالية يتم في المفترق نحو خرج الكلمة (Output Of Word) التي تتكون أساساً من مجموعة من المتواليات النهائية، أي جذوع الكلمة التي تهجى بقواعد بناء الكلمة.

فعملية التقاط هذه الإشارات تبرهن أن مجموعة من اللسانيين قد عمدوا إلى فصل الدلالة عن التركيب والصرف والصوت واللفظ... وهي الإشارات التي تفيدنا في التأكيد أن الدرس اللساني هو درس يراعي جوانب متعددة في التحليل اللغوي، فإذا كان الفصل بين الدلالة والمكونات الأخرى فصل إجرائي، فإن هذا يزكي، في نظرنا، مشروعاً مستقبلياً يهدف في البحث عن مركزية الدلالة في البحث اللساني الحديث، بخلاف ما كان يروج له سابقاً في كون المكون الدلالي هو مكون ثانوي لا نحتاج إليه إلا في مستوى الصورة المنطقية أو في محطة التأويل الدلالي.

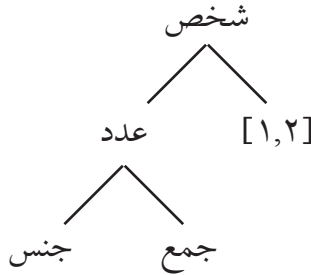
٣-٢ هندسة بناء السمات في الذهن

عندما نتأمل المواقف الكثيرة التي تولدت من منطلق البحث المتواصل داخل اللسانيات، فإننا ندرك أننا العديد من النظريات والمقاربات التي تستهدف بالدرجة

الأولى الطريقة التي تولد بها الكلمة، وعندما نتحدث عن مسألة التوليد فإننا نروم من وراء ذلك طرح نقاش موسع حول دور السمات في ذلك عبر رصد مراحل تكوينها والطرق التي تبنى بها داخل نسقنا اللغوي من جهة ومن جهة أخرى داخل نظامنا الذهني. لا بد أن نوضح في البداية أن توزيع السمات في اللغة العربية يخضع في نهاية المطاف إلى هندسة رياضية تحترم طبيعة المقولة، كما تحترم الخصوصية المعجمية للكلمة، بمعنى أن توزيع السمات له سلمية وتراتبية محوسبة وغير اعتباطية، هو الأمر الذي أوضحه الفاسي الفهري (١٩٩٨) الذي صاغ قاعدة عامة للسمات وفق الترتيب التالي:

- سمات الشخص < سمات العدد < سمات الجنس.

لوضع صورة لهندسة السمات اقترح الفاسي الفهري (١٩٩٨) شجرة للسمات تتوزع على الشكل التالي^(١):



يجب أن نوضح أن سمة الشخص باعتبارها تقف على رأس هرم الشجرة، فإننا نفترض أنها سمة عليا تبنى وفقها كل السمات الأخرى التي تتموقع في الأسفل، وبما أن هذه السلمية يمكن أن تطبق على الضمائر المتصلة، فإنه بإمكاننا نفترض تبعا للفاسي الفهري أن الضمائر باعتبارها علامات تطابق هي أساسا ضمائر مدمجة^(٢).

(١) عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٩٨)، المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، ص ٤٨.

(٢) عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٩٨)، المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، ص ٤٨.

إذا ما تمت برمجة السمات باعتبارها وحدات محوسبة، فإنه من الواجب أن نحدد طبيعة الوجود التي تسمح بتوليد الكلمة، هي الوجود التي تفصل بين ما هو معجمي وبين ما هو دلالي ونحوي، بمعنى أن الدلالة المعرفية تقدم منحى جديدا في بناء المعنى الذي يتأسس على ذاتية المعنى، أي أن دلالة عبارة عن مضمون ذهني تصوري، فهي تشمل كل المعلومات والمعارف التي يستدعيها المضمون، هنا نستحضر بكل قوة دور الإنسان الجوهرية في بناء المعنى، لأنه يملك كل القدرات التي تدفعه إلى صياغة المعنى الذي يريده، هنا تبرز أهمية السمات باعتبارها وحدات مدمجة يتم استحضارها وتنشيطها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فنحن لا نستحضر كل السمات في وقت واحد، إنما يرتبط حضور ذلك بتنظيم محوسب ودقيق يفرضه النظام الحاسوبي للذهن باعتباره آلة انتقائية خارقة، ونحن إذ نفترض ذلك، فإننا ندافع في الوقت نفسه أن السمات موضوعة بشكل جزئي داخل القواعد الدلالية وليس ضمن خصائص البنية الداخلية، لذلك قد تشترك مجموعة من الكلمات في القاعدة الدلالية نفسها، هنا نستحضر الوجود المعجمية باعتبارها عينات أولية مكونة من منطلق الدمج المقولي للمداخل المعجمية، لتأمل التراكيب التالية:

١١٤ - تتكون السيارة من مجموعة مكونات: محرك وعجلات وأبواب ومكابح.

إذا ما تأملنا المكونات العامة التي تتكون منها السيارة، فإننا ندرك أن المحرك جزء من السيارة، والعجلات جزء من السيارة، والمكابح جزء من السيارة، بمعنى أن المحرك والعجلات والمكابح تعود بأصلها إلى قاعدة دلالية واحدة هي السيارة، إلا أن كل واحد من تلك المكونات يتفرد بوجه متميز ومختلف عن الوجه المشترك. ما يفيدنا في هذا الأمر أن بناء تلك العناصر أو المكونات يعود إلى وجود خصائص أساسية التي من المفترض أن تكون بينها علاقة مفاهيمية مع التجربة الإدراكية؛ لأن كل خاصية هي في الأصل القدرة على تعايش التجربة مع مجموع القواعد الدلالية المشتركة. قد يتسم

الطابع التشاركي بالعديد من الخصائص المعقدة، ومع ذلك فهي تستمر بكل تفاصيلها في الحفاظ على المكون القاعدي الأساس باعتباره المشترك الذي يحمي القاعدة الدلالية.

من المهم أيضا أن نؤكد أن البناء الدلالي من الناحية أخرى يتصف بالدقة على المستوى تحديد المعنى وبنائه، فهو الأساس الذي نرومه لتحليل العلاقة اللغوية لكل تركيب أو جملة، وهي العلاقة التي ترسم معالمها الكبرى في الدور الذي يضطلع به في التمييز بين كتب وكتاب وكاتب ومكتوب، فهي تحمل المضمون الدلالي نفسه، إلا أن التمييز بينها يرتبط بالطريقة التي ينتظم من خلالها المعنى، وهي طريقة أخرى من الطرق التي تشتغل بها القاعدة الدلالية، وهي طريقة تحمل وجائه دلالية متعددة ومختلفة إلا أنها تعود في نهاية المطاف إلى المشترك القاعدي الذي تضمنه الدلالة.

إن الحديث عن القاعدة الدلالية باعتبارها المشترك الذي تعود إليه كل المعاني الموظفة، يدفعنا للحديث بشكل منطقي عن الوجائه النحوية التي تعتبر الخرج التركيبي الذي يحمل المعنى، ونحن إذ نشير أن المهم بالنسبة لنا ليس البحث في المكون الأكثر بروزا في العلاقة التركيبية، فإن الأهم هو الإشارة أن أي خرج تركيبى هو واجه لمعنى أو دلالة معينة، على اعتبار أن مركزية التحليل تدفع نحو اعتبار المكون الدلالي أسبق من حيث التكوين على التراكم اللغوية، ولعل في نظريات الاكتساب والتعلم ما يفيدنا في الأمر، فنحن نتصور العالم قبل أن نبدأ في التعبير عنه باللغة، التصورات سابقة عن اللغة، وهي معطيات نستثمر فيها بشكل جيد لنقول إن على النظرية الدلالية أن تعيد ترتيب منطقاتها وفق ما تم التوصل إليه من نتائج في نظريات الاكتساب والتعلم.

عندما نحدد مع اللسانيات المعرفية أن اللغة هي عبارة عن مجموعة من الوحدات الرمزية، فإن النحو في مقابل ذلك يقف عند حدود اعتباره قائمة منظمة من الوحدات اللغوية التي وقع التواضع عليها، بمعنى أنه المعرفة الحاصلة لدى متكلم

ما عن اصطلاح لغوي متفق عليه، فيكون التركيب النحوي بهذا المعنى نسقا لأنظمة رمزية^(١)، إن هذا التمايز بين اللغة والنحو يدفعنا منطقيا إلى موضعة الدلالة ضمن البناء اللغوي بشكل عام، عندما يكون تعريفنا للغة والنحو مبني على الرمزية، فإن دور الدلالة هنا هو بناء نسق تصوري عما تم التواضع عليه، وإذا ما نحن حاولنا أن نقارب الدلالة من هذا المنظور، فإننا سندفع بها نحو اعتبارها نسقا تصوريا عن العالم الخارجي الذي يجمع بين إدراك الشيء والقدرة على التعبير عنه في قالب لغوي، بهذا المعنى نؤكد أننا نحاط علما بالتصورات قبل أن ندرك اللغة، فيكون النسق الدلالي سابقا عن النحو.

إذن ما نملكه في الذهن هي مجموعة من التصورات التي نشكلها من منطلق تجربتنا مع العالم الخارجي، وكل إسقاط أو ربط لتلك التصورات باللغة يدخل بناء على وسم كل مكون لغوي بمجموعة من السمات الدلالية قبل السمات النحوية، فنحن نبرمج ما هو تصوري قبل برمجة ما هو لغوي، بهذا المعنى نقول إن الإنسان يملك قدرة كبيرة على وسم عالمه الخارجي بصورتين متوازيتين هما الوسم التصوري للأشياء والوسم النحوي للتركييب. فالصفات الأولى التي نتزود بها غالبا ما تكون معقدة جدا؛ لأننا لا نملك حولها إلا تأويلات فقط، ولم نتمكن من رصد الماهية الكبرى التي تتحكم في بنائها، لكن ما يقدمه لنا المحيط هي سمات وصفات تمكنا في كل الأحوال من بناء تنبؤات وفرضيات قد تكون صائبة وقد لا تكون كذلك، لكن ما يهم هو أن نكشف أن قوة كل نظرية هي قوتها على صياغة تنبؤات عن العالم والأشياء. وليس تأويلات مزاجية لا تقدم شيئا لمسار العلم بقدر ما تعطله بالخرافة والإدعاءات الباطلة التي تتحجر كمقدسات لا يجوز الاقتراب من إزعاجها أو مناقشتها.

إذن الفكر الإنساني في نهاية المطاف يتعامل أساسا مع السمات بتوظيف المقولات والمركبات، فأغلب تصوراتنا الذهنية تستعمل المقولات وليس الموجودات، على اعتبار

(١) عبد الجبار بن غريبة (٢٠١٠)، مدخل إلى النحو العرفاني، ص ٤٤.

أن الأمر طرح العدد من الإشكالات في الفكر اللساني، وخصوصاً في اللسانيات المعرفية التي ميزت بين تيارين أساسيين:

التيار الموضوعي: تتأسس منطلقات هذا التيار على مسلمات معرفية تقر أن تصنيف المقولات يقوم وفق نسق من السمات المشتركة، بمعنى أن المكونات التي تدخل في تأسيس المقولة يجب أن تكون لها السمات نفسها، فإذا بدا لك أن في الهدهد ما يحيل على مقولة الطيور، فإن لهذا الموجود سمات التي تحدده باعتباره طائراً لا شيئاً آخر، فالإنسان يُمَقُول العالم ويصنّفه بحسب مجموع الخصائص المشتركة المتوافرة في ذهنه عن العالم.

التيار التجريبي: يعتمد هذا التيار على نظرية النمط النموذجي (Prototype Theory)، وهي نظرية تعتمد في تصنيف المقولات على منطلقات لا تجعل من السمات المشتركة أساساً للتصنيف، في مقابل ذلك نجدهم يميلون إلى مقولة العالم وفق اعتبار النظام المتحكم في بناء التصنيف يتأسس على ما تم نعتة بالمقولات الطبيعية بالوقوف على وظائف البتين الداخلية والخارجية^(١).

لم يتفق الجميع على وضع تصنيف واحد متفق عليه، ولم نصل بعد إلى مرحلة امتلاك الوسائط الكافية لتفسير العالم ومقولته، لكن في مقابل ذلك نملك وسائل تساعدنا في بناء نظريات حول التصنيف بقدرة هائلة على التنبؤ، وكل ذلك يدفع نحو اعتبار أن ما ندركه عن العالم هو في نهاية المطاف سمات وخصائص ساعدتنا اللغة في بلورتها والتعامل معها وفق مقتضيات التواصل، فإذا كانت اللغة واجهة عن عالم عشنا تجاربه تمثلاً وإدراكاً، فإن بناء نسقها لا يمكن أن يستقيم دلالياً ولا تركيبياً إلا من خلال امتلاك مشروع هندسي للسمات يدفع نحو تصنيف المقولات وفق خصائصها المقولية العامة، وعليه لا يمكن أن نصفق للتيار الأول ولا الثاني، بل ما يمكن أن نسايره هو

(١) عبد الجبار بن غريبة (٢٠١٠)، مدخل إلى النحو العرفاني، ص ٦٤

أن الإنسان يملك بنكا للسّمات داخل ذهنه، وهو بنك يمثل خزاناً مقولياً يساعد على التفكير السليم.

الاستنتاج الواضح هنا أننا لا نملك في أذهاننا الموضوعات المادية أو المقولات الأنطولوجية، بل ما نملكه هي بيانات حسية تتحول إلى قائمة من المعارف الموضوعية «هناك»، فهي تمثيلات للموضوعات كما ندركها في العالم، وهي التمثيلات التي أطلق عليها جون سيرل (John Searle) اسم «النظرية التمثيلية للإدراك» أو ما أطلق عليه فيما بعد بـ «الواقعية التمثيلية»^(١) فالأشياء الموجودة في أذهاننا هي العقل والأفكار والتصورات^(٢).

٣- السّمات بين التصورات وبناء التصورات

إذا كان افتراض أن السّمات هي جزء من بيئة الذهن المعرفية، فإن النظر إلى المسألة بعمق كبير يقتضي في البداية الحسم في أمر مهم جداً هو أن دمج اللسانيات في إطار اللسانيات المعرفية لا يمكن أن يتم إلا بإعادة ترتيب المعطيات وفق ما تمليه النظريات الحديثة، خصوصاً ما تعلق بدراسة الملكة اللغوية، فإذا لم يتم اعتبارها كباقي الملكات المعرفية الأخرى، فإننا لن نتمكن من رسم حدود واضحة للنظرية الدلالية، ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك إلا من خلال بلورة نظرية صورية للمعرفة تتناغم فيها الهندسة النحوية مع السّمات الهندسية الملاحظة في باقي الأنساق غير اللغوية داخل بنية الذهن المعرفية العامة، وهي معادلة لا يمكن أن تتأسس إلا من خلال التخلي عن بعض الافتراضات التي بني عليها التيار الرئيس في النحو التوليدي، خصوصاً

(١) جون سيرل (٢٠١٨)، رؤية الأشياء كما هي: نظرية للإدراك، ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي، عالم المعرفة، ص ٣٠.

(٢) وهي الفكرة نفسها التي توسع فيها كانط (Descartes) وأجرأها جورج بيركلي (Berkeley George) بتأكيده أن ما ندركه هي مجموعة من التمثيلات، ولكن من أجل ضمان الموضوعية المعرفية ادّعى كانط أنه لا بد من وجود أشياء في حدّ ذاتها.

اعتبار التركيب مركزيا في عملية التحليل اللغوي، ولعل في النتائج المتوصل إليها من الدراسات المعرفية للغة تؤكد أن نسق المعرفة هو نسق يرتبط بقيود التفاعل الحاصلة بين تمثنا للأشياء وقدرتنا على صياغة ذلك وفق آليات لغوية نعبر من خلالها عن إدراكنا للعالم كما نتصوره^(١).

هكذا يكون من الأهداف الرئيسة التي تتوخى تحقيقها نظرية الدلالة التصورية إعادة إدماج النحو التوليدي، بما في ذلك نظرية الدلالة، في العلوم العصبية والمعرفية بكيفية يجعلها تتلاءم بصورة طبيعية مع الهندسة الواسعة للذهن/ الدماغ^(٢).

لقد حاول لانفاكير أن يمايز في هذا الإطار بين التصورات وبناء التصورات، على اعتبار أن بناء التصورات يستنبط من خلال إدراكنا الحسي للعالم (Percepts)، فعندما نستحضر نوعا من أنواع الفاكهة (البرتقال مثلا)، يحدث أن تدرك، في الوقت نفسه، السمات التي تميز هيئتها، ولونها، وتركيبها، وشكلها، ومذاقها، ورائحتها وغير ذلك. هذه المجموعة المتعددة من المعلومات المدركة حسيًا تشتق من العالم «الخارجي» وتدمج في صورة ذهنية واحدة (A single mental image) وهو التمثيل المتيسر للوعي، والتي تسمح بقيام تصور مفرد خاص بالبرتقال (التصورات). لكن عندما نستخدم اللغة وتلفظ بكلمة البرتقال، فإننا نتج رمزا يتوافق مع المعنى المتفق عليه، وعليه فإنه «يربط» بالتصور بدلا من الموضوع المادي الموجود في العالم

(١) للمزيد حول هذه المعطيات يرجى العودة ل: غاليم، محمد، (٢٠٠٧)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحليل جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

(٢) قد أوضح محمد غاليم (٢٠٠٧)، أن نظرية الدلالة التصورية تقوم على تصميم نحوي ذي هندسة متوازنة أساسها أنساق نحوية مستقلة لامتلاكها أوليات ومبادئ تأليفية وقدرة توليدية خاصة ومتفاعلة، عبر الوجاهات التي تقيم بينها توافقات جزئية. على أن نظرية الدلالة التصورية، إذ تعيد النظر في الافتراضات السابقة، فإنها لا تتخلى عن أهم الأسس التي قام عليها النحو التوليدي وأبرزها الموقف الذهني والتأليفية.

الخارجي بصفة مباشرة. (بناء التصورات)^(١). بمعنى أن بناء المعنى لا يمكن أن يستند على التصورات فقط، بل يبني من خلال التفاعل المفترض بين ما نتصوره وما يتصوره الآخر عن البرتقال، فلا نعتقد أن ما نتواضع عليه حول البرتقال يكون كافيا لبناء تصور عنه، بل إن بناء المعنى العام للبرتقال يتولد من خلال مخرجات التواصل.

صحيح أن هذه الأفكار تتجاوز المعنى بصورته الوضعية، لكن يحتاج منا الأمر الكثير من الأدلة التجريبية التي بإمكانها أن تزيد من تحديد منزلة المعنى والتمثيل له صوريا في مستوى البنية التصورية، ونحن نعلم أن البنية التصورية هي مظهر من مظاهر التمثيلات المعرفية التي يقوم عليها الفكر البشري^(٢)، إنها نسق مركزي من أنساق الذهن، وهي ليست جزءا من اللغة، بل هي البنية الذهنية التي ترمزها اللغة في صورة قابلة للتواصل، لتكون بذلك البنية التصورية مركزا للاستنتاج والارتباط بالإدراك والفعل غير اللغويين، على اعتبار أنه بإمكاننا أن نجد بعضا من البنيات التصورية عند بعض الذوات غير اللغوية كرضع مثلا، لتكون بذلك أنماطا من التمثيل الذهني التي تستعمل للتفكير وليس للتواصل^(٣).

ونحن إذ نساير ما أكده محمد غاليم في هذه النقطة، إلا أنه بإمكاننا أن نضيف أن الدلالة المعرفية عندما رصدت المعنى أكدت على أن البنية التصورية هي بنية متجسدة فينا بالقوة، على اعتبار أن كل بنية دلالية هي بنية تصورية، ليكون تمثيلنا للمعنى تمثيلا موسوعيا يكون فيه بناء للمعنى بناء لتصور معين، لتجمع بذلك الدلالة

(١) عمر بن دحمان (٢٠١٠)، دراسة المعنى من منظور دلالي عرفاني، مجلة الخطاب، العدد ١٠، ص،

(٢) غاليم، محمد، (٢٠٠٧)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحاليل جديدة، دار توبقال، ص، ٣٣.

(٣) غاليم، محمد (٢٠٠٧)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحاليل جديدة، دار توبقال، ص، ٣٣.

المعرفية بين البنية التصورية والمعنى اللغوي، على اعتبار أن المعاني تتولد وتبنى من خلال مخرجات (Output) التعبيرات اللغوية التي تتموقع داخل أذهان المتكلمين الذين يستنبطونها من خلال التجربة الحسية، بمعنى أنه منبثق من طبيعة التفاعل الاجتماعي، بدلا من كونه شيئا ثابتا مفروضا سلفا^(١).

عندما نؤكد أن اللغة هي مجموعة من التصورات التي تتموقع على مستوى الذهن، فإننا نؤكد أن البنية الدلالية قد تكون موازية للتصورات ومعبرة عنها، وكل تعبير يحمل بين تنايه العديد من السمات والخصائص التي تميزه، فعندما نصل في بناء المعنى إلى إدراك معنى الحب، فإن المعنى المتولد من مخرجات التواصل يوسم بالعديد من السمات المتوافق عليها وحولها، أو لنقل الوصول بالحب إلى المعنى الذي يريده الطرفان، وهذا دليل إضافي يزكي ما انطلقنا منه عندما قلنا إن السمات هي مجموعة من الخصائص التي تبرمج داخل الذهن من أجل المساهمة بشكل من الأشكال في بناء المعنى، وبناء المعنى يرتبط هو الآخر ببنية تصورية ودلالية، على الرغم من تأكيد الدلالة المعرفية أن المعاني المقترنة بالكلمات تشكل مجموعة فرعية من مجموع التصورات الممكنة فقط؛ لأن ما نملكه من أحاسيس ومشاعر وأفكار يصب أن يتوازي مع اللغة التي تحملها، بمعنى أن اللغة قاصرة جدا لكي تحمل كل ما نفكر فيه أو كل ما يوجد في الذهن.

خاتمة

لقد حاولنا أن نبين في هذا الفصل أنه بإمكاننا أن نعالج مداخل اللغة العربية بطريقة تحترم خصوصيات الهندسة العامة للسمات، وهي الهندسة التي نعتبرها أساسية للكشف عن التمايزات التي تعرفها مفردات اللغة، اعتبارا أن اللغة تعرف غنى مزدوج المعالم تصريفي يستهدف التوزيع الصرفي، وآخر يستهدف الحجم الكبير من السمات

(١) عمر، بن دحمان (٢٠١٠)، دراسة المعنى من منظور دلالي عرفاني، مجلة الخطاب، العدد ١٠، ص، ٤١

التي تكبسها، لذلك حاولنا أن نشتغل في إطار يعتبر التحليل المركزي للسمات الدلالية مقارنة جريئة نناقش من خلالها أن السمات الدلالية هي المسؤولية على خرج التراكيب اللغوية بطريقة سليمة عكس ما ظل يروج له في كون التركيب يسبق الدلالة في ذلك، على اعتبار أن النسق العام المتحكم في بناء تصوراتنا هو نسق يفصل بين السمات كخصائص مؤسسة للبنيين الدلالية والتصورية، مدافعين عن ذلك بالكثير من الأدلة والحجج من داخل النظام العام للغة العربية.

لائحة المراجع العربية

- أبو بكر العزاوي (٢٠١٨)، محاضرة الفضاء في اللغة مقارنة عرفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط- المغرب.
- حباشة صابر (٢٠٠٨)، في المعنى: مباحث دلالية معرفية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب
- جاكندوف راي (٢٠٠٢)، الدلالة مشروعاً ذهنياً، ضمن دلالة اللغة وتصميمها، ترجمة محمد غاليم، دار توبقال للنشر، المغرب.
- جورج لايكوف ومارك جونسون (٢٠١١)، من نكون؟ ترجمة عبد المجيد جحفة، ضمن الاستعارة والمعرفة، منشورات مختبر اللسانيات والتواصل، الدار البيضاء
- ديكلي وفلاكول (٩٨)، الدلالة المعرفية للعمل، ترجمة أحمد برسول، ضمن أبحاث لسانية، المجلد ٥، العدد ١: ٢٠٠٠، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط.
- عبد الجبار بن غريبة (٢٠١٠)، مدخل إلى النحو العرفاني، سلسلة لغويات، مسيكياني للنشر، كلية الآداب، منوبة.
- عبد المجيد جحفة (٢٠٠٠)، مدخل إلى الدلالة التوليدية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
- عبد المجيد جحفة (٢٠١٠)، في سمات الحدث، ضمن السمات في التحليل اللغوي، مختبر اللسانيات والتواصل، إعداد خالد برادة، عبد المجيد جحفة، منشورات المختبر،/ كلية الآداب، بني امسيك- البيضاء
- عبد المجيد جحفة (٢٠١١)، أجسادنا في الفضاء تولد الاستعارات، ضمن الاستعارة والمعرفة، منشورات مختبر اللسانيات والتواصل، الدار البيضاء.

- عبد القادر الفاسي الفهري (٢٠٠٥)، سلسلة محاضرات وعروض بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب.
- عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٨٨) البناء الموازي: نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب
- عبد الكبير الحسني (٢٠١٨)، السمات الدلالية المتصلات وهندسة توزيعها في التركيب: دراسة مقارنة، ضمن مجلة اللسانيات العربية التي يصدرها مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية. العدد السادس.
- عبد الكبير الحسني (٢٠١٥)، البنيات الدلالية للزمن في اللغة العربية: من اللغة إلى الذهن، داز كنوز المعرفة، الأردن.
- عبد الكبير الحسني (٢٠١٥)، التصور الاستعاري للزمن: من إدراك اللغة إلى إدراك الذهن، ضمن مجلة اللسانيات العربية التي يصدرها مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية. العدد الأول.
- محمد الرّحالي، تركيب اللغة العربية: مقارنة نظرية جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، (٢٠٠٣)
- محمد غاليم (٢٠٠٧)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
- محمد غاليم (٢٠٠١)، سمات جيهية في الأشياء والأوضاع، أبحاث لسانية، المجلد ٦ العدد ٢، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط.
- محمد غاليم (١٩٩٩)، المعنى والتوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، المغرب.
- محمد الملاخ (٢٠١٠)، الزمن في اللغة العربية، بنياته التركيبية والدلالية، دار الأمان، الرباط.
- محمد صالح البوعمراني (٢٠٠٩)، علم الدلالة العرفاني، مكتبة علاء الدين، الصفاقس، تونس

- محمد صالح بن عمر (٢٠٠٣)، المعنى في الاكتساب اللغوي، ضمن كتاب المعنى وتشكله، ج ١، جامعة منوبة، تونس.
- عمر بن دحمان (٢٠١٠)، دراسة المعنى من منظور دلالي عرفاني، مجلة الخطاب، العدد ١٠.

لائحة المراجع الأجنبية

- Barsalou, L. (1999). Perceptual symbol systems. Behavioral and Brain Sciences, 22
- Chomsky, N (75). Reflection on Language , Pantheon , New York
- Chomsky, Noam, (72). Questions de semantique, Seuil , Paris
- Croft, W & Cruse, D (2004). Cognitive linguistics. Cambridge: Cambridge University Press.
- Holmqvist, K. (1993). Implementing cognitive semantics. Lund University Cognitive Studies 17. Lund: Lund University.
- Katz & Fodor (63). The structure of a semantic theory, language; 39
- Katz (72), Semantic theory , Harper & row publishers
- Evans, V., & Green, M. (2006). Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh: Edinburgh University Press
- Fauconnier, G. (1987). Mental Representations, MIT Press , Cambridge Mass.
- Fillmore, Charles. (1985). Frames and the semantics of understanding. ms, university of California, Berkeley.
- Fodor & Garrett (75), The psychological unreliability of semantic representation. LI 6
- Langacker, R. W. (2008). Cognitive grammar: A basic introduction Oxford ; Oxford University Press

- Langacher, R (1991). Foundations of cognitive grammar, vol. 2: descriptive application. Stanford, Calif.: Stanford University Press.
- Lakoff, G., & Johnson, M. (1980). *Metaphors We Live By*. Chicago: University of Chicago Press.
- Lakoff, G (2006). Conceptual metaphor, in cognitive linguistics, Gruyter-berlin, New York.
- Lonterié G. (1987)): le cerveau , collection clefes, ed , segher , Paris
- Martin RAUBAL Formalizing Conceptual Spaces. Institute for Geoinformatics, University of Münster ; Germany.
- Mandler, J. M. (2004). *The foundations of mind: Origins of conceptual thought*. New York: Oxford University Press.
- Gärdenfors, P. (2000). *Conceptual spaces: The geometry of thought*. Cambridge, MA: MIT Press
- Gärdenfors, P. (2014) *Geometry of meaning: semantics based on conceptual spaces* ; The MIT Press.
- Gibbs, R. W., & Colston, H. L. (1995). The cognitive psychological reality of image schemas and their transformations. *Cognitive Linguistics*, 6.
- Piaget J.: *l' image mentale chez l enfant* , puf. france
- Rosch, Eleanor (1975). Cognitive representations for semantic categories. *Journal of Experimental Psychology: General* 104
- Vendler, Z. (1957). Verbs and times. *Philosophical Review*, 56.
- Yu. C. & Smith. L. B. (2012). Embodied attention and word learning by toddlers. *Cognition*. 13.